د . يوسف عز الدين عيسى

الواجهة



دار المعارف

تصميم الغلاف : أحمد أبو عمر

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع

١

لا يذكر من أين أتى ؟ ولا لأى غرض جاء ؟ ولكنه فى صباح أحد الأيام وجد نفسه فى هذه المدينة التى لا يعرف عنها شيئاً ، ظل واقفاً يدير بصره فى أنحاء المكان يتأمل واجهات المساكن والمتاجر ، كل شيء نظيف ، الجدران نظيفة ، والأفاريز نظيفة ، ويكاد يرى صورته منعكسة على أرض الشارع من فرط نظافته .

إنه لا يذكر وسيلة المواصلات التى نقلته إلى هذه المدينة ، لا يذكر أنه ركب طائرة أو سفينة أو قطاراً ، ولكن لابد أنه انتقل إليها من مكان آخر ، فهو متعب ، والمدينة غريبة فى نظره لم يرها من قبل .

أخذ يفتش فى جيوبه وكأنه يفتش فى جيوب شخص غريب لا يمت له بصلة ! إنه يريد أن يعرف ماذا فى جيوبه ؟ كل ما وجده مجموعة من الأوراق البيضاء ، ليس بها سطر واحد . شعر بوحدة مؤلمة ، مرت من أمامه فتاة رائعة الجمال ترتدى ثوباً أبيض وقبعة بيضاء ، كانت تسير مطرقة للأرض لا تنظر يميناً ولا يساراً ، فأخذ يتابعها ببصره ، دون أن يشعر ، وجد نفسه يسير خلفها . بعد عدة خطوات رآها تختفى داخل أحد الأبواب على الجانب الأيمن من الشارع ، المبنى الذى دخلته يختلف هو وباقى مبانى المدينة . سمع أصواتاً وتراتيل تنبعث من ذلك المبنى ، وقف أمام الباب ، وحاول أن يمد بصره داخل هذا المكان .

رأى ممراً سقفه مرتكز على أعمدة من الرخام الملون وأرضه من البلاط الأزرق المصقول ، والممر يخترق حديقة أشجارها باسقة ذات أزهار بنفسجية تنبعث منها رائحة زكية . عند نهاية الممر رأى سلماً قاسيع درجات يؤدى إلى باب آخر نصفه مفتوح والنصف الآخر مغلق ، ذى زجاج أخضر تزينه رسوم عديدة لم يتبينها جيداً . صعدت الفتاة السلم ، واختفت خلف الباب . أخذت الأصوات المنبعثة من ذلك المبنى تعلو مترنمة بأناشيد ذات لحن جميل وإيقاع سريع . شعر برغبة شديدة فى دخول هذا المبنى ، إنه وحيد ويُحب أن يرى نفسه بين الناس ، ويود الاستفسار عن أشياء كثيرة . يريد أن يعرف المزيد عن هذه المدينة ، ربما يستطيع إدراك سبب وجوده فيها ومن أى مكان جاء ؟

دخل المبنى ، كان مزدحماً بعدد هائل من البشر ، نساء ورجال وأطفال مصطفين على مقاعد خشبية أنيقة ، مرتدين جميعاً ملابس بيضاء ، وعلى جزء مرتفع أمامهم منصة يقف خلفها رجل فى نحو الخمسين ، يرتدى روباً يشبه أرواب أساتذة الجامعات . كان الرجل واقفاً فى صمت وقد أطرق برأسه نحو الأرض ، ووضع كفيه متقاطعتين فوق بطنه ، أما الجالسون أمامه فكانوا يرددون أناشيد لم يستطع الشاب الغريب أن يفهم منها شيئاً ، لكن أصواتهم كانت جميلة .

أسرعت دقات قلبه وهو واقف فى مكان لا يعرفه باحثاً عن الفتاة التى رآها فى الطريق وقد شعر كأن بينه وبينها صلة ، فهى الوحيدة التى سبق له رؤيتها من بين جميع هؤلاء البشر ، وجدها جالسة على مقعد خلفى ، فجلس بجوارها ، حاول أن يستفهم منها عن اسم هذه المدينة ، فلم تجب عن سؤاله ،

بل قامت فى صمت ، وجلست فى مكان بعيد عنه ، وبقى هو جالساً فى مكانه ولا أحد بجواره ! وانطلق بين الصفوف طفل يعدو وفى يده بالون ، فقامت تجرى خلفه سيدةٌ مفرطة البدانة ، وأمسكت به وعادا معاً إلى مكانيهما . علا صراخ الطفل فحملته على كتفها واختفيا عن الأنظار ، ولا يعلم الشاب الغريب أين ذهبا ؟ وساد السكون !

رفع الرجل المرتدى الروب رأسه الذى يشع فى الشيب ، ونظر إلى الجماهير التى أمامه ولزم الصمت نحو دقيقة ثم قال :

ما أجمل أن يكون الإنسان نقياً كالماء العذب ، طاهر النفس ، نظيف اليد واللسان . إنى أباركم جميعاً وأتمنى لكم من السعادة وسعة الرزق وراحة البال ما أنتم جديرون به أيها الأصدقاء . ما أجمل أن نحنو على الضعيف ونساعد الملهوف . لقد سرنا منذ سنوات عديدة على هدى هذه المبادئ النبيلة الجديرة بمدينة طاهرة كمدينتنا . منذ عصور بعيدة موغلة فى القدم لم تقع فى مدينتنا جريمة واحدة ، إذ ليس تحت سمائها رجل منحرف أو أنثى معوجة الأخلاق . ولم تمتد يد لتسرق ، ولم ينطق لسان بالفحشاء مما دعا إلى إلغاء المحاكم وهدم السجون التى أقيم فى مكانها مدارس ومساكن وحدائق رائعة الجمال . ولابد أنكم لاحظتم أنى توقفت عن الوعظ والإرشاد فترة من الزمن ، حيث لم يعد لها ضرورة ، إذ ماذا أقول لأناس أطهار أبرار أمثال أهل مدينتنا ؟ هل أدعو إلى الأمانة وجميعهم أمناء ؟ هل أحض على الرحمة وجميعهم رحماء ؟ هل أنادى بالوفاء وكلهم أوفياء ؟ لم يعد عندى ما أقوله ، ولذا فلقد قدمت التماساً إلى المسئولين لإعفائى من الوعظ لأعتكف فى بيتى ، ولكن المسئولين رفضوا

الاستجابة لالتماسى قائلين : إنه من الأفضل أن أواظب على الحضور لأمتع نظرى برؤيتكم ولنتحدث فى شتى أمور الحياة ، ونشكر مالك المدينة الذى هيأ لنا كل أسباب الرفاهية ، ولأقص عليكم بعض القصص الطريفة والفكاهات المسلية التى تحمل البهجة إلى القلوب ، وتجلو صدأ النفوس ، لنحيا حياة سعيدة خالية من الألم والأحزان ، ولذا فسوف تروننى فى الموعد الذى اعتدنا الالتقاء فيه نفسه . ولتنصرفوا الآن إلى أعمالكم وإلى اللقاء .

هبط من فوق المنصة ، وقام الجميع وأخذوا ينصرفون من المبنى ، ولكنهم لم يخرجوا من الباب الذى دخل منه الشاب ، بل كانوا يخرجون من باب خلفى فى القاعة ، ويختفون ولا يعلم الشاب الغريب أين يذهبون ؟ قام وأخذ يتجول فى أنحاء المكان باحثاً عن ذلك الباب الخلفى ، فلم يجده ولم يعثر على أحد فى أثناء جولاته ، لقد انصرف الجميع ، لأنهم يعلمون إلى أين يذهبون ، أما هو فلا يعلم إلى أين يذهب ، فعاد وجلس على أحد المقاعد . إنه شاب فى نحو الخامسة والعشرين ، شاحب الوجه وسيم ، نحيل ، يرتدى حلة زرقاء وقميصاً أبيض ورباط عنق أخضر . أخذ يلوم نفسه على خجله الذى منعه من عرض مشكلاته على الواعظ . شعر بوحشة شديدة عندما وجد نفسه وحيداً ، فقام وغادر المبنى ، ووجد نفسه من جديد فى الطريق الذى كان سائراً فيه .

شعر بالجوع ، فأخذ يبحث فى جيوبه مرة أخرى ، ولكنه لم يجد أى نقود ، لم يجد سوى الأوراق البيضاء الخالية من أية كتابة . فكرَّ فى أن يتسوّل ليمسك رمقه ، لا أحد يعرفه فى هذه المدينة ، ولذا فهو لا يخجل من التسول . ولكن ليس من المعقول أن يسافر ويحضر إلى مدينة كهذه ليتسول ! لابد أنه قدم إلى

المدينة لمهمة معينة ، ولكن ما هذه المهمة ؟ إنه لا يعرف من أين جاء ؟ إذ لو كان يعلم من أين جاء لعاد إلى المكان الذى جاء منه ، فربما يعرف هناك بعض الناس أو يعرفونه .

استمر سائراً فى ذلك الشارع يفكر فى هذه الأمور ، إنه شارع يبدو وكأنه يمتد إلى ما لا نهاية ، على جانبيه أشجار باسقة خضراء ولكنها عديمة الثمر ، النسيم منعش عاطر بأريج الياسمين ، والمنازل ذات ألوان زاهية خلابة ومتناسقة تكسب الشارع جوًّا أسطوريًّا يمس الخيال . أطل من نوافذ وشرفات بعض المساكن فتيات جميلات أنيقات يبتسمن له ، ويلوحن له بأيديهن ، بعضهن يرتلن أغنيات عذبة الألحان ، وبعضهن يعزفن على آلات موسيقية كالأكسيلفون والجيتار والأكورديون . تتخلل المنازل على جانبى الطريق محال تجارية شاهقة البنيان رائعة المنظر ، ومسارح ودور للسينما على واجهاتها عناوين مسرحيات وأفلام لم يسمع عنها من قبل . تاقت نفسه لدخول إحدى دور السينما ، ولكنه تذكر أنه لا يحمل معه نقوداً ، شعر بجوع شديد . ومرَّ على مطعم فاخر تفوح منه رائحة الشواء ، لم يستطع مقاومة تلك الرائحة ، فدخل المطعم ، وجلس أمام منضدة يكسوها غطاء نظيف متعدد الألوان ، وأخذ ينصت إلى الموسيقى الهادئة العذبة التى تنبعث فى أنحاء المطعم ، بعد برهة قصيرة أقبلت نحوه فتاة رائعة الجمال ترتدى ثوباً قصيراً أصفر . نظرت إليه مبتسمة ابتسامة عذبة ، ووقفت بجواره وقدمت له قائمة الطعام ليختار منها ما يحلو له ، فاحمر وجهه خجلاً ، ولزم الصمت وأطرق للأرض ، ظلت الفتاة واقفة بجواره ناظرة إليه مبتسمة ثم قالت :

– هل تترك لى مهمة اختيار الطعام الذى أقدمه لك ؟ نظر إلى الفتاة بعينى كعينى طفل برىء فى حيرة ، ثم أطرق للأرض وقال :

– كما تريدين .

لما همت بالانصراف صفق بيديه ، فرجعت وعلى فمها الابتسامة نفسها . قال لها :

– لست أدرى ماذا أقول ؟ أنا فى منتهى الخجل ؟ أنا جوعان ولكنى لا أملك ثمن الطعام . ليس معى أى نقود . لقد جذبتنى إلى هذا المطعم رائحة الشواء فلم أستطع مقاومتها !

قالت الفتاة والابتسامة لم تفارق شفتيها :

– ومن قال إننا سنطالبك بأى نقود ؟

قال الشاب وهو يتحاشى أن تلتق عيناه وعينا الفتاة :

– أليس من المفروض أن أدفع ثمن الطعام ؟

– الطعام هنا بالمجان لكل جائع من الضيوف !

قال الشاب مندهشاً :

– لكل جائع من الضيوف ؟

– نعم ، كل غريب عن هذه المدينة نعتبره ضيفاً لمدة عام ، نقدم له الطعام والمأوى بالمجان طوال العام ، أنا كنت فى انتظار قدومك !

شعر بالفرحة تهز كيانه وقال :

– وكيف عرفت أنى غريب عن هذه المدينة ؟

قالت الفتاة وقد وضعت يدها فى خصرها ، فبدت كتمثال جميل من المرمر :

– كل الضيوف يأتون إلى هذا المطعم ، وأنا لم أرك هنا قبل الآن ، فلابد أن هذا أول يوم لك فى مدينتنا ، والآن سأذهب لأحضر لك الطعام فلابد أن الجوع قد اشتد بك يا مسكين !

وابتعدت عنه وأراد أن يتبع عينيه جسمها الجميل وهى تخطو فى رشاقة ، ولكنه خجل من نفسه ، فغض من بصره ، ونظر إلى مفرش المنضدة مكتفياً بالإنصات إلى الموسيقى العذبة ، وبعد برهة قصيرة أقبلت الفتاة ووضعت أمامه زجاجة متوسطة الحجم ممتلئة باللبن وصينية كبيرة من الفضة ذات غطاء ، كشفت الغطاء فإذا بالصينية حمبرى مشوى منزوع قشره وتحته كمية من الأرز .

أقبل على الطعام فى نهم ، فلم يشاهد الفتاة وهى تبتعد عنه ، وفى دقائق قليلة كان قد التهم كل ما فى الصينية ، وأفرغ زجاجة اللبن فى معدته ، ورفع بصره فإذا بمجموعة من الفتيات الجميلات قد التففن حوله يعزفن له على الجيتار أنغاماً شجية ، وأقبلت الفتاة التى أحضرت له الطعام وسألته : هل ترغب فى المزيد ؟ فشكرها وأخبرها أنه نال كفايته ، ثم أطرق للأرض ، وقال وقد احمر وجهه خجلاً :

– أنا لا أود مغادرة هذا المكان ، فكل ما فيه جميل .

فقالت له الفتاة مبتسمة :

– احضر فى أى وقت تشاء ، ستجدنى هنا فى انتظارك ، لأقدم لك كل ما تريد من طعام .

شعر بنشوة وخدر يسرى فى جسده ، وود لو يحضنها ويقبلها ، ولكنه تذكر أنه فى مكان محترم وفى مدينة تتسم بالطهر والنقاء ، وأى تصرف أحمق كهذا سيكون عاقبته وخيمة ، فانتزع نفسه وقام ، وجد الفتاة لا تزال ناظرة إليه مبتسمة فقال لها :

– هل قلت لى : إن لكل ضيف من ضيوف هذه المدينة الطعام والمأوى بالمجان لمدة عام ؟

– نعم . كما قلت لك تماماً . وعلاوة على ذلك الكساء !

فوقف الشاب مطرقاً للأرض لحظة ثم قال فى خجل :

– فأين مأواى ؟ أين مسكنى ؟

قالت الفتاة :

– آه ! لا تؤاخذنى ، لقد نسيت ، سأخبرك حالاً ، لحظة واحدة من فضلك .

وأسرعت تعدو نحو آلة تليفون بجوار الحائط ، ورفعت السماعة وأدارت رقما ثم قالت :

– آلو . . أجل . . . إنه عندى الآن بالمطعم . . . إنه يسأل عن مسكنه . . . وهو كذلك . . . سأخبره .

وضعت سماعة التليفون فى مكانها ، واقتطعت ورقة بيضاء من دفتر بجوار التليفون وكتبت فيها شيئاً وسلمتها للشاب قائلة :

– اسمك « ميم نون » أليس كذلك ؟

فقال وهو شارد الذهن :

– نعم . . . أنا اسمى « ميم نون » .

فناولته الفتاة الورقة قائلة :

– ها هو ذا عنوان منزلك ، إنه فى هذا الشارع ، وليس بالمدينة شارع سواه ، ما عليك إلا الذهاب إلى هذا العنوان وتضغط على زر جرس الباب ، وسيفتح لك الباب رجل ، سيكون فى خدمتك ، وسيلبى جميع طلباتك لمدة عام ، ما عدا الطعام ، حيث ينبغى أن تحضر لتناوله هنا فى هذا المطعم كلما شعرت بالجوع .

لم يفرح « ميم نون » بحصوله على مسكن بقدر فرحه بأنه سيتناول طعامه فى هذا المطعم لتتاح له فرصة رؤية هذه الفتاة الجميلة ، أطرق للأرض ولزم الصمت فترة ، ثم قال :

– ما اسم هذه المدينة ! أنا لا أعرف اسمها ولا أدرى من أين ولا لأى غرض أتيت هنا ؟

قالت الفتاة ومحياها نشوان :

– لقد مللت سماع هذا السؤال ، أسمعه من جميع الضيوف الذين يأتون إلى هذه المدينة . سوف تعرف كل شىء فى حينه ، لابد أن تكتشف ذلك بنفسك .

وتركته وانطلقت تعدو نحو رجل ضخم الجثة يجلس فى ركن خافت الضوء . خرج « ميم » من المطعم ، وامتدت يده إلى جيبه فأخرج الورقة التى أعطتها إياه الفتاة وقرأ العنوان من جديد ، ليس فى الورقة اسم الشارع ، بل رقم هو ١٨٢٤ ، إذ لابد أن يكون مسكنه فى هذا الشارع الوحيد بالمدينة كما أخبرته الفتاة .

سار يلاحظ أرقام البيوت . وجد بجوار المطعم مبنى يحمل رقم ٩٣١ ، وهذا يعني أن منزله لابد أن يكون في الجهة الأخرى حيث أرقام المنازل زوجية ، أما في ناحية المطعم فأرقام المباني فردية . فعبر الشارع وانتقل إلى الإفريز المقابل ، وسار يتابع أرقام المنازل . وبعد نحو ساعة سيراً على الأقدام وصل إلى الرقم المطلوب . وجد منزلاً أنيقاً من طابقين يحمل رقم ١٨٢٤ ، أمامه حديقة ذات أشجار يبدو أنها غرست حديثاً ، فهي ما تزال صغيرة لم ترتفع كثيراً عن الأرض ، وللحديقة باب ذو قضبان عمودية من الخشب الفاخر . كان باب الحديقة موصداً ، ضغط على زر الجرس ، فرأى باب المنزل الذي عند الطرف الآخر من الحديقة يفتح ويطل منه رجل نحيل طويل القامة يرتدي سروالاً أزرق وسترة ناصعة البياض وقميصاً أصفر ورباط عنق أزرق ، هبط الرجل سلم المنزل ، ولاحظ ميم أنه يعرج قليلاً ، واتجه يبطء نحو باب الحديقة وأدار مفتاحاً وفتح الباب ، ثم أخرج من جيبه نظارة وضعها أمام عينيه ، وتفرس في وجه « ميم نون » ثم ابتسم ابتسامة عريضة وقال :

– كنت في انتظارك منذ ساعتين ، تفضل .

فسار « ميم نون » خلفه وصعدا سلماً من ست درجات ، كان باب المنزل ما زال مفتوحاً ، فدخل الرجل ودخل خلفه الشاب ، ثم أغلق الرجل الباب ، وأخذ « ميم نون » يدير بصره مكتشفاً المكان ، وظل الرجل ذو السترة البيضاء واقفاً وكأنه في انتظار أي أوامر ، ثم قال لميم :

– هل لديك يا سيدي ميم أي أوامر أو أي طلبات ؟

فقال ميم :

– كلا . ولكن يبدو أن المنزل ينقصه الأثاث .

فقال الرجل بدهشة :

– كيف لا يوجد أثاث ؟ الأثاث موجود .

ظل ميم يدير بصره في أنحاء البهو ، ليكتشف وجود هذا الأثاث ، ولكنه لم يجد سوى كرسي واحد ، ومنضدة صغيرة بجوار الكرسي ولا شيء غير هذا فقال ميم للرجل :

– لا أرى سوى كرسي واحد ومنضدة صغيرة . هل هذا كل أثاث المنزل ؟

فقال الرجل :

– كلا ، في الطابق العلوي أيضا سرير ، هيا معي لتراه .

صعدا معاً سلماً من الخشب الفاخر يؤدي إلى الطابق العلوي . فتح الرجل باب غرفة ودخلا تلك الحجرة ، لم يكن بها سوى سرير ضيق يشبه أسرة المستشفيات ، وبجواره منضدة صغيرة . التفت الرجل إلى ميم وقال :

– ها هو ذا باقي الأثاث .

فقال ميم

– هل هذا كل أثاث المنزل ؟ كرسي واحد في الدور الأرضي وسرير ضيق في الدور العلوي ؟

فنظر إليه الرجل في دهشة وقال ؟

– في الحائط أيضا صوان به ملابسة ترتديها عندما تنام ، وهل يحتاج الإنسان لأكثر من هذا ؟ كرسي تجلس عليه ومنضدة مناسبة ، وسرير تنام فوقه .

وبجواره منضدة تضع عليها ما تريد قبل النوم ، ومائدة تزيدها عندما تنام ؟ هل من المعقول أن يجلس الإنسان على كرسيين أو ينام على سريرين فى وقت واحد أو يرتدى معاطفين فى آن واحد ؟

فأطرق سيم للأرض ولزم الصمت فترة ، ثم رفع رأسه وقال :

– وإذا زارنى زائر فأين يجلس ؟

– لن يزورك أحد ، لا أحد يعرفك فى المدينة فمن ذا الذى يزورك ؟

فقال سيم وقد بدا عليه الحزن :

– وهل سأعيش طوال هذه المدة فى تلك الوحدة القاتلة ، لا يعرفنى أحد ولا يزورنى إنسان ؟

– الوحدة خير من جليس السوء ! والإنسان يعتاد الوحدة بمرور الزمن ، ومن يشغل ذهنه بشىء ذى قيمة لا يشعر مطلقاً بالوحدة ، اقرأ كتاباً أو اكتب كتاباً .

– اقرأ كتاباً أين هذا الكتاب الذى سأقرؤه ؟

– المدينة مليئة بالمكتبات التى تبيع شتى أنواع الكتب .

– لا أملك أى نقود !

– أنت لا تملك نقوداً لأنك لا تعمل .

– وأين أعمل ؟

– در فى الطاحونة !

فقال سيم فى دهشة :

– أدور فى الطاحونة ؟

– نعم تدور فى الطاحونة ! يمكنك أن تحصل على النقود بهذه الطريقة ، أنت لن تظل ضيفاً إلى الأبد ، ولابد لك من الدوران فى الطاحونة للحصول على ما يلزمك من مال بعد انتهاء مدة الضيافة !

– وأين هذه الطاحونة ؟

– فى الشارع .

– الشارع ؟ أى شارع ؟

– ليس بالمدينة سوى شارع واحد ، ذلك الشارع الذى كنت تسير فيه .

– وفى أى مكان من الشارع هذه الطاحونة ؟

– ابحث عنها بنفسك تجدها .

– ولكن الطاحونة آلة بدائية لا تناسب مظاهر الحضارة التى رأيتها فى هذه المدينة ! كيف توجد طاحونة فى مدينة متحضرة كهذه ؟ ماذا تطحن هذه الطاحونة ؟

– لا تطحن شيئاً إطلاقاً . إنها تدور وتدور فقط !

– إذن ما فائدتها ؟

– إنها ذات فائدة لأمثالك .

– وما فائدتها لأمثالى .

– تدور فيها لتحصل على نقود !

– وما دام دورانى فيها لا يطحن شيئاً فلماذا لا يعطوننى النقود ويريحوننى من عناء الدوران ؟

– لا أجر بلا عمل ، هذا هو شعار مدينتنا .

— وهل هذه هي الوسيلة الوحيدة للحصول على نقود في هذه المدينة ؟ أليس عمل آخر أقوم به ، لأحصل على ما يلزمني من مال ؟

— كلا ، الطاحونة هي الوسيلة الوحيدة !

فأطرق ميم للأرض ثم نظر إلى الرجل وقال :

— هل تدور أنت في الطاحونة ؟

— كلا .

— إذن من أين تحصل على النقود ؟

فقال الرجل غاضباً :

— ليس هذا من شأنك ! منذ أعوام طويلة وأنا أسمع هذا السؤال من أمثالك حتى سئمته ! لا ينبغي لأمثالك أن ينتظر من شخص مثلى الإجابة عن مثل هذه الأسئلة ! يجب أن تكتشف كل شيء بنفسك .

أطرق ميم إلى الأرض في حزن ويأس ثم سار بعده وهبط السلم إلى البهو ، وهبط معه الخادم ، وشعر بأنه غريب حتى عن نفسه ! إنه أشبه بقارب صغير تتقاذفه الأمواج في محيط تجتاحه عاصفة عاتية ، فهو لا يعرف اسم هذه المدينة ، ولا يعلم من أين أتى ؟ ولا لأى غرض جاء ؟ إنه لا يعلم شيئاً ، وسوف يدور في الطاحونة ليحصل على المال ! والتفت إلى الخادم فوجده ما زال واقفاً ، إنه في خدمته ، ولكنه في الوقت نفسه عاجز عن خدمته فهو لا يجيبه عن أى سؤال ! . وقال ميم لنفسه : « كل شيء ينبغي أن أبحث عنه بنفسى ، حتى الفتاة الجميلة التى أحضرت لى الطعام فى المطعم لم تجبنى عن أى سؤال من الأسئلة التى يزدحم بها ذهنى ! » .

شعر ميم برغبة قوية في رؤية فتاة المطعم ، وفى هذه اللحظة رأى الخادم يدير له ظهره ويبتعد عنه ، وأدرك أنه يسير بصعوبة بسبب ساقه العرجاء . خرج الخادم من البهو ، واختفى داخل المنزل ، وبقى ميم جالساً على الكرسى الوحيد الذى فى البهو شارد اللب . شعر بوحدة قاسية ، وقام ليلحق بالخادم ، ليشعر بوجوده مع إنسان يتحدث معه ، ويخفف عنه ألم الوحدة . دار يبحث عنه فى جميع أنحاء الطابق الأرضى فلم يجده . صعد السلم الخشبى المؤدى إلى الدور العلوى وبحث عنه فلم يجده ، وجد فى هذا الدور عدة حجرات موصدة الأبواب ، حاول أن يفتح الأبواب فوجدها مغلقة بالمفتاح ، ووجد غرفة واحدة بابها مفتوح ، فدخلها فإذا بها غرفة نومه التى سبق أن رآها ، وعندما نظر إلى السرير شعر بتعب شديد وأنه فى حاجة للراحة ، فتمدد فوقه ، تحول السرير إلى أرجوحة ورأى الخادم واقفاً يهز له تلك الأرجوحة ، فشعر بدوار ، ثم لم يشعر بشيء بعد ذلك !

عندما قام من نومه وفتح نافذة الغرفة أدرك أن النهار قد ولّى وأقبل المساء ، أراد أن يعرف الوقت ، ولكنه لم يستطع إذ لا يحمل ساعة وليس بالمنزل ساعة ، ومن خلال النافذة رأى الشارع تغمره الأضواء ، ويموج بالحركة والنشاط ، ففكر فى الخروج من المنزل والذهاب إلى المطعم لتناول عشائه . خفق قلبه فرحاً عندما تذكر العشاء فسيرى الفتاة الجميلة التى قدمت له الطعام ، ورأى أن يصلح هندامه قبل الخروج ، فدار يبحث عن الحمام ووجده عند نهاية ممر طويل ، دخل الحمام ، فوجده أيضاً نظيفاً ، ولكن ليس به مرآة ، فخلع ملابسه استعداداً لأخذ دش ، ولكنه تذكر أنه نسى إحضار المنامة من الصوان الذى فى

حائط غرفة النوم ، فذهب إلى تلك الغرفة مرتدياً الملابس الداخلية . فتح الدولاب فوجد به منامة جديدة وفانلة واحدة ولباساً واحداً ، أخذ المنامة والملابس الداخلية وهرول نحو الحمام ، خلع ملابسه الداخلية ، وجلس في حوض الحمام وفتح صنبور الماء الساخن فاندفع من الصنبور ماء ملأ به الحوض ، وظل مسترخياً في الماء فترة من الزمن . تناول ليفة وصابونة من طاقة في الحائط فوق حوض الحمام وأكمل استحمامه .

عندما ارتدى ملابسه وغادر الحمام شعر بانتعاش ونشوة ، دار يبحث عن الخادم فلم يجده ، بعد فترة خلع المنامة ، وارتدى ملابس الخروج ، وعندما هم بإطفاء نور غرفة النوم استعداداً لمغادرة المنزل لاحظ بجوار مفتاح النور أحد الأزرار وقد كتبت تحته كلمة « خادم » . ضغط على ذلك الزر فسمع وقع أقدام الرجل تقترب نحو الغرفة في خطوات بطيئة . طرق الخادم باب الغرفة طرقتين خفيفتين ، فأذن له ميم بالدخول فدخل ، قال له ميم :

– سأخرج الآن للعشاء .

فقال الخادم :

– ينبغي أن تسرع لأن موعد العشاء سينتهي بعد أقل من نصف ساعة .

٢

انطلق ميم يعدو وهبط السلم في بضع قفزات وخرج من المنزل ، كان الشارع مضاءً بأضواء بنفسجية تنعكس عليها أضواء متعددة الألوان من واجهات المحال التجارية ، وهذه بدورها تنعكس على المساكن والمباني فتبدو رائعة تبهر الأبصار وتخلب الألباب . وتلك الشارع الذي كان يبدو وكأنه شبه مهجور عند قدوم ميم أصبح الآن يموج بالبشر ، تزدحم أفاريزه بالنساء والرجال والأطفال والفتيات والشبان مرتدين ملابس جميلة مختلفة الألوان ، وتنساب في الشارع سيارات فاخرة ، تقف عند إشارات المرور ، فيعبر الناس الشارع في أمان ، ثم تعاود السير في بطء واتزان .

ظل ميم سائراً يبحث عن المطعم ، شعر بأن الشارع لا يريد أن ينتهي ولم يستطع العثور على المطعم . أدرك أنه يسير في الاتجاه المضاد ، فعاد يسير في الاتجاه الآخر . وعلى الرغم من ازدحام الشارع بمئات البشر فإن ميم ظل شاعراً بالوحدة وكأنه يسير في صحراء خالية من كل مظاهر الحياة ! إذ ليس من بين جميع هؤلاء الناس من يعرفهم أو يعرفونه . شعر بأنه يريد التحدث مع أي إنسان ، فرأى طفلة جميلة في نحو العاشرة من عمرها ، ذات عينين زرقاوين وشعر ذهبي اللون حول معصمها ساعة فسألها :

– كم الساعة الآن من فضلك ؟

ضحكت الفتاة وظلت تضحك ، فسألها مندهشاً :

– علام تضحكين ؟

فقالت :

– أضحك لأنك تسأل عن الساعة ، وأمامك ساعة كبيرة مضاءة بالأنوار . هي أضبط ساعة في المدينة !

وانطلقت الطفلة تعدو مبتعدة عنه وهي لا تزال تضحك . نظر ميم فرأى في الجزيرة التي في وسط الشارع عموداً يحمل عند قمته ساعة كبيرة الحجم أنيقة الشكل ، أرقامها وعقاربها مضاءة ، ووجد عقاربها تشير نحو الثامنة والنصف وثلاث دقائق ، فأخذ يعدو ، ليصل إلى المطعم قبل انتهاء موعد العشاء .

في الطريق إلى المطعم لاحظ أن جميع من رآهم ينظرون إليه ويبتسمون ، وتعجب لماذا يبتسم له الناس ؟ هل يسخرون منه ؟ هل في منظره أو مظهره ما يدعو إلى الضحك ؟ ازداد شعوره بالوحدة عندما رأى جمعاً من الفتيات والفتيان يسيرون متشابكي الأيدي ، يد كل شاب في يد فتاة ، يترنمون بأغنية بأصوات عالية ، أعجبه اللحن ، ولكنه لم يستطع تمييز كلمات الأغنية ، إنهم بلا شك لا يشعرون بالوحدة التي يشعر بها ، تمنى أن يتعرف بهم ويشاركهم في مرحهم وغنائهم ، نسى الجوع ونسى العشاء ووقف ينظر إليهم وهم مقبلون نحوه . ثم حدث شيء عجيب : لقد التفوا حوله على هيئة حلقة وأخذوا يترنمون بأغنية سريعة الإيقاع ، ويصفقون بأيديهم في مرح ونشوة ، ولكن (ميم) في هذه المرة أيضاً لم يستطع تمييز كلمات الأغنية . في شرفة المنزل المجاور ظهر أكثر عدة فتيات ينظرن إليه ويشتركن في ترديد الأغنية فسرت النشوة في جسده .

وشعر بوطأة الوحدة تخف وتتلاشى ، كما يتلاشى الضباب . حاول أن يمسك يد فتاة أعجبته ، فأرسلت له قبلة في الهواء ، وانطلق الجميع يعدون مبتعدين عنه ، فشعر بالوحدة من جديد . وقف برهة قصيرة مذهولاً يشيعهم ببصره حتى اختفوا ، فبدأ يشعر بالجوع من جديد ومضى مسرعاً نحو المطعم .

ظل « ميم لون » سائراً حتى شعر بالإعياء دون أن يهتدى إلى المطعم ، وقف يدور ببصره باحثاً عن أى مكان يستريح فيه . التفت فوجد سيارة فاخرة خضراء اللون يقودها شاب أنيق وقفت بجواره بمحاذاة الإفريز ، ودعاه الشاب إلى الركوب معه فاتحاً له باب السيارة . فدخل ميم السيارة دون أية مقاومة وجلس بجوار الشاب . قال له الشاب :

– لاحظت أنك تسير في إعياء شديد ، وتبدو حائراً كأنك تبحث عن شئ !

فقال ميم وقد احمر وجهه خجلاً :

– أجل ، لقد سرت مسافة طويلة باحثاً عن المطعم الذى سأتناول فيه عشائى .

فقال الشاب :

– أنت ضيف ؟ أليس كذلك ؟

قال ميم وقد أسعده أن يجد إنساناً يبادله الحديث :

– نعم ، أنا غريب عن هذه المدينة ، ولا أعلم من أين جئت ؟ ولا لأى غرض أتيت ؟

– هل ذهبت إلى مكتب الاستعلامات لتستفهم عن هذه الأشياء ؟

– لا ، أين مكتب الاستعلامات هنا ؟

– هنا ، في هذا الشارع ، ولكنني أعتقد أن موعد العمل فيه انتهى ، اذهب غداً ، واستفهم عن كل ما تريد ، كما أعتقد أن موعد العمل قد انتهى أيضا في جميع المطاعم الآن .

قال ميم وفي حديثه رنة حزن وكأنه يحدث نفسه :

– أين أتناول عشائي ؟ أنا جوعان !

فقال له الشاب مبتسماً :

– هل تتكرم بأن تكون ضيفي هذه الليلة ، وتتناول العشاء في منزلي ؟

قال ميم بلا أي تردد :

– أكون شاكراً لك فضلك .

وتحركت السيارة ثم دارت حول جزيرة في وسط الشارع ، وسارت في اتجاه مضاد لاتجاهها الأول . بعد نحو سبع دقائق توقفت السيارة أمام فيلا فاخرة . هبط الشاب من السيارة وهبط معه ميم ، واجتازا الباب الخارجي المؤدي إلى حديقة تتخلل أشجارها أنوار متعددة الألوان ، سارا معاً في طريق طويل يؤدي إلى باب المنزل وصعدا سلماً ، وأخرج الشاب مفتاحاً وفتح الباب ، ودخلا .

أدار ميم بصره في أنحاء البهو فشاهد من جمال الأثاث وروعة التحف ما جعله يشعر بأنه إنسان مسكين ضئيل القدر ! طلب منه الشاب أن يجلس ، فجلس وتركه الشاب وصعد سلماً خشبياً يؤدي إلى الدور العلوي . في هذه الفترة أخذ يتأمل محتويات المكان . إنه لم ير أروع من هذا الديكور ولا أجمل من ذلك الأثاث . يتناثر في أنحاء المكان عدد من التحف الثمينة . وبينما هو ينظر بإعجاب

إلى أحد التماثيل الجميلة شاهد الشاب يهبط السلم وخلفه فتاتان جميلتان ترتديان ثوبين متشابهين ، إحداهما في نحو العشرين والأخرى في نحو السابعة عشرة . قدم الشاب الفتاتين لميم قائلا :

– أختي « تاء » وأختي « سين » .

صافحهما ميم باحترام ، وقال الشاب لميم :

– أنا لا أعرف اسمك حتى الآن . قدم نفسك لهما .

فقال ميم :

– اسمي « ميم نون »

– قال الشاب :

– وأنا اسمي « دال » .

جلس ميم على الأريكة الفاخرة وجلست بجواره « تاء » وهي الكبرى ، أما « سين » فجلست على كرسي فاخر على يمينه وجلس « دال » على كرسي على يساره ، وسادت فترة صمت ، ثم قال الشاب صاحب البيت موجهاً حديثه للفتاتين :

– رأيته يسير في إعياء شديد يبحث عن مطعم يتناول فيه عشاءه ، فدعوته لتناول العشاء معنا ، وتفضل بقبول دعوتي .

فقال « تاء » :

– فرصة سعيدة .

وقالت « سين » :

– أهلاً وسهلاً .

وقفت تاء وأشارت بيدها نحو باب عريض عند نهاية البهو وقالت :

– تفضلوا العشاء .

كان الباب ذو المصراعين مقفلا ، ولكن عندما اقترب ميم من الباب فتح من تلقاء نفسه ، وانزلق المصراعان داخل الجدار على الجانبين . دخل ميم غرفة الطعام وخلفه الفتاتان وأخوهما « دال » . وبعد دخولهم أقفل الباب من تلقاء نفسه ، وتعجب ميم من هذا الباب الذى يفتح تلقائياً عند الاقتراب منه ويقفل تلقائياً عند الابتعاد عنه ، ولكنه لم يفصح عن دهشته حتى لا يتهم بالجهل والتخلف .

كانت غرفة الطعام متوسطة الحجم ، جدرانها زرقاء وأثاثها بنى قاتم ، ويتوسط الحجرة مائدة مستديرة مغطاة بمفرش ناصع البياض تزينه أزهار دقيقة ، ويتوسط المائدة طبق كبير الحجم على شكل قارب به أرز وفوق الأرز ديك رومى ، كان هذا الديك الشىء الرئيسى الذى جذب انتباه ميم لأول وهلة . طلب الشاب « دال » صاحب المنزل من ميم أن يجلس وجلست على يمينه « تاء » وعلى يساره « سين » وجلس أخوهما فى الجهة المقابلة لهم ، ثم قامت تاء ، وبدأت تقطع الديك الرومى ووضعت جزءاً كبيراً منه فى طبق ميم وأجزاء أصغر فى طبق أختها سين وأخيها « دال » وأخذت لنفسها قطعة صغيرة ، ثم وضعت جزءاً من الأرز فى كل طبق ، وجلست ، وبدءوا فى تناول الطعام . لا يذكر ميم أنه ذاق طعاماً فى مثل لذة هذا الطعام ، وأخذ يفكر ويتعجب من أمر هذه المدينة . إنها مدينة عجيبة ، يرحب أهلها بالضيوف ، ويستقبلونه

بالموسيقى والأغانى المبهجة فى الشارع وفى الشرفات ، ويجد فيها من يستضيفه فى منزله لتناول الطعام بلا معرفة سابقة ، مدينة لم تقترف فيها أية جريمة ، ولم تنحرف فيها الأخلاق ، ولم تمتد فيها يد لتسرق . الجميع سعداء مقبلون على الحياة فى بهجة وتفاؤل . إنه فى شوق شديد لمعرفة اسم هذه المدينة التى لا يزال يجهل اسمها ؟ كما يجهل سبب قدومه إليها ومن أى مكان أتى ؟ هل هى المدينة الفاضلة التى تحدث عنها الفلاسفة ؟ هل هى « اليوتوبيا » ؟ إنه لا يزال تائهاً لا يعرف شيئاً .

كان على جدار الغرفة مرآة تحتل جزءاً كبيراً من الجدار . نظر ميم فرأى صورته فيها ، كانت هذه أول مرة يرى وجهه فى المرآة منذ أن وجد نفسه فى هذه المدينة . شعر كأنه يرى إنساناً غريباً عنه لا يمت له بأية صلة ولا تربطه به أية ذكريات من أى نوع . إنه غريب عن نفسه غربته نفسها عن باقى الوجوه التى معه فى هذه الغرفة . ولاحظ أن شعر رأسه أقصر من شعر رأس « دال » وأنه حليق الوجه ، ولا يذكر متى حلق ذقنه ؟ أسود العينين . أما وجه « تاء » فهو أقرب إلى الاستطالة وهى ذات حاجبين غير مزججين ، وعينين زرقاوين ، ورأى وجه أختها (سين) أقرب إلى الاستدارة وحاجبيها مزججين ، لم تترك منها سوى قوسين رفيعين ، وعينيها خضراوين . أما وجه أخيهما « دال » فنحيل مستطيل ذو أنف كأنه ضغط من الجانبين وشفتين رقيقتين ، يغطى شفته العليا شارب متوسط الحجم . كان الجميع مستغرقين فى تناول الطعام فى صمت ، وعلى الرغم من انهماك ميم فى الأكل فإنه كان يسترق النظر إليهم من آن لآخر بنظرات خاطفة ، أراد ميم أن يقطع الصمت فقال :

– أنا سعيد لوجودى فى مدينتكم الجميلة هذه ، لم أر فى حياتى أجمل منها .

فلزم « دال » الصمت ، وتبادلت (تاء) ابتسامة وأختها (سين) ثم قالت (تاء) فى خبث :

– وهل رأيت غير هذه المدينة ؟

قال ميم :

– لا أذكر أنى رأيت غيرها ، لقد وجدت نفسى واقفاً فى ذلك الشارع ولا أعلم من أين أتيت ؟ وأعتبر نفسى سعيداً لوجودى فى هذه المدينة ، كما أعتبر نفسى سعيدَ الحظ لتعرفى بكم .

ساد الصمت من جديد ، ولم يظفر ميم بأى تعليق على كلامه . وتعجب عندما رأى الوجوه الثلاثة قد تجهمت بغتة ، وبدا عليها الاكتئاب ، واستمر ميم فى حديثه قائلاً :

– يخيل إلىّ أن هذه المدينة لا تعرف التعس ، كل من رأيتهم فيها سعداء . فى أثناء سيرى فى الطريق التف حولى شبان ظرفاء وفتيات جميلات ، وأحاطوا بى جميعاً ، يغنون ويصفقون فى سعادة ، ولقد دهشت لذلك .

– قال (دال) دون أن يرفع بصره عن الطعام :

– من عادة سكان هذه المدينة أن يرحبوا بالضيوف بشتى الوسائل .

قال ميم :

– لا يرحب بالضيوف بهذه الطريقة سوى أناس سعداء . ولكن كيف عرفوا أنى غريب عن المدينة ؟

قال (دال) دون أن ينظر إلى ميم :

– كل أهل المدينة يعرف بعضهم بعضاً ، فإذا رأوا إنساناً لا يعرفونه أدركوا فى الحال أنه شخص غريب .

قال ميم مندهشاً :

– أليس فى المدينة ضيف أو غريب غيرى ؟

فقال (دال) :

– يأتى للمدينة غرباء ثم يصبحون من أهل المدينة .

قال ميم :

– ما اسم هذه المدينة ؟

ساد الصمت وكأنهم لم يتوقعوا منه هذا السؤال المفاجئ ، وأخذ (دال) ينقر بالشوكة فوق المائدة بحركة عصبية وتبادلت (تاء) و (سين) النظرات ، وبعد فترة قال (دال) :

– مثل هذا السؤال غير مسموح لنا بالإجابة عنه . مكتب الاستعلامات هو المصدر الوحيد الذى ينبغى أن تستقى منه أى معلومات ، والذى يملك حق الإجابة عن مثل هذه الأسئلة كما أخبرتك من قبل .

فأطرق ميم فى خجل وقال :

– معذرة إذا كنت قد وجهت إليكم سؤالاً لا حق لى فيه ، ولكن عذرى فى ذلك أنى غريب حائر وجدت نفسى فى مكان لا أعرف عنه شيئاً ولا أعرف من أين أتيت ، والأهم من ذلك أنى أشعر فى أعماق نفسى بشعور غامض وهو أنى قدمت إلى هذه المدينة لمهمة معينة ومحددة ، وأن هذه المهمة على جانب

عظيم من الأهمية ، ولكنى لا أذكر من الذين أرسلونى ولا المهمة التى أرسلت من أجلها ؟

فقال (دال) بشىء من العصبية :

– لقد ذكرت لى كل ذلك ونحن فى طريقنا إلى المنزل وأخبرتك أن مكتب الاستعلامات هو صاحب الحق الوحيد فى الإجابة أو فى عدم الإجابة عن هذه الأسئلة !

قال (ميم ، وقد شعر بمزيد من الخجل والارتباك :

– وهل . . من الممكن . . ألا يجيبنى مكتب الاستعلامات عن أسئلتى ؟

فقال (دال) :

– طبعاً ، قد يجيبك عن بعض الأسئلة ويمتنع عن الإجابة عن البعض الآخر ، وقد يجيبك عن جميع أسئلتك ، هذا شىء لا نعرفه . إنه يتوقف على نوع الأسئلة .

وقالت (تاء) :

– هل تعلم لماذا يحتفى بك جميع سكان المدينة ويرثون لحالك ؟ لأنك . . .

فقاطعها أخوها (دال) فى غضب صائحاً :

– اسكتى . لا تتكلمى فى هذا الموضوع .

فأطرقت (تاء) إلى الأرض وقد احمر وجهها خجلاً ولمعت الدموع فى عينيها ، ثم انسحبت ، وغادرت الغرفة مهرولة وهى تمسح بعض قطرات من الدموع السابحة على خديها .

قال (ميم) وهو مطرق للأرض خجلا :

– أنا شديد الأسف ، وأرجو المغفرة إذا كان وجودى بينكم الليلة قد سبب لأحد منكم أى ألم ، ولكنى فى كل لحظة ازداد حيرة فى أمرى ، ويبدو أن هناك أسراراً تعرفونها وتكتمونها عنى .

فقال (دال) فى عصبية :

– لا تُعر هذه الحمقاء أىَّ اهتمام ، إنها تهذى فى بعض الأحيان ، ولابد أن أوقفها عند حدها عندما توشك أن تنطق بأشياء لا تقدّر مدى خطورتها .

قال (ميم) وكأنه يحدث نفسه :

– لم أكن أتصور أن فى هذه المدينة من يبكى .

فانفجرت (سين) صائحة فى ثورة غضب موجهة حديثها لأخيها :

– ولماذا لا نخبره بالحقيقة مادمنا نعرفها ؟ لماذا نترك هذا المسكين نهباً للحيرة والقلق ؟ هل خلت قلوبنا من الرحمة ؟ إذا لم نطلعه على الحقيقة فسوف يعرفها من غيرنا !

فقال (دال) فى انفعال شديد :

– وهل تعتقدين أنه سيسعد بالحقيقة ، ويطيب نفساً لو عرفها ؟ أليس من دواعى الرحمة فى كثير من الأحيان أن يظل الإنسان جاهلا ببعض الحقائق ؟ لماذا تتعجلان تعس هذا الإنسان أنت وأختك الحمقاء ؟ لماذا لا نتركه يسعد بعض الوقت قبل أن يعرف الحقيقة المرة القاسية التى نرزح نحن جميعاً تحت وطأتها ؟ أليس له الحق فى السعادة ولو لبضعة أيام ؟

فقالت غاضبة :

– ولكننا جميعاً نعلم هذه الحقيقة ولم نعد نشقى بسببها . هاهى أولاء

نضحك ونمرح ونأكل ونلهو على الرغم من معرفتها ؟ لقد اعتدناها وتكيفنا لها ، ومادام سيعرفها إن عاجلاً أو آجلاً فلماذا لا نخبره بها ونريحه من عذاب القلق الذى يستبد به الآن ؟

فقال أخوها وهو يضغط على أعصابه حتى لا يثور :

– وهل تظنين أن عذاب القلق أشد وطأة من الحقيقة المرعبة ، الحقيقة البشعة التى تريدان أنت وأختك الحمقاء أن تطلعاه عليها وهو لا يزال ضيفاً حديث العهد بالمدينة . إنى أشد رفقاً به منكما ! لماذا لا نتركه يدرك كل شىء من تلقاء نفسه أو عن طريق مكتب الاستعلامات كما تنص قوانين المدينة وتقاليدها العريقة ؟

ظل (ميم) فى أثناء إنصاته لهذا الحديث يحرك بصره بين (دال) وأخته (سين) وقد شعر بشىء من الدوار . لقد جعله هذا الحديث أشد قلقاً وملأ أعماق نفسه برعب لم يكن يشعر به من قبل . وأخذ يسأل نفسه : « وما هذا الشىء البشع الذى يريد « دال » إخفاءه عنى ؟ » . وأراد أن يتكلم ، ولكنه آثر الصمت وظل مطرقاً للأرض ، ثم رفع رأسه وأخذ يدير بصره فى أنحاء الغرفة ، فاسترعى نظره صورة كبيرة معلقة على أحد الجدران . إنها امرأة جميلة فى نحو الثلاثين من عمرها . وعندما وجده (دال) يطيل النظر إليها قال :

– إنها صورة والدتنا ، لقد نفذ فيها حكم الإعدام منذ تسعة أعوام ، أما والدى فلقد نفذ فيه حكم الإعدام فى العام الماضى ، تركانا وحدنا فى المدينة !

فقال (ميم) فى دهشة :

– نفذ فيها حكم الإعدام ؟ ولماذا ؟

فقال (دال) :

– لا أحد يدرى !

قال (ميم) وقد سرى الرعب فى جسده :

– لا أحد يدرى لماذا حكم عليها بالإعدام ؟

فقال (دال) :

– إن مالك هذه المدينة له مطلق الحرية فى الحكم على أى شخص بالإعدام من أهل المدينة فى أى وقت يشاء وبدون إبداء الأسباب !

قال (ميم) والخوف يكاد يعقد لسانه :

– وكيف حدث هذا ؟

نظرت (سين) إلى أخيها وقالت :

– هل أخبره ؟

فصاح (دال) غاضباً :

– لماذا تحاولين إفساد كل شىء ؟ لماذا تستعجلين الأمور ؟ لماذا تصرين على إشاعة الرعب فى قلب هذا الشاب المسكين قبل الأوان ؟

قال (ميم) :

– حديثك هو الذى ملأ قلبى بالخوف ، وإذا كنت تود حقاً أن تريحنى من العذاب وتريحنى من القلق فصارحنى بالحقيقة . ما هذا السر الرهيب الذى تريد إخفاءه عنى ؟

نظر (دال) فى غضب إلى أخته (سين) وقال :

– هل رأيتما أنت وأختك الحمقاء نتيجة استهتاركما وعدم تقديركما

المسئولية ؟ هل رأيتها ؟ ماذا أفعل الآن ؟

قالت أخته :

– أطلعه على الحقيقة .

هوى (دال) بقبضة يده على المنضدة ، فاهتزت الأطباق هزاً عنيفاً وصاح قائلاً :

– كلا ، لن أطلعه على الحقيقة أيتها الحمقاء ، وإياك أن تفتحي فمك بعد الآن .

فلاذت الفتاة بالصمت ، وفي هذه اللحظة اندفعت إلى داخل الحجرة أختها (تاء) في رعب شديد وصاحت :

– لقد رأيت الذُّبابة !

– فانتفض أخوها واقفاً وقد شحب وجهه واحتضنها في حنان ، وأسرعت إليها أختها وأخذت تقبلها والدموع تسيل على خديها . وقال أخوها بصوت مرتجف :

– أين رأيت الذُّبابة ؟

– في غرفة نومي .

– هل أنت متيقنة من ذلك ؟

– كل التيقن .

– وهل لسعتك الذبابة ؟

كلا ، لم تلسعني بعد ، لقد هربت منها ، وإذا لم تلسعني هذه الذبابة فقد تلسعني ذبابة أخرى . فصاح الأخ :

– أغلقوا الأبواب والنوافذ واقتلوا الذبابة .

أسرعت (سين) وأغلقت أحد بابي الغرفة وأسرع أخوها بإغلاق الباب الآخر وهو يصيح في غضب موجهاً كلامه إلى (ميم) :

– افعلْ شيئاً ، أغلق النوافذ ، وابحث عن الذبابة واقتلها .

فأسرع (ميم) وأغلق إحدى النوافذ وهو لا يفهم شيئاً وقد أخذ قلبه يدق في سرعة وعنف على حين أغلقت (سين) النافذة الأخرى ، وصاحت (سين) في فزع :

– ها هي ذي الذبابة ، لقد دخلت الغرفة .

فقالت (تاء) وهي تبكي وترتجف .

– لا فائدة من إقفال الأبواب والنوافذ ! مادمت رأيتها في المنزل فسوف تلسعني . لن أنجو منها ، لن تتركني حتى تلسعني !

وأجهشت بالبكاء ، وما لبثت أن صرخت صرخة مدوية وصاحت :

– لقد لسعتني الذبابة !

وسقطت على الأرض ، فارتعشت شفتا أخيها ، وأخذت يداه تتحركان حركات لا إرادية ، وانكفأت عليها أختها تغمرها بقبلاتها وتبللها بدموعها . وحملها أخوها وقد تهدل شعرها وخرج من غرفة الطعام وخلفه أخته (سين) تبكي ، ووجد ميم نفسه يسير خلفهما مشدوهاً ، وصلوا إلى غرفة نوم (تاء) ووضعها أخوها فوق سريرها وأغمض عينيها ، شعر (ميم) أنه في كابوس رهيب ، وبدأ جسده يرتجف وقال في ذهول :

– ماذا حدث ؟

فقال (دال) وهو يحرك رأسه ويديه حركات عصبية :

– كما ترى ، لقد نُفّذ فيها حكم الإعدام !

في هذه اللحظة سمعوا صوت جرس الباب يرن رنيناً مستمراً ، فأسرع (دال) وفتح الباب ، فوجد رجلين في ثياب تشبه ثياب السهرة السوداء ، قال له أحدهما :

– لقد حضرت السيارة ، سنحمل فيها الجثة لنُلقيها في البالوعة .

قال (دال) وهو مطرق الرأس :

– سمعاً وطاعة . تفضّلا .

فدخل الرجلان واتجها نحو غرفة النوم وحملا جثة (تاء) وخرجا بها من المنزل ، والأخ والأخت و (ميم) خلفهما . وضعا الجثة في السيارة السوداء ، ثم جلس أحد الرجلين خلف عجلة القيادة وجلس الآخر بجواره ، وانطلقت السيارة في الشارع و (دال) و أخته (سين) يجريان خلفها ووجد (ميم) نفسه يجري معهما . الأخت تولول والأخ يبكي بصوت مرتفع ودموع (ميم) تسيل على خديه !

عندما وصلت السيارة السوداء إلى مكان متسع بالقرب من نهاية الشارع لاحظوا وجود عدد من السيارات السوداء من النوع نفسه مرتصة بعضها بجوار بعض . هبط الرجلان من السيارة السوداء ، وأخذا منها جثة (تاء) وحملاها مسافة قصيرة حتى وصلا إلى مكان به غطاء بالوعة مساحته نحو متر مربع ، وقف (دال) و (سين) و (ميم) في صمت وخشوع بجوار غطاء البالوعة ، وترك أحد الرجلين الجثة بين يدي الرجل الآخر ، وانحنى ورفع غطاء البالوعة ، وفي

هذه اللحظة سمع (ميم) صفير قطار منبعثاً من الفتحة ثم ألقيا الجثة في البالوعة ، وسمع (ميم) صفير القطار مرة أخرى ، ثم أعادا الغطاء كما كان !

سار (دال) عائداً نحو منزله وعلى يمينه أخته (سين) وعلى يساره (ميم) ، يجرّون أرجلهم من فرط التعب ، وأخذ (ميم) يفكر في هذه الأشياء العجيبة في حزن وذهول ، لقد دُعي إلى هذا المنزل لتناول عشاء ولقضاء سهرة ممتعة فإذا به يجد نفسه يشيّع جنازة فتاة جميلة من أهل المنزل !

عندما وصل الثلاثة إلى المنزل ظل (ميم) حائراً يفكر فيما يجب أن يفعله ثم قال والدموع تترقرق في عينيه والألم يعتصر قلبه :

– أنا في غاية الحزن والأسف لما حدث ، أرجو أن تسمحا لي بالعودة إلى منزلي ، وصافحهما وسار في الطريق يبحث عن منزله .

٣

كانت الأضواء تغمر الشارع في تلك الساعة المتأخرة من الليل ، وبعض المحال التجارية لاتزال فاتحة أبوابها في أثناء عودة ميم إلى منزله . وكان الشارع هادئاً يكاد يكون خالياً من المارة ، وقد ثبتت إشارات المرور على اللون الأصفر الذي كان يومض ومضات تشبه في إيقاعها دقات القلب . شاهد « ميم » سيارة صفراء تنطلق مسرعة وتمر بجواره محدثة صوتاً بدا عالياً في هذا الهدوء ، ثم اختفت في جوف الطريق الطويل وتلاشى صوتها تدريجاً ، ثم عاد الصوت خافتاً ، وأخذ يعلو وظهرت السيارة مرة أخرى قادمة من الاتجاه المضاد لاتجاهها

الأول . شعر (ميم) بالرعب عندما لاحظ أن تلك السيارة تطارد رجلاً والرجل يجرى فى فزع شديد محاولاً الاختباء .

حار ميم ولم يدر ماذا يفعل ؟ لقد شاء سوء طالعه أن يكون شاهداً على جريمة قتل توشك أن تقترف . كيف يحدث مثل هذا فى هذه المدينة التى قال عنها الواعظ : إنها نقية طاهرة لم تقترف فيها جريمة قتل واحدة ، ولم تشهد حادث سرقة أو انحراف من أى نوع طوال تاريخها الطويل ؟

كان الرجل ، وهو فى نحو الخمسين لا يزال يجرى وهو يلهث والسيارة مستمرة فى مطاردته مندفعة نحوه فوق الإفريز والرجل يحاول الإفلات منها ، شاهد (ميم) رجلاً يرتدى زياً رسمياً ويضع على رأسه قلنسوة لامعة يسير متبختراً متئداً بالقرب منه ، فتيقن أنه لابد أن يكون أحد الشرطة ، فشعر بشيء من الاطمئنان والأمان . هرول (ميم) نحوه وسأله :

- هل أنت من الشرطة ؟

فأجاب الرجل وعلى فمه ابتسامة عريضة :

- نعم ، هل تلزمك أية مساعدة ؟

قال (ميم) بلهفة وفزع :

- هل شاهدت ما تفعله السيارة الصفراء ؟

قال رجل الشرطة بهدوء والابتسامة ما زالت على شفتيه :

- ماذا تفعل هذه السيارة الصفراء ؟

- إنها تطارد رجلاً .. جريمة قتل على وشك أن ترتكب فى هذا الشارع .

نظر إليه الشرطى ، وظل مثبتاً نظره على عينى (ميم) فترة من الزمن وكأنه يمتحنه ثم قال :

- أنت ضيف على هذه المدينة ، أليس كذلك ؟

- بلى ، وجدت نفسى صباح اليوم فى هذا الشارع ، ولا أعرف من أين أتيت ولا لأى غرض حضرت ، حتى اسم المدينة لا أعرفه حتى الآن .

فى هذه اللحظة سمع صوت السيارة الصفراء يعلو وهى تقترب من جديد والرجل يجرى محاولاً الابتعاد عنها . ثم عبر الطريق مهرولاً نحو الشرطىّ وكأنه يلجأ إليه ليحميه من الخطر الذى يتهدده ، ولكن الشرطىّ ابتعد عنه . وفى مثل لمح البصر قفزت السيارة على الإفريز ، وصدمت الرجل صدمة قوية ، فسقط على الأرض وقد تكونت حوله بركة من الدم ! وفتح باب السيارة وهبط منها شاب ذو شعر أحمر وشارب كثيف وعينين خضراوين يميل جسمه للبدانة ، فأدى له الشرطىّ التحية العسكرية ، وبعد لحظات قصيرة شاهد (ميم) سيارة مسرعة تقترب منهم خلفها سيارة الإسعاف ، ولكنها عندما توقفت بالقرب من الجثة ذهل (ميم) عندما رآها تشبه السيارة السوداء التى حملت الفتاة الجميلة (تاء) ، وقد تكون هى السيارة نفسها . هبط منها رجلان يرتديان ملابس السهرة السوداء وحملا جثة الرجل وألقيا بها داخل السيارة التى تحركت ، وانطلقت فى الاتجاه نفسه الذى سارت فيه السيارة عندما حملت جثة (تاء) ، وظل صاحب السيارة الصفراء واقفاً بجوار الشرطىّ حتى اختفت السيارة السوداء عن الأنظار ، ثم أقلته سيارته ، وانطلق بها فى الاتجاه المضاد . فى

(ميم) واقفاً مشدوهاً وحاول أن يتكلم ، ولكن الخوف عقد لسانه ، فنظر إليه الشرطيُّ وقال :

– لماذا تسير متسكعاً في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟

قال (ميم) وهو يرتجف :

– كنت عائداً بعد تشييع جثمان فتاة جميلة حملته هذه السيارة السوداء التي حملت جثمان هذا الرجل . ما هذه الأشياء العجيبة التي تحدث في هذه المدينة ؟ كنت أتوقع ، وأنت الشرطيّ أن تقبض على القاتل ، ولكني دهشت عندما رأيتك تؤدي له التحية العسكرية !

قال الشرطيُّ :

– أنا أؤدي واجبي .

فصاح (ميم) قائلاً بصوت مرتجف :

– واجبك ؟ هل واجبك التستر على القتلة والمجرمين؟

قال الشرطي ناظراً إلى (ميم) نظرة ازدراء :

– كلا ، بل واجبي أن أشرف على تنفيذ أحكام الإعدام .

قال (ميم) مندهشاً :

– وهل هذا الرجل الذي صدمته السيارة محكوم عليه بالإعدام؟

– نعم محكوم عليه بالإعدام ونفذ فيه الحكم !

قال (ميم) وكأنه في كابوس مرعب :

– ومن الذي حكم عليه بالإعدام؟

– مالك المدينة .

– مالك المدينة حكم عليه بالإعدام ؟ ولماذا ؟ ما الجريمة التي اقترفها ، واستحق عليها الإعدام؟

– لاشيء ! لم يقترف أية جريمة أو أيّ ذنب ، بل كان من أفضل الرجال !

– ولماذا أعدم إذن ؟

– مالك المدينة لا يُسأل عن أسباب حكمه ، إنه يفعل ما يشاء وما علينا سوى السمع والطاعة ! .

ثم نظر إلى (ميم) في غضب وصاح :

– هل تجرؤ على نقد تصرفات مالك المدينة ؟ هل تعترض على أوامره؟

فشعر ميم بقشعريرة الخوف تسري في جسده وقال :

– وحجة هذا الرجل أين توارى ؟

– سيلحق بها في البالوعة . ولكن ما شأنك أنت بهذا ؟ اسمع . يبدو عليك الإرهاق . لماذا لا تذهب إلى منزلك وتنام ؟

قال (ميم) وقد اختلطت في ذهنه الأشياء وأصبح عاجزاً عن التفكير :

– أخشى أن أكون قد ضللت الطريق . لست متيقنا من مكان منزلي ، إذ لم أره سوى مرة واحدة ، إنه رقم ١٨٢٤ .

– هيا معي ، سأعثر لك على منزلك .

ساروا معاً في صمت ، وبعد نحو عشر دقائق قال الشرطيّ مشيراً إلى أحد المساكن :

– أليس هذا بيتك ؟

نظر (ميم) إلى المنزل وتعرف عليه فقال :

– بل . هو منزل .

– هيا أسرع لننال قسطاً من الراحة قبل طلوع النهار .

هم (ميم) بدخول المنزل ، ولكنه توقف ونظر إلى الشرطيّ وقال :

– سمعت من الواعظ صباح اليوم أن هذه المدينة لم ترتكب فيها أية جريمة من أى نوع ولم يحدث بها أى انحراف . كل من فيها طاهر النفس نقى الضمير ، ولكن ما رأيته الليلة أفزعنى .

قال الشرطيّ وعلى فمه ابتسامة :

– هى كذلك ، لم يحدث فى تاريخ هذه المدينة حادث سرقة واحدة أو جريمة قتل واحدة أو أى انحراف أخلاقى من أى نوع ، كل ما سمعته صحيح وسوف تدرك ذلك بنفسك .

صاح (ميم) فى غضب :

– وما قولك إذن فى هذه الجريمة البشعة التى رأيتها بعينى هذه الليلة ؟ رجل من أفضل الرجال كما قلت أنت ، لم يقترف ذنباً ولم يرتكب إثماً تطارده سيارة مطاردة وحشية رهيبة وتقتله أمام سمعك وبصرك ، وتشحن جثته فى السيارة السوداء لإلقائها فى البالوعة ! ماذا تسمى هذا ؟ هل يوجد أبشع من ذلك ؟ كيف يطمئن الإنسان على حياته فى مدينة كهذه ؟

أجاب الشرطيّ فى هدوء مثير للأعصاب :

– لا أحد يطمئن على حياته فى هذه المدينة ، يجب أن تعلم ذلك ، ولكن هذا لا ينفى أن جميع أهلها مسالمون طيبون لم يقترفوا فى حياتهم إثماً من أى نوع أو أية جريمة ، لا يعرفون الشر ، بل يحضون على الخير ، ولا يفكر أحد منهم

فى إيذاء مخلوق آخر حتى لو كان هذا المخلوق نملة ضعيفة مسكينة ! إنهم قوم كرماء لضيوفهم ، قلوبهم مفعمة بالرحمة والحنان ، هل يوجد ما هو أجمل من ذلك ؟ كل ما فى الأمر أن مالك المدينة يلذ له من آن لآخر أن ينفذ حكم الإعدام فى أى إنسان يقع عليه اختياره ! تلك هى هوايته المحببة ، وإذا كان لكل إنسان عادى الحق فى أن تكون له هواية أفلا يحق لمالك المدينة أن تكون له هو أيضاً هواية فى مقابل ذلك الخير العميم الذى يغمر به جميع أهل المدينة ؟

فقال (ميم) فى ذهول :

– وما هذا الخير العميم ؟

فنظر إليه الشرطيّ نظرة عتاب وقال :

– ألا ترى كل هذه الخيرات التى ينعم بها أهل المدينة ؟ كل ما فيها من طعام وكساء ورفاهية ما هو إلا منحة من مالك المدينة ! إن كل من فى المدينة مدين له بكل شىء ، هو الذى منحنا كل هذا .

فقال (ميم) وقد شرد لبه ، واختلطت فى ذهنه الأفكار :

– وما قيمة كل هذه الخيرات إذا كان الإنسان فى هذه المدينة يعيش خائفاً ينتظر الإعدام فى أية لحظة ؟ لماذا لا يبحث مالك المدينة عن هواية أخرى غير إعدام الأبرياء ؟

فقال الشرطيّ وهو لا يزال مبتسماً :

– نحن لا نفكر فى ذلك ، كلنا سعداء لا نفكر إلا فى اللحظة التى نحن فيها ، هذا هو سر سعادتنا .

سمع (ميم) فى هذه اللحظة صوت سيارة مسرعة تقترب منهما ، وتطلق

صغيرة حادًا ، ووقفت السيارة بجوارهما ، وهبط منها رجل ضخم الجثة يرتدى زيًا رسميًا موشى بخيوط من الذهب ، ويضع على رأسه قلنسوة خضراء ، ما إن رآه الشرطىّ حتى شحب لونه وبدأ يرتجف . قال الرجل موجهاً كلامه للشرطىّ :

– لقد سمع مالك المدينة كل ما قلته الآن لهذا الشاب وأرسلنى للقبض عليك .

دهش (ميم) عندما رأى الشرطىّ يركع على ركبتيه أمام هذا العملاق ويبكى مستعطفاً قائلاً :

– أرجو أن تعفو عنى ، أنا لم أقل شيئاً يستحق العقاب .

فقال العملاق :

– بل قلت لهذا الشاب أشياء تحير من الأسرار التى ينبغى عليه أن يكتشفها بنفسه أو يستمد الإجابة عنها من مكتب الاستعلامات ! لقد تجاوزت حدودك عندما بحت له بهذه الأسرار وحق عليك العقاب ! ألم تقل له إن لحاكم المدينة مطلق الحرية فى تنفيذ حكم الإعدام فى أى فرد بلا أى ذنب فى أى وقت يشاء ؟

وجذب الشرطىّ من يده ودفعه فى السيارة وأغلق بابها ، وجلس خلف عجلة القيادة ، وانطلقت السيارة مبتعدة عن (ميم) الذى ظل واقفاً ينظر إليها مشدوهاً حتى اختفت .

وجد (ميم) باب حديقة منزله مفتوحاً والمصابيح مضاءة فى الحديقة ، ولكنه عندما صعد السلم الأمامى وضغط على زر جرس الباب لم يستجب الخادم لصوت الجرس . فظل ميم ضاغطاً على زر الجرس ، وفكر فى

ضرورة إعداد نسخة من المفتاح حتى لا يعتمد على الخادم فى فتح الباب ، وأخذ يفكر : ماذا يصنع لو أن الخادم لم يفتح الباب ؟ هل يظل جالساً على درجات السلم أو فى الحديقة حتى الصباح ؟ وفى هذه اللحظة فتح الباب وأطل منه الخادم ، فأسرع (ميم) بالدخول وكأنه يخشى أن يقفل الباب قبل أن يدخل ، وقال الخادم :

– أين كنت طوال هذه المدة ؟ لقد يئست من رجوعك .

فقال (ميم) :

– وأنا كدت أيئس من فتح الباب .

صعد (ميم) إلى غرفة نومه ، خلع ملابسه ولبس المنامة ، وتمدد على السرير ، ولكنه لم يشعر برغبة فى النوم ، ظل مستلقياً على ظهره يستعرض أحداث ذلك اليوم وكأنها شريط سينمائى يعيد عرضه ، وأخذ يفكر فى سبب وجوده فى هذه المدينة ومتى وكيف يغادرها ؟ ويرهق ذهنه ليتذكر من أى مكان أتى ؟ وأضناه التفكير بلا جدوى ! تعجل طلوع النهار ، ليذهب إلى مكتب الاستعلامات ويستفسر عن تلك الأشياء التى تحيره ، وأغمض عينيه . رأى وجوهاً كثيرة تنظر إليه ، بعضها يضحك ، وبعضها يبكى ، وبعضها ذات عيون تبدو وكأنها من زجاج بجفونها لا تتحرك ، وتلاشت جميع الوجوه وحل محلها سرب من السيارات السوداء تطارده وهو يحاول أن يلوذ بمكان يحتمى به ، ثم رأى أحد الشرطة يجرى خلفه ويلحق به ويمسكه من ذراعه ويهزه هزاً عنيفاً ، رأى شفتى الشرطىّ تتحركان كما تتحرك الشفاه فى أثناء الكلام ، ولكنه لا يسمع صوتاً ، صحا من نومه مذعوراً فوجد الخادم واقفاً بجوار السرير وبيده

لا تزال قابضة على ذراعه ، قال له الخادم :

– إلى متى تظل نائماً ؟ يجب أن تسرع بالقيام ، لتلحق موعد الإفطار في المطعم ، ألا تريد أن تأكل ؟

قفز (ميم) من السرير شاعراً بصداع عنيف ، وأعد نفسه للخروج ، وعندما ذهب إلى الحمام لاحظ وجود مرآة لم يرها من قبل ، فظل يتأمل وجهه في المرآة فترة من الزمن . وجد آلة حلاقة ، فحلق ذقنه . وعندما خرج من الحمام طلب من الخادم أن يعطيه مفتاح المنزل ، فسلم له المفتاح ، وضع المفتاح في جيبه وهبط السلم في بضع قفزات سريعة وهرول خارجاً إلى الشارع .

اتجه نحو المطعم وهو يكاد يعدو ، ليلحق الإفطار ، وعندما وصل تمهل في مشيه وجلس في المكان نفسه الذي جلس فيه في المرة السابقة . بعد فترة قصيرة رأى الفتاة نفسها قادمة نحوه مبتسمة متهللة الوجه وفي يدها صينية عليها طعام ، وضعت أمامه طبقاً به بيض مقلي ووعاء به مرق ، وكوباً كبيراً من اللبن وبعض الخبز وقالت :

– لماذا لم تحضر للعشاء في الليلة الماضية ؟ لقد ظللت أنتظرك وخشيت أن تكون ضللت الطريق ، فطلبت من مدير المطعم أن يؤجل موعد إقفاله على أمل أن تحضر ، وأجل موعد الإقفال نصف ساعة خصيصاً من أجلك ! ماذا كنت تفعل بنفسك طوال هذه المدة ؟

فقال (ميم) :

– ظللت أبحث عن المطعم بلا جدوى حتى انتهى موعد العشاء ورأيت أحداثاً كثيرة في هذه المدينة !

وكان يتوقع أن تسأله الفتاة عن تلك الأحداث التي مرت به ، ولكنها لم تفعل ، بل ابتسمت ، وتركته واختفت عن بصره في مكان داخل المطعم .

وأقبل (ميم) على الطعام يلتهمه في نهم وشهية وعندما أتى على كل ما أمامه من طعام هرول إلى الشارع باحثاً عن مكتب الاستعلامات .

لم يتعب (ميم) في البحث عن مكتب الاستعلامات كما كان يتوقع ، فلقد وجده بالقرب من المطعم لا يبعد عنه سوى بضع خطوات . مكان أنيق به عدد من الكراسي والأرائك الفاخرة المزينة المكسوة بالجلد ، كان المكتب خالياً ليس به سوى فتاة في نحو العشرين من عمرها ، جميلة الوجه جالسة خلف منضدة طويلة في صدر المكان ، وعندما دخل (ميم) وقفت تستقبله بابتسامة ، فاحمر وجهه خجلاً وأطرق للأرض ، سألته الفتاة :

– هل تود الاستفسار عن شيء ؟

فرفع ميم رأسه وقال :

– نعم ، أود الاستفسار عن أشياء كثيرة .

فتحت الفتاة أحد الأدراج ، وأخذت ورقة وقلماً قدمتهما إلى (ميم) قائلة :

– اكتب كل ما يعن لك من أسئلة واستفسارات في هذه الورقة بخط واضح .

فأخذ (ميم) الورقة وكتب هذه الأسئلة :

أولاً : ما اسم هذه المدينة ؟

ثانياً : ما المهمة التي أرسلتُ من أجلها إلى هذه المدينة ؟

ثالثاً : من أى مكان أتيت ؟

رابعاً : ما السر الرهيب الذى يخفونه عنى ؟

خامساً : ما المدة التى سأقضيها فى هذه المدينة ؟

وناول الفتاة الورقة فقرأتها بسرعة ثم أعطتها إياه قائلة :

- ضعها فى فتحة هذا الجهاز .

وأشارت نحو جهاز إلكترونى ضخم مثبت فى الجدار على يمين الداخل به فتحة تشبه فتحة صندوق البريد . فألقى بالورقة فى فتحة الجهاز ، ووقف ناظراً للفتاة وكأنه ينتظر شيئاً ، فقالت له :

- اضغط على الزر الأخضر الذى بجوار الفتحة تهبط من الفتحة السفلى ورقة بها الإجابة عن جميع أسئلتك !

٤

ضغط ميم على الزر الأخضر ، فسمع ضجة داخل الجهاز ، وهبطت من الجهاز ورقة استقرت على حاجز أسفل الفتحة السفلى ، التقط ميم الورقة ونظر فيها بلهفة ليقرأ الإجابة عن أسئلته فوجد الآتى :

أولاً : اسم المدينة لا يدل على شىء . سمها كما تريد !

ثانياً : المهمة التى أرسلت من أجلها إلى هذه المدينة هى : البحث عن الحقيقة .

ثالثاً : من أى مكان أتيت : أتيت من مكان مجهول !

رابعاً : السر الرهيب الذى يخفونه عنك هو : جميع سكان هذه المدينة بلا استثناء محكوم عليهم بالإعدام !

خامساً : المدة التى ستقضيها فى هذه المدينة : طول حياتك حتى يحين موعد تنفيذ حكم الإعدام فيك !

شعر (ميم) بدوار عندما انتهى من قراءة الورقة ، ولاحظت الفتاة شحوب لونه وترنحه ، فأسرعت إليه وأسندته على صدرها ، ثم أجلسته على أريكة مريحة ، ودخلت من باب جانبى ثم عادت مسرعة وفى يدها كوب به سائل . جلست بجواره وأسندت رأسه على كتفها وقالت :

- اشرب هذا الشراب المنعش .

فتناول منها الكوب بيد مرتعشة وشرب ما فيه ، ونظرت إليه الفتاة فرأت الدموع تسيل من عينيه فسألته :

- ماذا حدث ؟ لماذا تبكى ؟

فناولها الورقة قائلاً بصوت متهدج :

- اقرئى الإجابة التى تلقيتها .

قرأت الفتاة الورقة بلهفة ، ثم سلمتها إليه قائلة :

- لا أرى ما يستحق الحزن والبكاء !

فنظر إليها (ميم) فى دهشة وقال :

- ألا يفزع الإنسان عندما يعلم أنه محكوم عليه بالإعدام ؟

قالت الفتاة مبتسمة :

– ولماذا تحزن؟ لست وحدك المحكوم عليك بالإعدام ، كل من فى المدينة سيواجه هذا المصير ، فلماذا تحزن أنت أكثر من غيرك؟

قال (ميم) وهو شارد اللب زائغ البصر :

– الإنسان لا يسأل لماذا يحزن؟ الحزن شيء كالقلق لا إرادى.

ولزم الصمت برهة قصيرة ثم قال :

– أريد أن أستفسر منك عن شيء آخر نسيت الاستفسار عنه فى الورقة التى كتبتها.

قالت الفتاة وقد تلاشت ابتسامتها :

– غير مسموح بالاستفسار عن أى شيء غير الذى كتبته فى الورقة !

ثم قالت بعد فترة صمت :

– ولكن ما هذا السؤال الذى نسيت الاستفسار عنه؟

– أنا لم أنس الاستفسار عنه فهو موحية بالإجابة التى تلقيتها ، ولم أكن أتوقعها.

– ما هذا السؤال؟

قال ميم وهو يبسط الورقة التى بيده ، ثم يطويها فى حركة عصبية :

– متى سينفذ حكم الإعدام فى سكان هذه المدينة؟

ضحكت الفتاة ضحكة عالية وقالت :

– يمكنني أن أجيبك أنا عن هذا السؤال . إن حكم الإعدام لن ينفذ فى جميع السكان فى وقت واحد ، بل سينفذ فى كل شخص على حدة وفى موعد قد يختلف عن موعد الآخرين . قد يعدم عدة أشخاص فى يوم واحد ، وقد

يعدم شخص واحد فى يوم ، وقد تعدم مجموعة كبيرة فى اللحظة نفسها ، لا أحد يعرف موعده . أنا مثلاً قد ينفذ فىّ حكم الإعدام فى هذه اللحظة ، وقد يؤجل تنفيذه حتى أبلغ من العمر مائة عام أو أكثر! لا أحد يدرى!

وضع (ميم) كفه على خده ، وتقلصت عضلات وجهه ، وانهمرت الدموع من عينيه ، فأسرعت الفتاة والتقطت حقيبة يدها التى كانت على طرف المنضدة ، وأخرجت منها منديلاً وأخذت تجفف دموعه قائلة :

– أنا لا أرى ما يدعو للبكاء! لماذا تبكى؟

قال (ميم) بصوت متهدج :

– وما الجريمة التى اقترفها سكان هذه المدينة ، واستحقوا من أجلها أن يعدموا جميعاً؟

قالت الفتاة :

– لا علاقة بين ارتكاب الآثام وتنفيذ حكم الإعدام! فى هذه المدينة أطفال أبرياء لم يرتكبوا إثماً ، وعلى الرغم من ذلك فقد نفذ فيهم حكم الإعدام قبل أن يتموا العام الثانى أو الثالث من أعمارهم!

فصاح (ميم) فى عصبية وهو يهوى بقبضة يده على المنضدة الصغيرة التى أمام الأريكة فسقط الكوب الذى كان عليها :

– إذن لماذا يعدمون؟ لماذا يعدم من لم يرتكب جريمة؟

قالت الفتاة فى فزع وكأنها تتعجب من سؤاله الذى لم يخطر لها على بال :

– لا أحد يدرى! ولا أحد يجرؤ أن يسأل هذا السؤال!

صاح (ميم) وعضلات وجهه لا تزال متقلصة من الغضب :

– إذن ما الفرق بين المذنب والبرىء مادام الجميع سيعدمون ؟

قالت الفتاة فى هدوء :

– لا يوجد مذنبون . الجميع أبرياء .

صاح ميم قائلاً :

– ما اسم هذا المالك ؟ إنه مالك ظالم .

فى هذه اللحظة دوت الأجراس فى جميع أنحاء المدينة ، وكأنها هدير الرعد ، وانطلقت فى الشارع السيارات الصفراء تحصد الأطفال والنساء والرجال ، وعلا صراخ الناس وأخذوا يجرون فى ذعر شديد ، وساد الاضطراب وعمّ الفوضى ، ووقفت الفتاة وقد شحب لونها واتسعت عيناها وقالت (لميم) وهى ترتجف :

– هل ترى ماذا فعلت ؟

صاح (ميم) :

– أنا لم أفعل شيئاً .

قالت الفتاة وهى لا تزال ترتعد :

– لقد أغضبت مالك المدينة ، أنت المسئول عن هذه الكارثة التى راح ضحيتها جميع هؤلاء الأبرياء المساكين الذين حصدتهم السيارات الصفراء .

قال (ميم) وهو شارد الذهن :

– إذا كنت أنا الذى أغضبت مالك المدينة فما ذنب الآخرين ؟ لماذا لا تحل الكارثة بى وحدى ؟

– الكوارث باهظة التكاليف ، ليس من المعقول أن يبذل المالك ذلك

المجهود الكبير من أجل فرد واحد ، لابد أن يؤدى بسببك أفراد عديدون أبرياء ! أنظر . . . أنظر إلى الجثث الملقاة فى كل مكان ! لقد نفذ مالك المدينة حكم الإعدام فى جميع هؤلاء ، وكل هذا بسببك .

فى هذه اللحظة توقف دق الأجراس ، واختفت السيارات الصفراء ، وقام (ميم) وأطل من باب مكتب الاستعلامات ، فارتجف رعباً عندما شاهد الجثث والأشلاء المبعثرة فى الشوارع وعلى الإفريز وكأنها بقايا معركة حربية ضارية ، فأخفى عينيه بيديه وهرول نحو الفتاة صائحاً :

– أنا لا أريد البقاء فى هذه المدينة ، لا أريد البقاء هنا ، إنها مدينة بشعة ، رهيبة .

جلست الفتاة فى مكانها خلف المنضدة وقد استعادت هدوءها وقالت :

– وإلى أين تود أن تذهب ؟

– أذهب إلى أى مكان آخر غير هذا المكان المرعب ، سأهرب من هذه المدينة .

– لن تستطيع الهرب .

فصاح فى يأس :

– ولماذا لا ينفذ فىّ ذلك المالك حكم الإعدام ويريحنى ؟

نظرت إليه الفتاة وثبتت عينيها فى عينيه فترة من الزمن ثم قالت فى هدوء :

– أنسيت أنك حضرت إلى هذه المدينة لأداء رسالة ؟

فصاح ميم فى غضب :

– أى رسالة تلك ؟

– البحث عن الحقيقة .

– كيف أبحث عن الحقيقة وسيف الإعدام مسلط فوق عنقي ؟ إنني أتوقع تنفيذ الإعدام في أية لحظة .

نظرت إليه الفتاة مبتسمة وقالت :

– كلنا سنعدم مثلك ، ولا نعرف موعد إعدامنا . قد يحدث ذلك في أية لحظة ، ومع ذلك فها نحن أولاء نعمل ونفكر ونمرح ونفرح ونأكل ونشرب وتدور في رؤوسنا الصغيرة آمال كبيرة .

– هذا أعجب شيء ! لا أظن أنني سيهدأ لي بال أو يغمض لي جفن بعد أن عرفت هذه الحقيقة المفزعة !

في هذه اللحظة اقترب سرب من السيارات السوداء ، وتوقفت بالقرب من مكتب الاستعلامات ، وهبط منها رجال يرتدون ملابس السهرة السوداء ، وأخذوا يحملون الجثث والأشلاء ويكدسونها داخل السيارات ، وبعد أن خلا الطريق من الجثث أقلت الرجال سياراتهم ، وانطلقت بهم في الاتجاه المؤدي إلى البالوعة ، وانطلق يعدو خلف السيارات عدد كبير من الناس يبكون ويولولون ، وأخذ صوت البكاء الذي يرن في أذني (ميم) يخف شيئاً فشيئاً إلى أن تلاشى واختفت السيارات ، فقالت الفتاة وعلى فمها ابتسامة :

– لقد عاد الهدوء وكأن لم يحدث شيء !

قال (ميم) :

– ولكن الهدوء لن يعود إلى نفسي .

قالت الفتاة :

– عليك أن تبدأ منذ هذه اللحظة في أداء مهمتك التي أتيت إلى المدينة من أجلها . لابد أن تبدأ في البحث عن الحقيقة .

قال (ميم) وكأنه يحدث نفسه :

– ما الحقيقة التي سأبحث عنها ؟

قالت الفتاة وقد تلاشت ابتسامتها :

– ليس هذا من شأني ولا من شأن أحد سواك ، عليك أن تكتشف كل شيء بنفسك .

خرج (ميم) من مكتب الاستعلامات يفكر في هذه « الحقيقة » التي جاءهنا ، ليبحث عنها . ما هذه الحقيقة ؟ وكيف يبحث عنها ؟ وشعر بالجوع فهرول نحو المطعم .

كان المطعم مزدحماً فلم يجد مكاناً خالياً ، ولمحته الفتاة التي اعتادت تقديم الطعام إليه ، فهرولت نحوه وطلبت منه أن يتبعها ، سارت وهو خلفها في ممر طويل يؤدي إلى قاعة متوسطة الاتساع بها نحو عشرين منضدة ، أجلسته عند إحدى الموائد . لم يكن على المنضدة سوى سلة بها خبز ، وغابت عنه فترة ثم عادت وفي إحدى يديها وعاء من الفضة ذو غطاء وفي اليد الأخرى سلة بها فاكهة ، وضعت الوعاء والسلة أمامه على المنضدة ، وكشفت الغطاء فرأى دجاجة محمرة وكمية من الأرز ، ثم وقفت بجواره مبتسمة وسألته :

– أي طلبات أخرى ؟

فأطرق نحو الأرض لحظة ، ثم رفع رأسه وقد احمر وجهه خجلاً :

– لي طلب أرجو أن تحققيه لي .

– هل تريد مزيداً من الطعام ؟

– كلا . أريد شيئاً آخر .

– ما هو يا ترى ؟

– أن تتفضلي بزيارتي في منزلي هذه الليلة بعد انتهاء عملك .

– وماذا تريد مني ؟

– لاشيء ! أشعر بوحدة قاتلة وضيق شديد ، وأتمنى أن تؤنسيني في وحدتي ، لنتحدث معاً بعض الوقت .

قالت وقد تجهم وجهها :

– إن مهمتي أن أحضر لك الطعام عندما تحضر إلى هذا المطعم ، وليست مهمتي أن أؤنسك في وحدتك أو وحدة غيرك ! ألا تعرف أن ذهاب فتاة إلى منزل رجل يعيش بمفرده يعتبر خطيئة ؟ خطيئة بالنسبة لك وخطيئة بالنسبة للفتاة التي تقبل دعوتك ! هل جئت لتلوث بخطاياك هذه المدينة الطاهرة ؟

شعر (ميم) بدوار ! وفي انفعال شديد اتجهت الفتاة نحو آلة التليفون المثبتة في أحد جدران المطعم ورفعت السماعة ، وأدارت رقماً ، ودار بينها وبين الشخص الذي عند الطرف الآخر للخط حديث مقتضب لم يسمعه (ميم) ، ثم وضعت السماعة في مكانها ، واتجهت نحو (ميم) ووجهها لا يزال متجهماً وقالت :

– آسفة لأن أحمل إليك نبأ غير سار !

توقفت اللقمة في حلق (ميم) ونظر إليها في دهشة وفزع وقال :

– أي نبأ هذا ؟

– لقد شكوتك للجهات المسئولة بسبب هذا الطلب غير اللائق الذي

وجهته إليّ ، وأمروا بحرمانك من تناول الطعام بالمجان منذ هذه اللحظة ، فإذا حاولت منذ الآن تناول الطعام في هذا المطعم أو في أي مطعم آخر فسوف يتحتم عليك دفع ثمن ما تأكله !

شعر (ميم) بالعرق البارد يتفصد من جبينه ، وغامت الدنيا أمام عينيه وقال :

– ولكنك ذكرت لي عندما رأيتك لأول مرة أنني معفى من جميع النفقات لمدة عام بصفتي ضيفاً .

– هذا تكريم للضيوف الذين يلتزمون بقواعد الأخلاق الكريمة ، أما أنت فلقد بدا منك ما يعارض الفضيلة والشرف ! ولذا فلقد صدر قرار بحرمانك منذ هذه اللحظة من هذا التكريم .

سحبت الطعام من أمامه ، ووضعته على منضدة بجوار الحائط ، فقام والدموع تكاد تنهمر من عينيه ، وحاول أن يتكلم ، ولكنها لم تعطه الفرصة ، فلقد أدارت له ظهرها ، وخرجت من القاعة دون أن تنظر إليه ، فجرى خلفها محاولاً استعطافها والاعتذار عما بدر منه ، فنظرت إليه بازدراء وقالت :

– لا فائدة ! لقد صدر قرار لا رجوع فيه ، وقضي الأمر !

فقال بصوت متهدج :

– ولكنني لا أملك أي نقود .

التفتت إليه وقالت :

– إذهب ودر في الطاحونة ! فتحصل على كل ما تحتاج إليه من مال . أنت قوي كالثور !

واستدارت بسرعة وأولته ظهرها من جديد ، وأسرعت الخطى مبتعدة عنه وتركته واقفاً مشدوهاً لا يدرى ماذا يفعل ؟

خرج من المطعم وسار فى الشارع مطأطئ الرأس شاعراً بالخزى والعار ، واتجه نحو منزله يجر ساقيه وكأنهما مربوطتان فى سلاسل من حديد !

رأى بالقرب منه ثلاث فتيات عندما نظرن إليه صرخن صرخات رعب ، وانطلقن يجرين مبتعدات عنه . ثم مر على خمس فتيات وهن يتحادثن فى مرح على الإفريز ، وعندما وقعت أنظارهن عليه أشاحوا بوجوههن عنه وبصقن على الأرض ! وشعر كأنه قد أصبح وحشاً كريه المنظر موصوماً بالعار تنبو عنه الأبصار ، فأخذ يعدو ، وعلى طول الطريق يطل عليه الناس من النوافذ والشرفات موجهين إليه شتى أنواع الشتائم ، ويلقون عليه الأحجار ، فاستمر يعدو وهو يلهث ويتصبب العرق من وجهه حتى وجد نفسه أمام منزله ، كان باب الحديقة مفتوحاً ، فهرول وصعد السلم الأمامى وأخرج المفتاح وفتح الباب فأسرع إليه الخادم وسأله بازدراء :

— ماذا تريد ؟

قال (ميم) :

— هل نسيتنى ؟ هذا منزلى ، أنا (ميم نون) .

قال الخادم :

— لقد ورد لى أمر بعدم السماح لك بدخول المنزل ، فأرجو أن تخرج فوراً حتى لا تعرضنى للعقاب ، أغرب عن وجهى فأنت موصوم بالعار !

فانفجر ميم صائحاً :

— ماذا فعلت لأوصم بالعار ؟ أنا لم أرتكب ذنباً !

قال الخادم وهو مطرق للأرض :

— ألم تدعُ فتاة المطعم لتزنى وحدثك هنا بعد الانتباه من حسنها ؟ ألا تعلم أن دعوة فتاة إلى منزلك لا تربطك بها علاقة شرعية يعتبر إثماً ؟

قال ميم بانفعال والغضب يطل من عينيه :

— لم أقصد سوى صحبة بريئة ، لم تدُر فى ذهنى أى أفكار مريبة !

— لقد صدر القرار وانتهى الأمر . ناولنى مفتاح المنزل حتى لا أضطر لتغيير كالون الباب .

قال (ميم) متحفياً :

— لن أسلم إليك المفتاح !

عند ذلك انقض عليه الخادم ، وانتزع منه المفتاح بالقوة ، ودفعه دفعة قوية ، فسقط على درجات السلم أمام المنزل ، وأغلق الباب فى وجهه !

٥

مرة أخرى يجد ميم نفسه سائراً فى الشارع الوحيد بالمدينة على غير هدى ، لم يعد ينتظر موعد غداء ولا موعد عشاء ، ولم يعد له مكان يأوى إليه ! إنه الآن مطالب بدفع نفقات طعامه ومأواه وكسائه ، ولكنه لا يملك مالاً . جيوبه خاوية ورأسه مزدحم بأفكار سوداء يائسة . مر أمامه شاب بصحبة فتاة ،

عندما نظرا إليه بدا عليهما الاشمئزاز وأشاحا بوجههما عنه ، حتى الأطفال أصبحوا ينظرون إليه في فزع ويولون هاربين وكأنه الطاعون ! لم يحمل لأحد منهم أية كراهية ، بل أصبح يرثى لحال كل سكان هذه المدينة ، أليسوا جميعاً محكوماً عليهم بالإعدام ؟ وهو أيضاً محكوم عليه بالإعدام ، يربطه بهم مصير واحد . أصبح يعطف عليهم عندما يراهم يتبسمون ، وتكاد تقطر الدموع من عينيه عندما يسمع ضحكاتهم . وعندما يراهم يسرعون الخطى ويلهثون يتعجب : لماذا يرهقون أنفسهم وهم محكوم عليهم بالإعدام وقد ينفذ فيهم ذلك الحكم الرهيب في أية لحظة ؟ ويفكر في أنه مادام على قيد الحياة فلابد له من الحصول على المال اللازم لطعامه وكسائه ومأواه . لا سبيل أمامه الآن سوى الدوران في الطاحونة . وشعر بالحزن يعتصر قلبه لتلك المعاملة القاسية التي أصبح يلقاها من جميع أهل المدينة أطفالاً ورجالاً ونساء وهو يعتقد في أعماق نفسه أنه لم يرتكب أي إثم ولم يقترف أية جريمة ! إنه عندما دعا تلك الفتاة للتنزه وحدثها في مسكنه لم يكن يقصد من وراء ذلك سوى جلسة بريئة يتحدث فيها معها بعض الوقت فهو لا يكاد يعرف مخلوقاً سواها في هذه المدينة . لم يخطر على باله مطلقاً في أية لحظة أية فكرة خبيثة ! إنه مظلوم ! لم يفكر في الإساءة إلى هذه الفتاة أو إلى أية فتاة غيرها . واستمر يحدث نفسه قائلاً : إنه على أية حال كان من المحتم أن يدور في الطاحونة بعد انقضاء فترة الضيافة في المدينة وهي عام واحد ، كل ما في الأمر أنه سيبدأ الدوران في الطاحونة مبكراً عن الموعد الذي كان مقرراً .

سار يبحث عن الطاحونة ، فشعر بوحدة قاسية واكتئاب شديد ، إنه

لا يعرف مكانها ولا يجرؤ على سؤال إنسان . ورأى أحد الشرطة واقفاً وكأنه تمثال ، فاقترب منه وسأله متلعثماً من شدة الخجل :

– هل تتكرم بإرشادي عن مكان الطاحونة ؟

نظر إليه الشرطيّ بوجه عبوس وقال له بازدراء :

– عليك أن تبحث عنها بنفسك ، وقبل أن يسمحوا لك بالدوران في الطاحونة لابد أن تجتاز اختباراً ، فهل أنت مستعد لهذا الاختبار ؟

فقال (ميم) مندهشاً :

– اختبار ؟ من أي نوع هذا الاختبار الذي لا أعلم عنه شيئاً ؟

قال الشرطيّ ناظراً إلى (ميم) نظرة قاسية ؟

– لا أحد يدري ! كل ما أعرفه أن اختباراً من نوع معين ينبغي أن تجتازه بنجاح ، ليسمحوا لك بعد ذلك بالدوران في الطاحونة !

فشعر (ميم) بدوار وقال :

– وماذا يحدث لو فشلت في هذا الاختبار ؟

– لست أدري !

– وكيف أستعد لاختبار لا أعلم عنه شيئاً ؟

في هذه اللحظة أقبل عدد من الفتيان والفتيات ومروا أمامهما وهم ينشدون معاً أغنية مرحة ، فنظر إليهم الشرطيّ بإعجاب ، ونظر إليهم (ميم) بعينين حزينتين دامعتين ، وبغتة فتحت بالوعة تحت أقدامهم وابتلعت شابين وفتاة وعلا صراخ باقي الشبان والفتيات وأسرع نحوهم الشرطيّ وخلفه (ميم) ووقف (ميم) عند حافة البالوعة وأطل ليرى ما بداخلها ، فلم ير سوى ظلام . ومن

أعماق البالوعة مع صفير قطار . أعاد الشرطيّ غطاء البالوعة إلى مكانه ، وصار باقي الفتيان والفتيات يبكون ، ويجففون دموعهم بمناديلهم ، وعاد الشرطيّ إلى مكانه وكأن لم يحدث شيء ! عقدت الدهشة لسان (ميم) فلم يستطع الكلام ، وظل ناظراً نحو البالوعة مشدوهاً ، كان يعتقد أن الشرطيّ سيسرع باستدعاء الإسعاف لإنقاذ الذين سقطوا في البالوعة بدلاً من إعادة الغطاء مكانه . فقال له الشرطيّ :

— ماذا دهاك ؟ ألم تشاهد من قبل تنفيذ حكم الإعدام ؟

قال (ميم) وكأنه في حلم :

— تنفيذ حكم الإعدام ؟

— نعم . هذان الشابان وهذه الفتاة الذين سقطوا في البالوعة حان موعد تنفيذ حكم الإعدام فيهم في هذه اللحظة . هل في هذا شيء غريب ؟ ألم يخبرك مكتب الاستعلامات أن جميع سكان هذه المدينة محكوم عليهم بالإعدام ، وأنت أيضاً محكوم عليك بالإعدام وقد ينفذ فيك الحكم في أية لحظة .

أطرق (ميم) إلى الأرض حزيناً وقال وكأنه يحدث نفسه :

— بلى ، علمت ذلك .

وصار يبحث عن الطاحونة وكأنه يحمل جبلاً فوق كتفه ، ثم برعب فانطلق يجرى وكأنه يهرب من شيء لا يعرفه وقد بدا عليه الإرهاق الشديد ، ووصل إلى ميدان متسع في وسطه حديقة بها شتى أنواع الزهور ، ويتوسط الحديقة حجر مستدير من الجرانيت ارتفاعه نحو متر ، وفوق هذا الحجر تمثال شابٌ في نحو العشرين من عمره يبكي ، ذي وجه وسيم شاحب ناصع البياض

وشعر ناعم منهدل على جبهته ، يحمل في يديه قلماً وقرطاساً . جلس ميم على أرض الحديقة واستند بظهره على الحجر ، وأخذ يحدث نفسه قائلاً : « أنا مظلوم ! أليس في هذه المدينة من أشكو إليه همي وعذابي ويرفع عني هذا الظلم الذي أرزح تحت أعبائه ؟ وانفجر يبكي بكاء عنيفاً جعل جسده يهتز ، وشعر بيد تمس على رأسه فنظر إلى التمثال مندهشاً فوجد أن اليد التي امتدت نحو رأسه ما هي إلا يد ذلك التمثال ، فانتفض واقفاً وعيناه مثبتتان نحو التمثال وصاح في فزع :

— التمثال دبت فيه الحياة !

قال الشاب :

— لست تمثالاً !

قال (ميم) بدهشة :

— لست تمثالاً ؟ فلتك حجراً ! من أنت ؟

— لست حجراً ، أنا مثلك من لحم ودم ، اعتدت الجلوس على هذا الحجر لكي أنظم الشعر وأبكي !

قال (ميم) وهو لا يزال في ذهول :

— تنظم الشعر ؟

— نعم . أنا شاعر ، فلماذا تبكي ؟

— أشعر بشجن يعتصر كياني وحزن يملأ قلبي ! أنت الإنسان الوحيد الذي لم يشح بوجهه عني في هذه المدينة ، ولماذا تبكي أنت ؟

— أبكي من أجلك ومن أجل جميع أهل المدينة .

— ولماذا تبكى من أجل ومن أجل جميع أهل المدينة ؟

— ألفى تلتقط بكاء كل من يبكى ، وكلما سمعت بكاءً وجدت نفسى أبكى ، ولهذا فأنا دائم البكاء ! هل تحب سماع القصيدة التى كنت أنظمها فى هذه اللحظة ؟

— نعم ، أحب أن أسمعها .

فأخذ الشاب الشاعر يتلو القصيدة وكأنه يغنى :

تهيم الجبال بحب السماء ... فتسعى لتقبيلها فى حياء
وموجٌ يعانق موجاً ويجرى ... يدارى هواء بكرٍ وفرْ
وبدرٌ يُطل بضوء عليلٌ ... يُقبل صفحة نهرٍ جميلْ
وشمسٌ تمد سناها الذراعاً ... يعانق أرضاً وضوء الشعاعاً
وماذا تساوى حياة القُبَلْ ... إذا غاب عنى بريق الأملْ ؟

فى هذه اللحظة سمع (ميم) أزيز طائرة ، ونظر إلى السماء ، فرأى الطائرة تحوم فوقها ، فانتفض الشاعر ، ووقف فوق الحجر ناظراً إلى الطائرة فى فزع .

أخذت الطائرة تقترب منها وهى تدور فوق الميدان ، وفى مثل لمح البصر انطلق منها سهم اخترق قلب الشاعر الذى صرخ صرخة ضعيفة ، ثم سقط من فوق الحجر والدم يتفجر من جسده . ثم أخذت الطائرة تبتعد حتى اختفت فى السماء . نظر (ميم) إلى جثة الفتى الشاعر وهى ملقاة أمامه ، كانت الدموع لا تزال تلمع فى عينى الشاعر وبدا وجهه وكأنه وجه (ملاك) ، فانكفأ (ميم) فوق الجثة واحتضنها وانخرط فى بكاء عنيف . وسمع صوت رجلين يتحدثان ،

نظر فوجد رجلين فى ثياب السهرة ، انحنى أحدهما وأزاح (ميم) بعيداً عن الجثة ، فأخذ (ميم) يلوح بقبضة يده صائحاً :

— لماذا ينفذ حكم الإعدام فى شاعر رقيق برىء صغير السن لم يؤذ أحداً ؟ كان يبكى من أجل جميع أهل المدينة ! لماذا يحكم عليه بالإعدام ؟ لماذا يُقتَل الأبرياء فى هذه المدينة ؟

نظر إليه الرجلان فى غضب ، ودفعه أحدهما دفعة قوية ، فانكفأ على وجهه ، وقال له أحد الرجلين :

— إنها إرادة مالك المدينة ، ولا أحد يجرؤ على مخالفتها . أقفلْ فمك ولا تنطق بكلمة أخرى .

حمل الرجلان جثة الشاعر ، واتجها نحو سيارة سوداء عند حافة الحديقة ، وضعا الجثة فى السيارة ، ثم جلسا فى المقدمة ، وتحركت السيارة وهرول (ميم) خلفها يبكى بصوت مسموع . يبكى الإنسان الوحيد فى المدينة الذى تحدث إليه فى مودة وعطف ولم يشح بوجهه عنه . وسمع صوت بكاء خلفه ، فالتفت وإذا بمئات من الناس يجهشون بالبكاء ويجرون خلف السيارة ، وارتفع صوت البكاء من جميع النوافذ والشرفات حتى أصبح شيئاً يشبه هدير الرعد ، وأخذوا يلقون الأزهار فوق السيارة السوداء ، ولأول مرة منذ وجد (ميم) نفسه فى هذه المدينة يرى جميع من فيها يبكون ، وسمع أجراساً تدوى فى أنحاء متفرقة مختلطة بصوت موسيقى حزينة لا يعرف مصدرها . وأخذت جميع الأصوات تخفت تدريجاً ، ثم لم يعد يسمع شيئاً ، ولا يرى شيئاً ، ولم يشعر بنفسه ، فلقد أغمى عليه !

عندما أفاق (ميم) من إغمائه وجد نفسه ملقى على إفريز الشارع بجوار

جذع شجرة ضخمة . شعر بجوع شديد ، وعندما هم بالوقوف أحس بإعياء وبذل مجهوداً حتى تمكن من الوقوف . نظر حوله فلم يجد أحداً . لقد خلا الشارع من جميع البشر وبدت المدينة وكأنها مهجورة تماماً . كانت جميع الأبواب والنوافذ موصدة ، فشعر بوحشة شديدة الوطأة . وفي وسط هذا الصمت القاتل خيل إليه أنه يسمع دقات قلبه وكأنها دقات طبول ! فأخذ يعدو وكأنه يهرب من هذه الدقات ، وشعر بإعياء شديد ، فتوقف عن العدو وأخذ يلهث . وتذكر أنه كان يبحث عن الطاحونة ، ولكن كيف يستدل عليها والشارع قد خلا من جميع المارة ولا يوجد إنسان واحد يسترشد به ، حتى لو اهتدى إليها فلن يستطيع دخولها فجميع الأبواب موصدة .

أخذ يسير على غير هدى ويسأل نفسه : أين ذهب الناس ؟ هل هاجروا إلى مدينة أخرى ؟ وتمنى لو يستطيع مغادرة هذه المدينة الملعونة التي وجد نفسه فيها رغم إرادته ! سار يبحث عن منفذ يهرب منه ، ولكن جميع المباني على جانبي الشارع متصلة وليس بينها أي منفذ ! واستمر سائراً حتى وصل إلى إحدى نهايتي الشارع ، فوجد بوابة ضخمة موصدة تؤدي إلى حديقة منزل ضخم يسد الطريق . أخذ يتأمل المنزل ، فوجد بعض نوافذه مفتوحة والبعض الآخر مغلقاً . وحاول أن ينفذ ببصره خلال النوافذ المفتوحة ، فلم يستطع رؤية أي شيء ! استبد به رعب شديد فخطر له أن يحاول فتح البوابة الخارجية ، فاقترب منها وإذا بالبوابة تفتح من تلقاء نفسها ، فنظر إليها مشدوهاً ودخل وإذا بالبوابة تغلق من تلقاء نفسها ! ووجد نفسه في حديقة القصر . لم ير أحداً في الحديقة . فصعد سلماً يؤدي إلى باب المنزل ، وعندما اقترب منه وجده يفتح أيضاً

من تلقاء نفسه ، فدخل ووجد الباب يغلق خلفه تلقائياً ، ووجد نفسه في بهو فسيح مزدان بالتماثيل والصور والتحف الرائعة والأثاث الفاخر .

شعر بخوف شديد عندما وجد الباب مغلقاً ، وأخذ يلوم نفسه على دخول منزل لا يعرف سكانه ، فلقد أصبح كفأر في مصيدة ! ولكنه أخذ يطمئن نفسه قائلاً : إن المدينة أصبحت مهجورة ، ولابد أن هذا المنزل قد أصبح مهجوراً كباقي المدينة ، رأى سلماً على يمين البهو يؤدي إلى الأدوار العليا ، فتقدم نحو السلم في تردد ، وبدأ يصعد درجاته في بطء وحذر . وفجأة اعتراه هلع شديد وتصبب عرقه غزيراً ، فلقد أبصر رجلاً نحيلاً يرتدي حلة بيضاء ورباط عنق أزرق ويضع أمام عينيه نظارة سوداء . تسمّر (ميم) في مكانه ، وأخذ الرجل يهبط درجات السلم قادماً نحوه ، ثم وقف وأخذ يطيل النظر إلى (ميم) في صمت و(ميم) لا يجرؤ على الكلام ، وبعد نحو دقيقتين قال له الرجل :

– أين الشكوى ؟

لم يفهم (ميم) شيئاً وقال :

– أي شكوى ؟

قال الرجل وهو لا يزال واقفاً في مكانه :

– لا يحضر إلى هذا المنزل إلا من لديه شكوى مكتوبة يرغب في تقديمها إلى مالك المدينة .

شعر ميم برهبة ، وانعقد لسانه وحاول أن يتكلم فلم يستطع ، فأعاد الرجل سؤاله :

– أين الشكوى ؟

وحلت عقدة لسان (ميم) فقال :

– ليس معى شكوى مكتوبة .

– إذن لابد أن تجلس وتكتب أية شكوى ما دمت سمحت لنفسك بدخول هذا المنزل . مالك المدينة يحب الشكاوى ، ويسعد كلما ازداد عددها ، فهو حريص على التحقيق فى كل شكوى . هيا معى .

هبط الرجل السلم ، وسار متجهاً نحو باب مقفل فى الجهة اليسرى للبهو و(ميم) يسير خلفه وعندما اقترب الرجل من الباب فتح من تلقاء نفسه ، فدخلا غرفة صغيرة جميع جدرانها مبطنة بنوع فاخر من الخشب البنى اللون ، ليس بها سوى منضدة وكرسى واحد ، قال له الرجل :

– اجلس على هذا الكرسى .

جلس (ميم) على الكرسى أمام المنضدة ، واتجه الرجل نحو صوان فى جدار الغرفة لم يلاحظ (ميم) وجوده عندما دخل ، إذ إنه فى مستوى الجدار وفى مثل لونه ، فتح الرجل الصوان وأخرج منه قلماً وبعض الأوراق ، وضع الأوراق على المنضدة أمام (ميم) وناوله القلم قائلاً :

– اكتب شكواك ، وأسرع قبل حدوث الزلزال .

قال (ميم) فى دهشة :

– الزلزال ؟

– نعم سيحدث زلزال عنيف فى المدينة بعد لحظات ، ألم تر الشارع خالياً وجميع الأبواب والنوافذ مغلقة ؟

– أجل ، رأيت الشارع مقفراً والنوافذ والأبواب مغلقة ، وبدت

المدينة وكأنها مهجورة ولكنى لم أفهم سبب ذلك . هل أخليت المدينة من السكان ؟

– كلا ، جميع السكان فى منازلهم ، لقد صدرت الأوامر من مالك المدينة لجميع السكان بأن يلزموا منازلهم ولا يغادروها . وسوف يحدث زلزالاً عنيفاً فى المدينة ، لأنه قرر تنفيذ حكم الإعدام فى خمسمائة وعشرين من السكان ، وسيكون الزلزال وسيلة تنفيذ هذا الإعدام !

شعر (ميم) بدوار ، ولكنه تمالك نفسه وقال :

– ولماذا حكم المالك بإعدام هؤلاء الناس ؟

– لست أدرى ! ليس هذا من شأنى . أنت الذى جئت تبحث عن الحقيقة ، وعليك أنت التوصل إلى الإجابة عن مثل هذه الأسئلة ، ولكن يقال : إن المالك غاضب على المدينة ، ولو أن هذه مجرد شائعات قد تحتمل الخطأ أو الصواب .

– ولماذا هو غاضب على المدينة ؟

– يقال : إنه عندما نفذ حكم الإعدام فى الشاعر سار كل سكان المدينة فى مظاهرة يبكون الشاعر ، وفى هذا تحد لإرادة المالك !

– ولماذا أمر مالك المدينة الناس بعدم مغادرة مساكنهم ؟

– حتى لا تتاح فرصة النجاة لمن حكم عليهم بالإعدام .

قال (ميم) وقد أسرعت دقات قلبه :

– وهل أنا ضمن المحكوم عليهم بالإعدام فى هذا الزلزال ؟

– لست أدرى ! لا يعرف ذلك سوى مالك المدينة . هيا أسرع بكتابة

شكواك ، لكى أضعك فى إحدى الغرف ، لتنال فرصتك فى الإعدام ! هيا اكتب قبل أن يحين موعد الزلزال .

أخذ (ميم) يفكر فى شكوى يكتبها ، خطر له أن يشكو من الظلم الذى وقع عليه عندما أصبح منبوذاً فى المدينة بلا أى ذنب جناه ، إذ لم يكن يقصد من حديثه مع فتاة المطعم سوى قضاء بضع لحظات معها فى صحبة بريئة ، ولم تخطر على باله أية فاحشة أو أية فكرة خبيثة ، ولكنه عدل عن كتابة هذه الشكوى ، وفكر فى أن يحل مشكلته من جذورها . لماذا لا يطلب من المالك أن ينقله من هذه المدينة إلى أى مكان آخر ويتخلص من كل هذه الهموم والأحزان ؟

راقت له هذه الفكرة وبدأ يكتب :

– لقد وجدت نفسى فى هذه المدينة بغير إرادتى ، ولا أعلم من أين جئت ؟ كل ما علمته من مكتب الاستعلامات أنى حضرت إلى هذا المكان للبحث عن الحقيقة . ولقد عوقبت عقاباً شديداً عندما طلبت من فتاة جميلة أن تؤنس وحدتى . كانت هى (الوحيدة) التى عرفتها فى مدينة لا يعرفنى فيها أحد ، ولم يكن فى ذهنى أى غرض سيئ . وبلا ذنب ولا إثم أصبح كل من فى المدينة يشيح بوجهه عنى . وليس لدى من المال ما يسمح لى بتناول الطعام ، ولم يعد لى مأوى ، وأرجو من مالك المدينة أن يسمح لى بمغادرة هذه المدينة التى ملأت قلبى بالهموم والأحزان ، وفقدت فيها الشعور بالراحة والأمان ، وقاسيت فيها من الظلم والهوان ، ويهيئ لى وسيلة للخروج منها إلى أى مكان آخر .

المظلوم الحزين

ميم نون

فى أثناء كتابة الشكوى كان الرجل واقفاً بجواره يقرؤها ، فلما انتهى (ميم) من الكتابة أخذ الرجل الورقة وطبقها بعناية ، واحتفظ بها فى يده وقال (لميم) :

– هيا معى .

قام (ميم) وسار خلف الرجل ، ولما اقتربا من باب الغرفة فتح من تلقاء نفسه وخرجا . وسارا معاً فى دهليز طويل ، وعند نهاية الدهليز قال الرجل (لميم) :

– هل ترى هذه الفتحة ؟

رأى ميم فى الجدار فتحة تشبه فتحة صندوق البريد فقال :

– نعم أراها .

مد الرجل يده بالورقة نحو (ميم) قائلاً :

– خذ الورقة ، وألق بها فى هذه الفتحة .

تناول (ميم) الورقة وألق بها فى الفتحة وقال :

– أين تذهب هذه الشكوى ؟

– قال الرجل :

– ستسقط فى مكان معين فى مكتب التحقيقات التابع لمالك المدينة .

– وهل يحقق لى رغبتى ؟

– لا أحد يعلم ! مالك المدينة وحده هو الذى يعلم .

شاع اليأس والحزن من جديد فى قلب (ميم) ، وأطرق للأرض ، فقال له الرجل :

- هيا معي ، سأضعك في مكان معزول لتأخذ فرصتك من الإعدام عندما يحدث الزلزال ، فمالك المدينة حريص على تكافؤ الفرص !

٦

سار (ميم) خلف الرجل وكأنه يسير نحو المشنقة ! كان يسير وكأنه منوم تنويماً مغناطيسياً ، يقوده الرجل من غرفة إلى غرفة ، ثم إلى ممر طويل ، ويصعدان سلماً ثم يهبطان سلماً ، حتى وصلا في النهاية إلى غرفة منعزلة ذات نافذة واحدة مغلقة ، وبجوار أحد جدرانها كرسي هو كل ما في الغرفة من أثاث ! قال الرجل (لميم) :

- اجلس على هذا الكرسي وانتظر نصيبك ، لم يبق على موعد الزلزال سوى دقائق قليلة ، لابد أن تأخذ فرصتك كاملة في تنفيذ حكم الإعدام !

خرج الرجل من الغرفة وأغلق الباب ، وترك (ميم) وحده ، وقد بدأ جسده يرتعد من الخوف . وبعد لحظة شعر (ميم) بهزة عنيفة ، فانكفأ على وجهه فوق أرض الغرف ، وسقط الكرسي فوقه . واستمرت الهزات تتوالى ، فسقط جزء من سقف الغرفة بالقرب من (ميم) ، وكلما هم بالوقوف دفعته الهزات فيرتطم بأحد الجدران ، فانبطح على الأرض ، وظل في هذا الوضع ، سقط جزء من أحد جدران الغرفة وجزء آخر من السقف . وفي هذه الأثناء كان يسمع أصواتاً تشبه هدير الرعد مختلطة بصراخ رجال ونساء وأطفال ، وتوقفت

الهزات ، ولكنه ظل منبطحاً على الأرض في إنتظار مزيد من الزلزال . ولكن الزلزال كان قد توقف ، جلس القرفصاء وأخذ يدور ببصره في أنحاء الغرفة في ذهول وهو لا يصدق أنه لا يزال على قيد الحياة ، إذ إن كتلة واحدة من الكتل التي تساقطت من السقف أو الجدار كانت كافية للقضاء عليه لو أنها سقطت فوق رأسه أو صدره . عند ذلك فُتح باب الغرفة ودخل الرجل ، وأمره بالوقوف فوقف ، ثم أمره أن يسير خلفه . فسار خلفه حتى وصلا إلى باب المنزل الذي فتح من تلقاء نفسه عندما اقتربا منه ، ثم هبط سلم المنزل ، وظل الرجل واقفاً عند أعلى السلم . أمره الرجل أن يخرج ، فاتجه نحو البوابة الخارجية التي فتحت تلقائياً عندما اقترب منها ، وقال له الرجل :

- لا تفكر في المجيء إلى هذا المنزل مرة أخرى إلا إذا كانت لديك شكوى مكتوبة ترغب في تقديمها لمالك المدينة .

لزم (ميم) الصمت وخرج إلى الشارع فهاله ما حدث من دمار ، وجد عدداً كبيراً من المساكن قد تهدم وأصبح حطاماً ، وسمع بكاء وصراخاً يتردد في أنحاء متعددة . ورأى عدداً هائلاً من السيارات السوداء تنطلق جيئة وذهاباً تحمل جثث الذين نفذ فيهم مالك المدينة حكم الإعدام في هذا الزلزال المدمر . وبدأ الشارع يزدحم بالبشر مهرولين على غير هدى وهم يصرخون صرخات حزن وفزع .

مضى (ميم) يبحث عن الطاحونة متمنياً ألا يكون الزلزال قد محاها من الوجود ، وفي أثناء سيره شاهد عدداً من الأطفال أمام أحد المساكن المتهدمة يصرخون صرخات هستيرية ويولولون في فزع شديد فقال لنفسه : « لابد أنهم

فقدوا الأب أو الأم أو الاثنين معاً بسبب هذا الزلزال» . وتعجب قائلاً لنفسه : «لماذا يشيع مالك المدينة كل هذا الأسى والعذاب فى نفوس السكان الآمنين ؟ لماذا يعذب هؤلاء الأطفال الأبرياء المساكين؟» . ورأى شيئاً أثار دهشته ، رأى سيارات ضخمة وآلات عجيبة تعيد بناء ما تهدم من المبانى فى مثل لمح البصر. وبعد فترة وجيزة كانت جميع المبانى التى تهدمت قد تم بناؤها من جديد وكأن لم يحدث شىء ، وظل سائراً يبحث عن الطاحونة .

بدأ الظلام يخيم على المدينة ، وأضيئت مصابيح الشارع كما أضيئت واجهات المحال التجارية بأضواء متعددة الألوان تبهر الأبصار ، شعر (ميم) بإعياء شديد ، ففكر فى الجلوس فى أى مكان حيث يلتقط أنفاسه اللاهثة ويريح جسده المتعب ، استعد للجلوس على إفريز الشارع ، ولكنه عدل عن هذه الفكرة ، وظل سائراً يجر ساقيه ، ونظر فإذا هو عند الميدان الذى شهد فيه مصرع الشاعر ، استولت عليه الدهشة عندما رأى الشاعر جالساً فوق الحجر فى المكان نفسه ، فأسرع نحوه وقال له :

– أنا سعيد برؤيتك . كنت أعتقد أنهم نفذوا فيك حكم الإعدام .

كان الشاعر مبتسماً وفى يده القلم والقرطاس كما رآه أول مرة ، ولكنه ظل صامتاً لا يتكلم فقال له (ميم) :

– هل تذكرنى ؟ كنت تقرأ لى قصيدتك عندما أصابك السهم .

ولكن الشاعر ظل صامتاً مبتسماً ، فمد (ميم) يده ولمس يد الشاعر فوجدها من الحجر الأصم ، وعلم أن ما يراه ليس الشاعر ولكنه تمثاله ، لقد أقام له أهل المدينة تمثالاً فى المكان نفسه الذى اعتاد الجلوس فيه ، جلس (ميم) عند

قاعدة التمثال وأغمض عينيه ونام ، وعندما استيقظ من نومه وجد الشمس تضىء المدينة ، فعلم أنه قضى الليل بطوله وشطراً من النهار نائماً عند قاعدة التمثال . نهض من مكانه فى فزع وانطلق يبحث عن الطاحونة .

كانت الطاحونة على بعد خطوات منه ، ذات باب صغير أصفر اللون على الجانب الأيمن منه لافتة صغيرة تحمل كلمة واحدة هى « الطاحونة » . كان الباب مغلقاً ، فشعر (ميم) بحزن ويأس وأوشك أن يجلس أمام الباب فى انتظار موعد فتحه ، ولكنه لاحظ وجود زر فى الجدار تحت اللافتة ، ضغط على هذا الزر ووقف ينتظر . ولكن لم تحدث استجابة للجرس الذى سمع رنينه فى الداخل . فضغط على الزر مرة أخرى وبعد نحو دقيقة فتح الباب ، وأطل منه كهل بادين قصير القامة منتفخ الوجه والعينين ، مقوس الظهر ، إذا انبطح على بطنه فلابد أنه سيبدو وكأنه سلحفاة ضخمة . يدل مظهره على أنه استيقظ من النوم عند سماع الجرس ، نظر إلى (ميم) فترة قبل أن يتكلم ثم قال :

– هل أنت (ميم نون) ؟

فقال (ميم) مندهشاً :

– نعم أنا ميم نون ، ولكن كيف عرفتنى ؟

تجاهل الرجل سؤاله وقال :

– لقد انتظرتك طويلاً ، لماذا تأخرت حتى الآن ؟

ولم ينتظر إجابة (ميم) بل قال له بخشونة :

– أدخل !

دخل (ميم) الطاحونة وهو يدير بصره فى أنحائها ، كانت من الداخل على

هيئة غرفة مستديرة ، فى أحد جوانبها منضدة صغيرة وخلف المنضدة كرسى وفى وسطها أسطوانة من الحديد يمتد منها ذراع من معدن لامع طوله نحو ثلاثة أمتار وفى نهايته حلقة معدنية . جلس الرجل على الكرسى ووقف ميم أمامه لا يدرى ماذا يصنع ؟ وظل الرجل ناظراً إلى (ميم) نحو دقيقتين دون أن يتكلم ثم قال :

– هل أنت مستعد للاختبار ؟

فقال (ميم) :

– أنا لا أعلم شيئاً عن هذا الاختبار !

فتح الرجل أحد أدراج المنضدة وأخرج منه كتاباً ، فتح الكتاب وقال :

– سأتلو عليك بعض صفحات من هذا الكتاب ، وعليك أن تحفظ فى ذاكرتك بكل كلمة من الكلمات التى تسمعها ثم تتلو علىّ ما حفظته !

وأخذ الرجل يقرأ صفحات من هذا الكتاب و (ميم) لا يفهم كلمة واحدة ، وبعد فترة توقف الرجل عن القراءة وقال (لميم) :

– أعد كل ما سمعته منى .

قال ميم :

– أنا لم أفهم شيئاً مما قرأت ، ولم أحفظ منه شيئاً !

فقام الرجل الذى يعلّمه ، وتناول سوطاً كان معلقاً فى حلقة صغيرة بالجدار وقال :

– سألهب ظهرك بهذا السوط ، سيؤلمك الضرب ألماً شديداً ، أنا أعلم ذلك ، ولكن سيفيدك بلاشك . سيجعلك تفهم كل ما أقرؤه وتعيه فى ذاكرتك .

وأخذ يهوى بالسوط على جسد (ميم) و(ميم) يصرخ من الألم ، ويجمع على

باب الطاحونة عدد كبير من الأطفال يضحكون ويهللون وكأنهم يستمتعون بلعبة من ألعاب السيرك ، والرجل مستمر فى الضرب ، لم يستطع (ميم) احتمال الألم ، فانطلق من باب الطاحونة يعدو فى الشارع . ولكن بعد بضع خطوات قبض عليه أحد الشرطة ، وأعاده إلى الطاحونة ، ووقف عند الباب يمنعه من الهروب ! وازداد عدد الأطفال المتجمعين عند باب الطاحونة ، وظلوا يهللون ويضحكون ! وعاد الرجل يلهب (ميم) بالسوط والشرطىّ يحصى عدد السياط حتى بلغ عددها خمسين ، ثم توقف الرجل عن الضرب وقال (لميم) :

– أنصت إلىّ الآن جيداً . سأقرأ مرة أخرى ، وعليك أن تحفظ كل كلمة أتلوها عليك .

وأخذ يقرأ من جديد . لم يفهم (ميم) شيئاً فى هذه المرة أيضاً ، ولكنه حفظ كل كلمة من الكلمات التى سمعها . وقال الرجل (لميم) :

– هل حفظت كل ما سمعته فى هذه المرة ؟

فقال (ميم) باذلاً مجهوداً كبيراً حتى لا يصرخ من الألم :

– نعم . حفظت كل كلمة .

وأخذ يتلو كل ما سمع دون أن يفهم منه حرفاً والرجل ينصت له . وعندما انتهى من التلاوة فتح الرجل درجاً آخر من أدراج المنضدة وأخرج منها ورقة سلمها (لميم) قائلاً :

– الآن يمكننى أن أقرر أنك اجتزت الاختبار بنجاح ، احتفظ جيداً بهذه الورقة فقد يطلب منك تقديمها فى أية لحظة من اللحظات . والآن هيا لندور فى الطاحونة !

واقتفص الرجل على (ميم) فأدخله فى الحلقة التى عند نهاية ذراع الطاحونة وأمره بالدوران . وهم (ميم) بالدوران ولكنه شعر أن ذراع الطاحونة يلزمه مجهود عنيف لكى يتحرك ، فأخذ يضغط بصدره على الحلقة باذلاً أقصى مجهود مستطاع ، وظل يدور حتى تصبب منه العرق غزيراً ، وكلما توقف ليلتقط أنفاسه هوى الرجل بالسوط على جسده قائلاً :

– لا تتوقف عن الدوران إلا إذا أمرتك بذلك !

فظل (ميم) يدور ويدور والرجل يهوى على جسده بالسوط ، وقال له :

– معذرة إذا ألهبت جسدك بالسوط ، إذ من التقاليد العريقة فى هذه المدينة أن أظل أضربك بالسوط حتى تنتهى مدة الدوران ولا ينبغى أن نحيد عن تقاليدنا !

وبعد فترة من الزمن مرت على (ميم) وكأنها أجيال طويلة صاح الرجل قائلاً :

– كفى ، قف .

وتقدم منه الرجل وأخرجه من الحلقة ، فترنح وهوى على الأرض فى إعياء شديد . تركه الرجل راقداً يلهث ، وجلس على الكرسى خلف المنضدة ناظراً إليه بعينيه الحمراوين المتضخمتين ثم صاح :

– إلى متى ستظل ملقى على الأرض ؟ قف .

فتحامل (ميم) على نفسه ووقف ، وفتح الرجل أحد أدراج المنضدة وأخرج منه عشرين قرشاً ناولها (ميم) قائلاً :

– لقد درت فى الطاحونة ثمانى ساعات وها هو ذا أجرك على ذلك ،

وعليك أن تواظب على الدوران كل يوم ، لتنال هذا الأجر ! يمكنك الآن أن تتصرف فى هذا المبلغ من المال كما تريد ، ولكن لا تنس المهمة الأساسية التى أتيت إلى هذه المدينة من أجلها .

فقال (ميم) فى ذهول وإعياء :

– وما هذه المهمة ؟

– البحث عن الحقيقة ، هل نسيت المهمة التى أتيت من أجلها ؟

خرج (ميم) من الطاحونة يجر ساقيه وكأنه مذنب أطلق سراحه بعد أعوام من السجن والعذاب ! لم يصدّق عينيه عندما رأى مصابيح الشارع قد بدأت تضىء وقد بدت بعض النجوم فى السماء الصافية ، لقد قضى فى الطاحونة طوال النهار ، وأخذ يفكر فى هذه « الحقيقة » التى يتحتم عليه البحث عنها . أى حقيقة هذه ؟ وإذا كان سيقضى كل يوم ثمانى ساعات يدور فى الطاحونة ويُلهب جسده بالسياط فى مقابل عشرين قرشاً فهل يبقى من الوقت ما يسمح له بالبحث عن تلك الحقيقة التى لا يعرف عنها شيئاً ؟ فكر فى الذهاب إلى منزل الشكاوى حاملاً فى يده شكوى مكتوبة يشرح فيها العذاب الذى يلقاه فى مقابل الحصول على عشرين قرشاً وأن هذا لن يترك له وقتاً للبحث عن الحقيقة . ولكنه قدّم بالأمس شكوى يرجو فيها مالك المدينة أن ينقله من هذه المدينة الرهيبة المحكوم على كل من فيها بالإعدام إلى أية مدينة أخرى . ففضل أن ينتظر نتيجة شكواه . وخارت قواه ، فلم يستطع مواصلة السير ، ولكنه تحامل على نفسه حتى وصل إلى الميدان الذى يتوسطه تمثال الشاعر ، جلس على دكة خشبية لم يكن قد لاحظ وجودها من قبل ، واستند بظهره على قاعدة

التمثال ، ولاحظ أن كل من يمر عليه يشيح بوجهه عنه ، فأحس بالوحدة والوحشة والهوان ، وأغمض عينيه حتى لا يرى أحداً !

شعر بماء دافئ يتدفق فوق رأسه ، ولكن الإعياء الشديد جعله عاجزاً عن تحريك رأسه لمعرفة مصدر هذا الماء ، وظل الماء يتدفق فشعر براحة وكأنه حمام دافئ ، وارتفع الماء حوله حتى غمره ولم يبق فوق سطح الماء سوى رأسه وجزء من رقبته ، فقام بصعوبة وأخذ يخوض فى هذا الماء باحثاً عن مصدره . لقد ظنه يتدفق من إحدى البالوعات ، ولكنه عندما التفت إلى الخلف عرف مصدر هذا الماء ، إنه يتدفق من عينى الشاعر ! ولكن الشاعر لم يعد سوى تمثال ، فكيف يبكى التمثال ؟ ورأى الماء يزحف إلى الشارع ويعلو حتى أصبح وكأنه طوفان من الدموع .

فكر فى أن يسبح فى هذا الماء ، ولكنه لا يعرف السباحة ، وظل يخوض فى الماء الذى ارتفع إلى رقبته ، ولكن ماذا يصنع لو ظل الماء يرتفع إلى ما فوق مستوى الرأس ؟ فى هذه اللحظة مر بجواره قارب به ثلاث فتيات وثلاثة شبان وفى يد كل منهم مجداف يجدف به وهم يغنون أغانى مرحة ، وسار القارب مبتعداً عنه ، ثم أبصر قارباً ثانياً متجهاً نحوه به فتاة وفتى : الفتى يعزف على قيثارة والفتاة واقفة تتمايل مع القارب ، وتغنى أغنية بطيئة الإيقاع أعجبه لحنها ، وازداد عدد القوارب ، ولاحظ أن الماء قد وصل إلى مستوى ذقنه ، فأخذ يصيح طالباً النجدة ، ولكن كل من فى هذه القوارب كانوا يمرون به دون أن يعيروه أى اهتمام ! فصار يخوض فى الماء متجهاً نحو التمثال الذى اختفت معظم أجزائه فى الماء والدموع لا تزال تنهمر من عينى الشاعر وكأنها شلال !

حاول (ميم) أن يصعد فوق الدكة الخشبية ، لينجو من الغرق ، ولكن فى كل مرة كانت قدمه تنزلق ، واختل توازنه ، وكاد يسقط على ظهره فى الماء ، وفجأة أغمض تمثال الشاعر عينيه وكأنه ينام ، وانقطع سيل الدموع المتدفق ، وتحلت القوارب تدور حول التمثال وفيها فتيات جميلات ينشدن أناشيد شجية الألحان ، ولاحظ (ميم) أن الماء قد انخفض مستواه فأصبح عند كتفيه ، واستمر فى الانخفاض ، فجلس على الدكة الخشبية وأسند رأسه على قاعدة التمثال . وشاهد القوارب تبتعد مسرعة وتختفى عن عينيه ، وفى لحظات قصيرة غاض الماء وكأن الأرض قد ابتلعته ، وجفت الشوارع . وبدأت تمتلئ بالمارة والسيارات . أخذ (ميم) يتحسس حلته ، فوجدها جافة وأسرع بوضع يده فى جيبه ، ليطمئن على وجود العشرين قرشاً ، فوجدها فى الجيب الأيمن كما كانت .

شعر (ميم) ببعض الراحة ، فترك الميدان ، وسار فى الشارع على غير هدى ، مر على المطعم الذى اعتاد تناول الطعام فيه ، فتذكر الفتاة التى قدمت له الطعام فى أول يوم والتى بسببها حلت عليه اللعنة ، وأصبح منبوذاً من الجميع ، فشعر بالاكتئاب ، تذكر أن فى جيبه عشرين قرشاً . وقف أمام باب المطعم متردداً ، هل يدخل ويتناول عشاءه أو يبحث عن مطعم آخر ؟ وفكر فى أن البحث عن مطعم آخر قد يستغرق وقتاً طويلاً وهو يوشك أن يغمى عليه من فرط الجوع . وجد نفسه يدخل المطعم ويجلس أمام المائدة نفسها التى جلس أمامها أول مرة .

كان المطعم فى هذه المرة مزدحماً بالرواد ، وكانت الفتاة التى قدمت له الطعام فى المرات السابقة منهمكة فى الحديث مع فتاة أخرى من فتيات المطعم

لم يبق له رؤيتها ترتدى الزى نفسه . كانت الفتاة التى يعرفها مستندة على حافة البوفيه الذى وقف خلفه شاب يقوم بتحضير الأطعمة المطلوبة مرتديا سترة بيضاء ورباط عنق أسود على هيئة فراشة ، وعلى رأسه قلنسوة بيضاء . عندما رأت الفتاة (ميم) جالساً أمام المنضدة أشاحت بوجهها عنه ، وحاول (ميم) أن يتجنب النظر إليها ، فظل ناظراً إلى مفرش المنضدة ، ودار حوار بين الفتاتين لم تستطع أذناه التقاط حرفٍ واحدٍ منه ، وبعد فترة تردد قصيرة أقبلت نحوه الفتاة الأخرى ، ووقفت بجواره وسألته :

– هل درت فى الطاحونة ؟

قال (ميم) دون أن ينظر إليها :

– أجل ، درت فى الطاحونة وفى جيبى عشرين قرشاً فلا تظنى أننى سآكل بالمجان ، وأريد طعاماً لا يزيد ثمنه عن خمسة قروش .

كانت هذه الفتاة التى لم ينظر إليها (ميم) ذات عينين زرقاوين وشعر ذهبى وبشرة صافية بيضاء مشربة باحمرار خفيف وفى خدها الأيمن شامة سوداء ، اتجهت نحو البوفيه وعادت وفى يدها صينية عليها طبق به ربع دجاجة وطبقان آخران أحدهما به بعض قطع من الخبز والآخر به قطع من الطماطم ، وعلبة مستطيلة من الورق المقوى تبرز من حافتها ماصة يمتص ما بداخلها من لبن ، وضعت الفتاة هذه الأشياء أمام (ميم) على المنضدة ، وهمت بالانصراف ، ولكنها عادت وسألته :

– هل عثرت على مسكن جديد ؟

فأجاب (ميم) دون أن ينظر إليها :

– كلا .

وبدأ فى تناول الطعام ، وظلت الفتاة واقفة بجواره وعادت وسألته :

– يمكنك أن تذهب إلى المسكن الذى كنت فيه مادمت ستدفع إيجاره ، إنه لا يزال خالياً .

كان (ميم) قد التهم ربع الدجاجة ، وبدأ يلتهم الطماطم ، فقال وقطعة الطماطم لا تزال فى فمه وفى صوته رنة حزن :

– أشكرك على هذا الاهتمام ، ولو أننى سئمت الحياة فى هذه المدينة ، ولا أظن أننى سأبقى بها طويلاً ، لقد قدمت شكوى لمالك المدينة ألتمس منه السماح لى بمغادرتها .

فقالت الفتاة بدهشة :

– تغادر هذه المدينة ؟

– نعم أغادر هذه المدينة ، ليس فى هذا ما يدعو إلى الدهشة .

– وإلى أين تذهب ؟

– إلى المكان الذى أتيت منه ، لابد أننى أتيت من مكان ما . أو أذهب إلى أية مدينة أخرى غير هذه المدينة البشعة .

– ولماذا كرهت هذه المدينة ؟

قال (ميم) بغضب وقد تهدج صوته ودمعت عيناه :

– كل ما فيها يدعو للكراهية ويثير الاشمئزاز ! المدينة التى يُعدم فيها شاعر رقيق لا يزال صبياً ، ويظلم فيها إنسان برىء دون أن يجد من يرفع الظلم عنه لا تستحق أن يعيش فيها أحد !

– وهل رأيت مظلوماً فى هذه المدينة ؟ إنها مدينة طاهرة نقية .

كان (ميم) قد انتهى من تناول الطعام ولو أن الحوار الذى دار بينه وبين الفتاة لم يجعله يستمتع به . لم ينظر إلى الفتاة طوال هذه المدة ولم ير وجهها ، قال بصوت مرتعش مختنق وهو لا يزال مصوباً بصره نحو مفرش المنضدة :

– لقد وقع علىّ ظلم شديد ، ولم أجد من يرفع الظلم عنى ! وما زلت حتى هذه اللحظة أعاقب على ذنب لم أقترفه ، وألقى بسببه كل أنواع المذلة والهوان ! لماذا لا أحاكم محاكمة عادلة ، لتظهر براءتى ؟

– ليس فى المدينة محاكم لعدم وجود مذنبين ، فهل من المعقول أن تقام محكمة من أجل فرد واحد ؟ من أجلك أنت ؟ إن إنشاء محكمة يحتاج لمبالغ طائلة .

– رفع الظلم عن إنسان واحد برىء يستحق أن تنفق من أجله جميع أموال هذه المدينة . لم أعد أطيق البقاء هنا .

– قالت الفتاة محاولة تغيير مجرى الحديث :

– وهل تعرف مدينة أخرى غير هذه ؟

– كلا ، ولكن من المؤكد أن هذه المدينة ليست (الوحيدة) فى الكون .

– أنا لا أعرف طريقاً لأية مدينة أخرى ، وكلنا نعلم أن من يدخل هذه المدينة لا يغادرها إلا عندما ينفذ فيه حكم الإعدام . كلنا محكوم علينا بالإعدام . هل تعلم ذلك ؟

– أعلم ذلك ، أليس هذا وحده سبباً كافياً لكراهية هذه المدينة ؟ يخيل إلىّ أنى محكوم علىّ بالأشغال الشاقة أيضاً علاوة على حكم الإعدام ، ولذا

سأحاول الابتعاد عن هذه المدينة الملعونة فى أقرب فرصة .

قالت الفتاة وقد ابتسمت لأول مرة ولو أن (ميم) لم يرا ابتسامتها لأنه لم ينظر إليها :

– لو كان الأمر بهذه السهولة لما بقى أحد فى المدينة ، لا أحد يستطيع مغادرتها قبل تنفيذ حكم الإعدام فيه !

– ولكنى قدمت شكوى لمالك المدينة وعلمت أنه يفحص بعناية كل شكوى تقدم إليه ، وسوف يحقق لى أمنيتى .

– لقد قدمت له أنا أيضاً مئات الشكاوى والالتماسات والأمنيات ولم يحقق لى أية أمنية أو لأى الناس ولم ينظر فى أية شكوى من شكاواى . إنه يبدو وكأنه لا يهتم ولا يكترث بأى فرد من أفراد المدينة ولا بما يحدث فيها ، إنه يجمع الدمى ويتركها تتصارع فيما بينها .

– ولماذا يتقبل الشكاوى والأمنيات إذا كان لا يعبأ بها ولا يهتم بتحقيقها ؟

– يقال : إنه يهوى تقبل الشكاوى ، ويشجع على ذلك ، لأنه يجد لذة فى شكوى الناس وتوسلاتهم ، ولكنى لم أسمع عن أمنية واحدة حققها لأى أحد !

ظل (ميم) جالساً فى صمت واكتئاب واستمرت الفتاة فى حديثها قائلة :

– ومع ذلك فالشكاوى والتوسلات والأمنيات لا تنقطع ليلاً ونهاراً ، مئات الناس يذهبون إلى ذلك المنزل الذى عند نهاية الشارع كل ساعة وكل لحظة حاملين شكاواهم متوسلين إلى مالك المدينة لتحقيق بعض الأمنيات .

فقال (ميم) فى عصبية :

– مالك هذه المدينة أمره عجيب . يجرى تنفيذ أحكام الإعدام فى الأبرياء ، ويتلذذ بشكاوى المعذبين دون أن يحقق لهم أية أمنية ! أنا لم أر أعجب من هذا .

وساد الصمت بينهما ، ثم التفت إليها فرأى وجهها لأول مرة وقال :

– هل رأيتِ هذا المالك ؟

لم تكن تتوقع أن تفاجأ بهذا السؤال فقالت بدهشة :

– كلا ، لم أره ! ولم يره أحد ، ولكن بعض الناس يدعون أنهم رأوه .

فقال (ميم) وهو لا يزال ناظراً فى ذهول إلى وجه الفتاة :

– ما شكله ؟

– كيف أعرف شكله وأنا لم أره ؟ !

– ما اسمه ؟

فقالت الفتاة بعد لحظة تفكير :

– ليس له اسم معين ، له أسماء كثيرة .

هوى (ميم) بقبضة يده على المنضدة ، فاهتزت الأطباق هزاً عنيفاً وقال :

– أريد أن أراه !

فى هذه اللحظة سمع (ميم) همهمة وضوضاء فى جميع أنحاء المطعم ، ونظر فوجد جميع الرواد ينظرون إليه نظرات غريبة ، ويتحدثون فيما بينهم أحاديث غير واضحة الكلمات ، ويشيرون بأصابعهم وأيديهم إلى الفتاة لتسرع إليهم ، فأسرعت الفتاة ، وأخذت تتحدث إليهم فرادى وجماعات وعلامات الغضب بادية على وجوههم ! كانت تتحدث فى عصبية وقد تقلصت عضلات

وجهها ، ونفرت عروق رقبتها ويداها تتحركان كما تتحرك شفتاها . لم يستطع (ميم) أن يفهم شيئاً مما يقال ، ثم بدأ الرواد يتركون المطعم قبل أن ينتهوا من تناول طعامهم ، ووجد (ميم) نفسه بعد فترة قصيرة وحيداً فى المطعم ، أشار للفتاة فأسرعت إليه وهى تلهث وقد شحب وجهها ولم يشأ أن يسألها عن سبب ذلك الغضب الذى اجتاح المطعم ، وأكتفى بأن سألها عن الحساب ، فوضعت يدها اليمنى على خصرها ، ونظرت إليه نظرة قاسية وقالت :

– خمسة قروش !

فأخرج (ميم) خمسة قروش من جيبه وضعها على المائدة ، وأسرع بمغادرة المطعم وهو لا يدرى إلى أين يذهب ؟

٧

كانت الأنوار تتلألأ على جانبى الشارع ، وتكاد تحيل الليل إلى نهار . ولكن (ميم) كان يسير وكأنه فى ظلام يخفى عنه جميع الأشياء ، شعر بألم شديد فى ظهره من أثر السياط التى ألمته فى الطاحونة ، وتمنى لو يتمكن من مقابلة مالك المدينة شخصياً ويلتمس منه الاستجابة لشكواه ومساعدته على مغادرة هذه المدينة إلى أى مكان آخر . فهو لا يعرف وسيلة للهرب منها ، ولكن رنت فى أذنه كلمات فتاة المطعم عندما قالت : « . . . لم أسمع عن أمنية واحدة حققها لأى فرد » . فوقف متردداً لا يدرى ماذا يفعل شاعراً باليأس والضياع ؟ تذكر أن الفتاة أخبرته أنه يستطيع العودة إلى المنزل الذى كان فيه مادام سيدفع

إنجازه ، ففكر فى الذهاب إلى المنزل ، ليريح جسده المرهق ويأخذ قسطاً كافياً من الراحة قبل الذهاب غداً للدوران فى الطاحونة . فى هذه اللحظة شعر بيد تمسك كتفه ، فانتفض فزعاً ، ونظر إلى الخلف ، فرأى صاحب هذه اليد . إنه رجل طويل نحيل شاحب الوجه أنيق الملبس ذو شعر أسود لامع ، قال (لميم) مبتسماً :

– لماذا فزعت هكذا ؟

فقال (ميم) ووجهه ما زال مصفراً :

– أنا لا أعرف أحداً فى هذه المدينة ولم أكن أتوقع أن يتحدث معى أى إنسان ! كل من يرانى يشيح بوجهه عنى .

– أنا لم أشح بوجهى عنك ، فأنا منبوذ مثلك ! الجميع يشيحون وجوههم عنى مثلك تماماً .

قال (ميم) :

– ولماذا ؟

– للسبب الذى جعلهم ينفرون منك ، ويتجنبون الحديث معك ، كنت سائراً فى هذا الشارع بالقرب من هذا المكان الذى نحن فيه الآن . كنت حزيناً ووحيداً مثلك ، وشاهدت فتاة آية فى الجمال لم أر فى حياتى أجمل منها ، فدارت فى رأسى أفكار خبيثة ، أردت أن أستمتع بهذه الفتاة ، فطلبت منها أن تؤنسنى وحدتى فى منزلى ، فبصقت فى وجهى وحلت علىّ اللعنة منذ تلك اللحظة ! كان كل من يرانى يبصق فى وجهى ، فكنت ألزم منزلى ولا أغادره لعدة أيام أو عدة أسابيع حتى لا يرى أحد وجهى فيبصق عليه ! وكنت فى

بعض الأحيان أغطى وجهى لأخفى شخصيتى ، ولكن هذا بدلاً من أن يمنع عن وجهى تلك القذائف التى كانت تنطلق من أفواههم ، زاد الأمر سوءاً ، إذ كان مدعاة لاستدعاء مزيد من الأمطار نحوى !

فقال (ميم) وقد تجهم وجهه وازداد شعوره بالظلم الذى يرزح تحت نيره :

– ولكنى عندما طلبت من الفتاة أن تؤنسنى وحدتى لم تخطر فى ذهنى أى أفكار خبيثة كتلك التى دارت فى رأسك ! كنت أرغب فى التحدث معها بعض الوقت حديثاً بريئاً ولا أكثر من ذلك ! تقفز فى ذهنى فى بعض الأحيان فكرة غريبة .

– ما هى ؟

– أن أسير فى الشارع صارخاً بأعلى صوتى قائلاً ... « أنا برىء ... أنا برىء »

فضحك الرجل وربت على كتف (ميم) قائلاً :

– على كل حال لن يدوم هذا طويلاً ، إذ بعد نحو عام حدث استفتاء بشأنى اشترك فيه كل أهل المدينة . كان الاستفتاء يقول : « هل يظل منبوذاً أو تعفون عنه ؟ » فعطف أهل المدينة علىّ وعفوا عنى . ولكن العفو لم يكن بإجماع الآراء ، فظللت بعد ذلك أتعرض لبعض المنغصات !

ثم ضحك وواصل حديثه قائلاً :

– وبعد أن تم العفو عنى ارتكبت حماقة أخرى لا داعى لذكرها ، فحلت علىّ اللعنة من جديد .

وعاد يضحك ثم توقف عن الضحك فجأة ، ونظر إلى (ميم) نظرة حادة وقال :

– كنت جالساً بالقرب منك فى المطعم الآن ، وسمعت حوارك مع الفتاة ، سمعتك تقول : إنك ترغب فى رؤية مالك المدينة .

قال (ميم) :

– نعم ، أنا مصرٌ على رؤية مالك المدينة ، وسأفعل المستحيل فى سبيل ذلك .

فقال الرجل :

– لقد وقفنا طويلاً على قارعة الطريق ، ألديك مانع من الجلوس معاً فى أى مكان ؟

قال (ميم) الذى أرهقه الوقوف :

– لا مانع ، ولكن أين نجلس ؟

قال الرجل :

– فى منزلى إذا أردت .

ساروا نحو منزل ذلك الرجل ، وكان يسير على الإفريز نفسه فى الاتجاه المضاد لهما خمس فتيات جميلات يرتدين سراويل مختلفة الألوان ، أصفر وبرتقالى وأحمر وأزرق وبنى . وعندما اقتربت الفتيات منهما بدا عليهن الفزع وكأنهن أبصرن وحشين مفترسين ، وندت من الفتاة ذات السروال الأزرق صرخة ، ثم انطلقت الفتيات يعدون بأقصى سرعة مبتعدات عنهما !

قال الرجل (لميم) :

– هل رأيت ؟ الفتيات الجميلات يفزعن منا ويولين هاربات . هل يوجد ما هو أقسى من ذلك ؟

قال (ميم) وكأنه يحدث نفسه :

– يوجد ما هو أقسى من ذلك .

– ما هو ؟

– الدوران فى الطاحونة !

– الطاحونة ؟ ! آه ! ... آه ! ... أنا لا أتفق معك فى هذا الرأى ، فالعذاب الجسمانى مهما كانت قسوته ، أخف وطأة من عذاب النفس عندما يشعر الإنسان أنه غير مرغوب فيه .

ثم التفت إلى (ميم) وقال :

– ما اسمك ؟

– (ميم نون) .. وأنت ؟

– واو واو .

ساد الصمت بينهما فترة من الزمن ثم قال واو :

– العذاب يتوقف على نظرة الإنسان للأمور : من يحب الطعام الجيد اللذيذ يتعذب عندما يُحْرَمه ! ومَن يحب المنزل الأنيق الجميل فإنه قد يصاب بالجنون لو أجبر على الحياة فى كوخ حقير . ومن يحب المال لا يشعر بالتعس لو عاش فى كوخ قذر رخيص ما دام هذا يتيح له فرصة توفير المال وتكديسه ! وأنا من سوء طالعى أحب الجمال ، وكلما أعجبنى وجه فتاة جميلة وجدتها تصرخ فى وجهى ، وتولى هاربة ! إننى أتعذب فى صمت .

ووصلا إلى منزل واو ، نظر (ميم) إلى المنزل فوجده جميلاً كجميع منازل الشارع ، أمامه حديقة أنيقة معتنى بها يفصلها عن الشارع سور منخفض من الحديد تحف به من الداخل أشجار البواسيانا ، وتنبعث من الحديقة رائحة أزهار الياسمين مختلطة برائحة الورد ، ويتوسط الحديقة نافورة . كانت الحديقة مضاءة بضوء بنفسجي على حين كانت الأنوار داخل المنزل مطفأة وجميع النوافذ مغلقة ، دخلا الحديقة ، وعند نهايتها صعدا سلما ذا ست درجات ، ثم أخرج واو من جيبه مفتاحاً وفتح الباب ، وضغط على أحد الأزرار ، فغمر الضوء بهو المنزل .

انبهر (ميم) عندما شاهد الأثاث الرائع المتناثر في أنحاء البهو والديكور الجميل الذي يتسم بالذوق الرفيع . كان (ميم) متعباً ، فجلس على أقرب كرسي صادفه في البهو ، وجلس (واو) بالقرب منه وقال (ميم) :

– هل تعيش بمفردك في هذا المنزل الأنيق ؟

فقال (واو) :

– نعم ، بكل أسف . أعيش وحيداً في هذا المنزل .

فأخذ (ميم) يدير بصره في أنحاء البهو ثم قال :

– ولماذا لا تتزوج ؟

قال (واو) :

أتزوج ؟ كيف أتزوج وكل فتاة تراني تصرخ في وجهي ، وتسرع بالهرب ؟ وعلى أية حال لم يعد لدى متسع من الوقت للزواج .

وأطرق للأرض في حزن ثم واصل حديثه قائلا :

– سينفذ فيّ حكم الإعدام بعد أشهر قلائل .

فقال (ميم) مندهشاً :

– وكيف علمت ؟ من المفروض أن هذا سر لا يعلمه سوى مالك المدينة .

– عرفت رجلاً لديه القدرة على معرفة موعد تنفيذ الإعدام في أي إنسان من أهل المدينة ، إنه يذكر الموعد باليوم والساعة .

– وأين هو هذا الرجل ؟

– هنا ، في الشارع .

– مدهش ، وهل يمكنه أن يخبرك عن موعد إعدامي ؟

– أعتقد أنه لن يرفض ، ولكني أنصحك ألا تحاول معرفة موعد إعدامك ، لقد تحولت حياتي إلى جحيم منذ عرفت موعدي .

– ولكني أتوقع تنفيذ الحكم بإعدامي في أية لحظة ، وهذا من شأنه أن يجعلني في خوف وقلق مستمر .

– لست أدري ! ولكني ندمت على تعرفي إليه ، ليتني لم أعرف موعد إعدامي .

– ومن أين لهذا الرجل معرفة هذا السر ؟

– يقال : إنه على اتصال وثيق بمالك المدينة ، والمالك يطلعه على بعض الأسرار .

– وهل يعلم المالك أن ذلك الرجل يذيع هذه الأسرار ؟

– المالك يعلم كل شيء ، إن لدى مالك المدينة أجهزة تكنولوجية إلكترونية غاية في الغرابة ، تذهل العقول !

قال (ميم) وقد فغرفاه من الدهشة :

– كيف ؟

– على سبيل المثال : لديه غرفة فسيحة مزوّدة بأجهزة تليفزيونية يمكنه عن طريقها أن يرى ويسمع ما يدور فى أى ركن من أركان المدينة ، حتى فى غرف النوم !

فصاح (ميم) مندهشاً :

– حتى فى غرف النوم ؟

– نعم .

– وفى الحمام ؟

– وفى الحمام وفى أى مكان ، لديه غرفة فسيحة أخرى مزودة بأجهزة إلكترونية يمكنه بها أن يحدث زلزالاً يهز المدينة ، ويدمر عديداً من مبانيها فى أية لحظة من اللحظات ، ويحدث ذلك بمجرد الضغط على بعض الأزرار !

– شئ عجيب .

– والأعجب من هذا كله . . .

– وهل يوجد ما هو أعجب من هذا ؟

– نعم ، يوجد ما هو أعجب من هذا . الأعجب من هذا كله ما يقال من أننا جميعاً ، أى جميع سكان هذه المدينة ، ما نحن سوى دُمَى صنعها مالك المدينة بنفسه ! وهو الذى يحركنا كيف يريد ، يحركنا بجهاز للحركة بعيد المدى كالجهاز الذى يفتح التليفزيون ويقفله من بعيد .

فبلغت دهشة (ميم) ذروتها وصاح قائلاً :

– كله إلا هذا ، أنا لا أصدق ذلك ، هل أنا وأنت وجميع من رأيتهم هنا دمى تتحرك كما يريد أن يحركنا ؟ لا ، هذا غير معقول ، وإذا كان الأمر كذلك فلماذا صنعنا ؟

– ليلهو بنا ، وليجعل لوجوده معنى .

فقال (ميم) فى ذهول :

– ليجعل لوجوده معنى ! ما معنى هذا ؟

اعتدل (واو) فى جلسته وأطرق مفكراً بضع لحظات ثم قال :

– إذا وجدت نفسك فى مكان معزول ليس به سواك ولا يعرف أحد عنك شيئاً فهل يكون لوجودك معنى ؟ إننا هنا نتحدث عن مالك المدينة ليلاً ونهاراً وهو يستطيع أن ينفذ حكم الإعدام فينا فى أية لحظة أليس فى هذا ما يضفى على وجوده معنى ؟

أخذ (ميم) يفكر تفكيراً عميقاً ثم قال :

– إذا كان هو الذى يحركنا كما يريد فهل معنى هذا أنه هو الذى جعلنى أطلب من فتاة المطعم أن تؤنس وحدتى ؟

– طبعاً .

– وهو الذى يجعل الناس يشيحون وجوههم عنى ؟

– طبعاً .

– فلماذا إذن أعاقب هذا العقاب الشديد ؟ لماذا يجعل الناس يشيحون وجوههم عنى ؟ وفضلاً عن ذلك فلابد أنه يعلم أننى بريء لم أقصد بكلامى أى معنى سيئ ! هل يعلم ذلك أيضاً ؟

- يعلم كل شيء ! وفي اعتقادي أنه يتلذذ بعذابنا ، فلابد أن يجيء سبباً هذا العذاب .

- حتى لو كان هذا السبب من صنعه هو؟

- أجل ، لست أنت وحدك البريء ، لأنك لم تقصد أي سوء عندما طلبت من فتاة المطعم أن تؤنس وحدتك ، أنا أيضاً بريء إذ لا يد لي فيما دار في ذهني . هو الذي جعلني أفكر هذا التفكير السيئ الخبيث !

- إذن فنحن جميعاً أبرياء .

- أجل ، كلنا أبرياء مساكين !

فشعر (ميم) بدوار ، وضع رأسه بين كفيه وظل مطرقاً للأرض صامتاً نحو دقيقتين ثم رفع رأسه وقال :

- أنا لا أصدق أنا دمى صنعها مالك المدينة ! هذا كلام لا يقبله العقل !

فنظر إليه (واو) وقد قطب حاجبيه وقال :

- اسمع ، سأسألك سؤالاً .

- اسأل .

- هل تذكر كيف أتيت إلى هذه المدينة ؟

- كلا . لقد وجدت نفسي في هذه المدينة في يوم من الأيام ولا أذكر شيئاً قبل ذلك !

فنظر إليه (واو) مبتسماً وقال :

- هذا دليل على أنك لم تكن في الوجود قبل هذا اليوم .

قال (ميم) بعد لحظة تفكير :

- ربما كنت موجوداً في مكان آخر ولكنني لا أذكره !

وفجأة وقف (ميم) في فزع وقد بدأ يرتعد وصاح قائلاً :

- كفى كلاماً في هذا الموضوع ، لابد أنه يسمع الآن كل حديثنا .

فاسطجع (واو) في كرسيه مبتسماً ، ووضع إحدى ساقيه فوق الأخرى وقال :

- لا داعي للفزع . إنه لن يعاقبنا على مثل هذه الأحاديث ، بل على العكس ، إنه يحب سماعها .

فقال (ميم) مضطرباً :

- ولماذا يحب سماع هذه الأحاديث ؟

- إنه يحب كل من يحاول الوصول إلى الحقيقة ، إنه يفتخر بأن الدمى التي صنعها تفكر وتتأمل ! لابد أنه الآن معجب بنا كل الإعجاب .

فأطرق (ميم) نحو الأرض فترة قصيرة ثم التفت إلى (واو) وقال :

- إذن فهو الذي صنع هذه المدينة بكل ما فيها من جماد وحيوان وإنسان .

قال (واو) وهو لا يزال مضطجعاً وقد بدأ يهز قدمه :

- هذا ما سمعته من كثير من الناس .

- وكيف عرفوا ذلك ؟

- بعض المقربين إليه من المطلعين على أسراره أفشوا بعض هذه الأسرار . ويقال : إنه كان يشجعهم على إفشائها .

فضغط (ميم) على جبهته وبدا عليه التفكير العميق ثم قال :

- ولكن الشيء الذي يحيرني : لماذا يصنعنا ثم يعذبنا ؟

– يقول بعض المقربين إليه : إنه يعذبنا ، ليشعرنا بوجوده ، ويشعرنا أيضا بوجودنا ! الإنسان لا يشعر بوجوده إلا إذا تعذب ، إننا لا نشعر بلحظات السعادة ، ولكننا نحس بأيام العذاب !

– أفلا نشعر بوجوده إلا إذا عذبنا ؟

– الإنسان قد لا يذكر الذى أسعده ، ولكنه لا ينسى الذى أشقاه !

فى هذه اللحظة دق جرس الباب رنيناً متصلاً ، فقام (واو) وأسرع يفتح الباب . أطل من الباب رجل تعجب (ميم) من حضوره . إلى هذا المكان . إنه خادم المنزل الذى كان يقيم فيه (ميم) ، سأله (واو) :

– من أنت ؟ وماذا تريد فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟

– أريد (ميم نون) . لماذا لم يرجع إلى منزله ؟ لقد سمحوا له بالعودة ، لأنه سيدفع الإيجار ، وظللت أنتظر قدومه حتى هذه الساعة ، لماذا لم يحضر ؟ لقد سئمت الانتظار .

قام (ميم) وصافح (واو) مودعاً شاكراً له استضافته فى منزله ، وعندما هم بهبوط السلم قال له (واو) :

– أحب أن أراك غداً . متى ؟ وأين أراك ؟

قال (ميم) :

– غداً مساء ، فى المطعم .

وسار (ميم) نحو منزله فى صحبة الخادم الذى كان يجر ساقه المريضة ويغالب النعاس .

٨

عندما دخل (ميم) منزله وجده كما هو لم يتغير فيه شىء ، لم يكن باقياً على الفجر سوى ساعات قلائل ، فخلع الحلة ولبس المنامة ، وذهب إلى الحمام ، ثم عاد وألقى بجسده على السرير . صحا من نومه فى نحو العاشرة صباحاً . نادى الخادم ، فلم يجد استجابة لندائه ، ولكنه وجد مفتاح المنزل فوق المنضدة التى بجوار سريره ، ذهب إلى الحمام ثم عاد وارتدى ملابسه على عجل ، وأسرع بالذهاب إلى المطعم لتناول إفطاره .

لم يكن فى المطعم سواه . وأقبلت نحوه الفتاة التى قدمت له الطعام بالأمس ، طلب منها فطوراً لا يزيد ثمنه عن ثلاثة قروش ، فأحضرت له كوباً كبيراً من اللبن وثلاث بيضات مقلية وقطعتين من الخبز . فأقبل على الطعام يلتهمه ، وظلت الفتاة واقفة بجواره ، سألته :

– هل عدت إلى منزلك ؟

فقال وهو يلتهم البيض :

– نعم .

– فقالت وفى لهجتها شىء من السخرية :

– وهل قابلت مالك المدينة ؟

فقال متحدياً :

- كلا ، ولكنى مصمم على مقابلته .

- فقالت وهى تبتعد عنه مسرعة :

- لن تستطيع رؤيته . ليست مقابلته بالأمر الهين .

انتهى من تناول الطعام فترك ثلاثة قروش على المنضدة ، وأسرع بمغادرة المطعم . كان موعد دورانه فى الطاحونة قد حان ، فأسرع نحوها . كان بابها مغلقا ، ضغط على زر الجرس ففتح الباب الرجل نفسه الذى رآه بالأمس ، ذلك الرجل البدين البطىء الحركة الشبيه بالسلحفاه ، نظر الرجل إلى (ميم) بعينين منتفختين نصف نائمتين وقال وهو يفرك عينيه :

- ماذا تريد ؟

فقال (ميم) مندهشاً لهذا السؤال :

- أتيت لأدور فى الطاحونة .

فقال الرجل وقد فتح الباب فتحة صغيرة أطل منها برأسه :

- لقد تأخرت عن موعدك ، إذا تأخرت مرة أخرى فلن أفتح لك الباب ، يجب أن تكون هنا فى التاسعة صباحاً .

- لن أتأخر بعد اليوم ، سأحاول المحافظة على المواعيد على قدر طاقتى .

فنظر إليه الرجل باشمئزاز ، وقال بلهجة جافة وبإشارة من يده :

- ادخل .

فدخل (ميم) ووضعه الرجل داخل الحلقة ، وهوى على ظهره بالسوط ، فانطلق يدور فى الطاحونة بكل ما أوتى من قوة ، ظل يدور حتى تصبب عرقه ، وأخذ يلهث ، وكلما تباطأ من أثر الإجهاد هوى الرجل على ظهره بالسوط !

وخيل (لميم) أن وحدات الزمن قد امتدت وأصبحت بلا نهاية . فتوقف عن الدوران ونظر إلى الرجل ، فوجده واضعاً ذراعه الأيمن على المنضدة ، مسنداً رأسه على هذا الذراع يغط فى نومه فاغراً فاه . انتهز (ميم) هذه الفرصة ليستريح من الدوران بعض الوقت . ولكن الرجل رفع رأسه ، وفتح عينيه الشبيهتين بعينى الحرباء وصاح قائلاً :

- هل تنتهز فرصة نومى لتتوقف عن الدوران ؟ هل تخدعنى ؟ هل تريد أن تحصل على أجر بلا عمل ؟ ألا تعلم أن هذه الجريمة فى هذه المدينة عقوبتها الإلقاء بك فى البالوعة ؟

وقف الرجل وأمسك السوط ، وصار يهوى به على جسد (ميم) . لم يحتمل (ميم) الألم فأخذ يصرخ ، فتجمع عدد كبير من الأطفال على باب الطاحونة ، وصاروا يضحكون كلما صرخ (ميم) ، وشعر (ميم) بدوار فتهاوى ، ولكن الحلقة التى حول جسمه منعته من السقوط . هوى الرجل على جسده بالسوط فلم يتحرك ، فتركه معلقاً فى الحلقة فاقد الوعى وجلس عند المنضدة وأسند رأسه على ذراعه كما كان ونام .

بعد نحو ساعة بدأ (ميم) يفيق من إغمائه ! شعر بماء دافئ يسيل على ظهره ، أدخل يده تحت القائلة وتحسس ظهره ، فوجده مبتلاً ، وعندما أخرج يده ونظر إليها وجدها ملطخة بالدماء ! صرخ (ميم) عندما رأى الدم ، فصحا الرجل البدين ورفع رأسه ، فرأى يد (ميم) الملوثة بالدم فقام ببطء شديد وأخرجه من الحلقة المعدنية وأعطاه عشرة قروش قائلاً :

- أنت لا تستحق اليوم سوى نصف الأجر ، وحذار أن تخدعنى مرة

أخرى ، واشكر مالك المدينة لأنه غفر لك هذا الذنب ، ولم يلق بك في البالوعة !

تناول القروش العشرة مطرقاً للأرض في صمت واتجه نحو ميدان الشاعر ، جلس على الدكة الخشبية بجوار التمثال ، كان كل مايراه يسرع بالابتعاد عنه ، لم يستطع السيطرة على مشاعره ، فخبأ وجهه بيديه وانفجر يبكي بكاءً صامتاً عنيفاً .

عندما انتهت نوبة البكاء شعر بشيء من الراحة ، فكر في الذهاب إلى المنزل ، ولكنه شعر بالوحدة تعتصر قلبه ، وفضل البقاء في الشارع حيث يستطيع أن يرى الناس حتى لو كانوا ينفرون منه ويشيحون وجوههم عنه ، فهذا مهما كان أهون من الوحدة المطلقة في منزله الكئيب ! مر بالقرب منه رجلان يتحدثان بصوت مرتفع ، فشعر برغبة قوية في التحدث مع أي إنسان ، فكر في زيارة (واو) ولكنه تذكر أن بينهما موعداً للالتقاء في المطعم في مساء ذلك اليوم . فخطرت له فكرة أخرى . لماذا لا يذهب لزيارة أول إنسان عطف عليه في هذه المدينة ؟ ذلك الشاب « دال » الذي كان يعيش مع أخته ولقد في إحداها حكم الإعدام عن طريق الذبابة القاتلة في أثناء وجوده في ضيافتهم ؟ لماذا لا يذهب لزيارته للسؤال عنه والاطمئنان عليه هو وأخته التي بقيت على قيد الحياة ؟ وظل يفكر قائلاً لنفسه : « ولكن هل يحسنان استقبالي بعد أن حلت عليَّ اللعنة ؟ ولكني بريء ، سأشرح لهما الأمر ، لم تدر في ذهني أية فكرة خبيثة عندما طلبت من الفتاة أن تؤنس وحدتي ! لا أحد يريد أن يرفع عني الظلم ، لا أحد يريد أن يصدقني ، ربما يقتنعان ببراءتي » . . .

ظل (ميم) سائراً حتى وجد نفسه أمام منزل « دال » ، شعر بالحزن عندما

تذكر تلك الفتاة الجميلة « تاء » التي نفذ فيها حكم الإعدام بلا ذنب ، وفي الوقت نفسه تاقت نفسه لرؤية أختها « سين » . كان باب الحديقة مفتوحاً فوقف (ميم) أمام الباب متردداً قائلاً لنفسه : « هل أدخل ؟ وإذا دخلت فهل يذكرانني ؟ وماذا يكون موقفي لو لم يتذكرني أحد منهما ؟ وإذا تذكراني ماذا يكون موقفي لو أعرضا عني وطرداني من منزلهما ؟ » .

كان الظلام قد بدأ يهبط ، وبدأت تنبعث من مصابيح الشارع أضواء زاهية متعددة الألوان تضفي على الأشجار وعلى كل ما في الشارع مظهراً رائعاً ، ولكن الحديقة لم تكن مضاءة ، ولا يبدو من النوافذ أي ضوء ، اجتاز الحديقة ، وصعد السلم الأمامي ووقف برهة قصيرة أمام الباب متردداً ، هل يضغط على زر الجرس ؟ وضغط على زر الجرس وسمع رنينه داخل المنزل ، وظل منتظراً ولكن الباب لم يفتح !

شعر بشيء من الراحة النفسية عندما لم يفتح الباب ، وهم بالانصراف ، ولكن بعد أن هبط السلم سمع صوت فتح الباب ، فالتفت فإذا بالباب امرأة عجوز تضع أمام عينيها نظارة .

قالت له :

— ماذا تريد ؟

فتلعثم (ميم) ولم يدر ماذا يقول ؟ وأخيراً قال :

— أليس هذا منزل « دال » ؟ إنه يعيش هنا مع أخته « سين » ، أليس كذلك ؟

فقالت المرأة وفي صوتها رنة حزن :

– (دال) ؟

– أجل «دال» . لقد سبق أن دخل لمنزله هنا .

فقالت العجوز فى حزن :

– «دال» نفذ فيه حكم الإعدام ، وأخته «سين» تزوجت وتركت المنزل .

شعر (ميم) باكتئاب شديد وقال وكأنه يحدث نفسه :

– ماذا فعل هذا الشاب الطيب لينفذ فيه حكم الإعدام ؟

– ليس من المفروض أن يرتكب الإنسان إثماً ليعاقب بالإعدام فى هذه المدينة ! ألا تعلم ذلك ؟ كلنا معرضون لتنفيذ حكم الإعدام فى أية لحظة وبلا أى ذنب جنيناه .

ثم أقفلت الباب ، وأضاءت الحديقة ، فهبط (ميم) السلم مطأطئ الرأس ، وسمع الباب يفتح من جديد ، وأطلت منه العجوز مرة أخرى وقالت :

– هل ترغب فى رؤية «سين» ؟ أنا أعرف عنوانها ، إنها تسكن مع زوجها فى المنزل رقم ١٩٩٩ .

– فقال (ميم) :

– شكراً .

واستدار خارجاً من الحديقة وبعد أن خطا خطوات قليلة سمع السيدة العجوز تصيح فى فزع :

– حلتك ملوثة بالدماء ، ماذا حدث لك ؟

فقال (ميم) دون أن يتوقف :

– كنت أدور فى الطاحونة .

فصاحت العجوز :

– تعال ، كيف تسير فى الشارع بثياب ملوثة بالدماء ، تعال أضمد لك جراحك ، وأغسل ثيابك .

توقف (ميم) متردداً مطرقاً للأرض ثم قال بصوت متهدج :

– أفضل أن أذهب إلى منزلى .

وسار فى طريقه نحو باب الحديقة خارجاً إلى الشارع ، فهبطت العجوز السلم بأقصى ما تستطيع من سرعة ، ولحقت به وأمسكته من ذراعه قائلة :

– لا تكن عنيداً . تعال أضمد لك جراحك .

واغرورقت عيناها بالدموع ، فسار (ميم) معها ودخلا المنزل ، طلبت منه الجلوس فى البهو ، فجلس وهرولت مختفية داخل المنزل . كان البهو الذى جلس فيه مظلماً ، ولما بدأت عيناه تعتادان الظلام اكتشف فى أحد أركان البهو فتاة جالسة تنظر إليه ، قامت الفتاة وضغطت على أحد الأزرار فغمر الضوء البهو ، ولما رأت (ميم) يطيل النظر إليها ابتسمت له وجلست فى المكان الذى كانت جالسة فيه . كانت الفتاة فى نحو السادسة عشرة ، رائعة الجمال ، ذات وجه ناصع البياض وشعر أصفر منهدل على كتفيها وعينين زرقاوين وقوام رشيق .

عادت العجوز وفى يديها إناء ملىء بالماء وشاش وقطن وزجاجة بها مادة مطهرة ، وضعت هذه الأشياء على منضدة بالقرب من (ميم) وطلبت منه أن يخلع سترته ، فخلعها وتناولتها منه ووضعتها على أحد الكراسى القريبة منها ، ثم طلبت منه أن يخلع قميصه فخلعه ووضعته فوق السترة ، ثم صبت جزءاً من

بمحلول المطهر فى وعاء الماء وغمست قطنة فى هذا الوعاء ، وبدأت تطهر جراحة ، وبعد أن انتهت من هذه العملية وضعت السترة والقميص على كتفها ، وحملت الأشياء التى كانت على المنضدة وغابت داخل المنزل .

كانت الفتاة فى هذه الأثناء قابعة فى ركن البهو تنظر إلى (ميم) وكأنها قطة سيامية ، وعادت العجوز ومعها قميص نظيف أعطته (ميم) قائلة :

– ارتد هذا القميص إلى أن يجف قميصك ، إنه قميص ابنى الذى نفذ فيه حكم الإعدام منذ خمسة أعوام ، ستجده فضفاضاً ، فقد كان صدر ابنى أعرض من صدرك .

ثم لاحظت أنه يسترق النظر إلى الفتاة وكأنه يريد أن يعرف من هى ؟

فقالت العجوز مشيرة نحوها بيدها إشارة سريعة :

– إنه والد هذه البنت ، فهى حفيدتى ومعذرة إذا كانت لم تبادلك الحديث ، ليس هذا تعالياً منها فهى بكماء صماء !

فقال (ميم) فى دهشة وكأنه يحدث نفسه :

– بكماء صماء ؟

قالت العجوز :

– أجل ، صماء بكماء ! هكذا أراد لها مالك المدينة ، لا تسمع ولا تتكلم ، فلقد حكم عليها بذلك ونفذ حكمه ، إنها لا تسمع الآن شيئاً من الحديث الذى يدور بيننا ، ولا تستطيع أن ترحب بك . رسالتى فى الحياة الآن هى أن أعتنى بها ، وأقوم بخدمتها ، فهى محتاجة لمن يعنى بها . لست أدرى ماذا سيكون مصيرها ؟ وكيف تحتمل الحياة لو شاء مالك المدينة أن ينفذ فىّ حكم

الإعدام ؟ هل يكفى الإنسان لكى يعيش أن يكون ذا عينين زرقاوين جميلتين ؟ نحن جميعاً دمى صنعها مالك المدينة ، فهل أخطأ عندما صنع هذه الفتاة المسكينة خطأ من غير قصد أو تراه قصد أن يجعلها صماء بكماء ؟

ثم أطرقت للأرض وقالت بصوت مرتعش متهدج :

– يقولون : إنه لا يخطئ ، لقد جعلها كالحيوان الأعجم . لا ، . . حتى الحيوان يمكنه أن يسمع !

وانهمرت الدموع من عينيها فمسحتها بيدها ، واختفت داخل المنزل .

جلس (ميم) يختلس النظر إلى تلك الفتاة الجالسة وكأنها تمثال من نور ، وأخذ يفكر ويقول لنفسه : « لماذا يحكم مالك المدينة على تلك الفتاة الجميلة بالحياة بلا سمع ولا نطق ؟ لماذا ؟ وهل وراء ذلك حكمة أو هو حكم تعسفى ظالم ؟ لماذا تحدث مثل هذه الأشياء فى هذه المدينة ؟ » وفكّر فى الذهاب إلى مكتب الاستعلامات ، ليستوضح هذا الأمر الذى شغل باله .

عادت العجوز ومعها السترة والقميص وأعطتهما (ميم) قائلة :

– لقد بذلت كل جهدى لتنظيفهما ، ولكن بقيت بعض آثار خفيفة لا يكاد يلاحظها أحد . وساعدت (ميم) على ارتدائهما ، ثم جلست على أريكة وجلس (ميم) أمامها على أحد الكراسى ، وانتقلت الفتاة وجلست بجوار جدتها . وفجأة احتضنت جدتها وقبلتها ، فاحتضنتها جدتها وغمرتها بالقبلات . ونظر (ميم) إلى وجه الجدة فرأى ملامحها تنطق بالطيبة وينبع من عينيها حنان عجيب ، وتعجب ، كيف يعاقب مالك المدينة مثل هذه السيدة الطيبة فينفذ حكم الإعدام فى ابنها ويبقى حفيدتها التعسة هذه على قيد الحياة

صباه بكاء لتقاسي وتعذب ؟ تمنى أن يرى مالك المدينة ، ويسأله عن الحكمة في ذلك إذا كانت هناك حكمة .

قالت العجوز وكأنها تقرأ أفكار (ميم) :

– لقد ذهبت إلى رجل وثيق الصلة بمالك المدينة ، وانحنيت وقبلت قدميه ، وبكيت كثيراً ورجوته أن يلتمس من مالك المدينة أن يلغى فينا نحن الاثنين حكم الإعدام ، ولكن مالك المدينة لم يستجب لهذا الرجاء وتركنا نعيش ونتعذب ! ثم نظرت إلى (ميم) نظرة حزينة وقالت :

– في هذه المدينة يا ولدى قد تكون الحياة نوعاً من العقاب !

فقال (ميم) وكأنه يحدث نفسه :

– ولماذا تعاقب سيدة طيبة مثلك وفتاة بريئة كهذه الفتاة ؟

– العقاب يا ولدى في هذه المدينة لا يكون لاقتراف أية جريمة ، المجرم قد لا يعاقب ، وقد يعاقب الأبرياء !

وانفجرت العجوز تبكى وحفيدتها تربت على ظهرها وتقبلها باكية ، فقام (ميم) وقبل يد العجوز وشكرها على كل ما فعلته من أجله ، ومد يده للفتاة فمدت إليه يدها وصافحته بحرارة ضاغطة على يده وعلى فمها ابتسامة عذبة ، واتجه نحو باب المنزل ، وهبط السلم ، والتفت خلفه فرأى العجوز وحفيدتها تشيعانه بنظراتهما حتى توارى عن الأنظار .

عندما دخل منزله ملأ حوض الحمام بالماء الدافئ ، شعر بألم شديد في ظهره عندما لمس الماء الأماكن المجروحة في جسده ، وكأن ناراً اشتعلت فيها ، لم يحتمل الألم فقفز من الماء وجفف جسمه بحذر ، فلطخت الفوطة بالدماء ،

ارتدى ملابسه وهبط إلى الدور الأرضي للمنزل ، وجلس على الكرسي الوحيد بالبهو ، شعر برغبة في التحدث مع أي إنسان ، فدق الجرس وأتى الخادم يجر ساقه وقال (لميم) :

– ماذا تريد ؟

فقال (ميم) :

– أريد أن أتحدث معك .

فقال الخادم :

– تحدث ، ولكن لا تطل الحديث ، لأنني مرتبط بموعد هام .

فأطرق (ميم) إلى الأرض لحظة ثم قال :

– لست أدرى هل أتحمل عذاب الدوران في الطاحونة كل يوم ؟ إنني أتألم ألماً شديداً من الصعب احتماله .

– لا حلاوة بلا نار !

– وأين هي تلك الحلاوة ؟

– ألا تحصل على رزقك ؟ ألا تأخذ نقوداً لدورانك في الطاحونة ؟

– أعطاني حارس الطاحونة عشرين قرشاً أمس ، واليوم أعطاني عشرة قروش فقط .

– لابد من وجود سبب لذلك ، الأجر في هذه المدينة على قدر العمل .

– لقد قدمت شكوى لمالك المدينة .

فقال الخادم بدهشة :

– شكوى ؟ مم تشكو ؟

- التمست من مالك المدينة أن يسمح لى بالذهاب إلى أية مدينة أخرى .

فاتسعت عينا الخادم وفغرفاه مندهشاً وقال :

- مدينة أخرى ؟ كيف خطرت ببالك هذه الفكرة الغريبة ؟

فقال (ميم) بصوت متهدج على وشك البكاء :

- منذ وجدت نفسى فى هذه المدينة وأنا فى عذاب مستديم لم أجد قادراً على احتماله .

- وهل تعرف مكاناً آخر تذهب إليه ؟

- كلا ، لا أعلم ، ولكننى على يقين من أن الحياة فى أى مكان آخر لن تكون فى بشاعة وقسوة الحياة فى هذه المدينة !

- ومن أين جاءك هذا اليقين ؟ من أين علمت أن هناك مدناً أخرى غير هذه المدينة ؟ أنا شخصياً لم أر سواها ولا علم لى بوجود غيرها ، إننا نعيش فيها إلى أن يحين موعد تنفيذ حكم الإعدام فينا .

فصاح (ميم) وقد احتقن وجهه من الغضب :

- ولماذا يحكم على جميع أهل المدينة بالإعدام وهم أبرياء ؟ لماذا ؟

فقال الخادم بكل هدوء :

- لكى يحل محلهم سكان جدد ، كل شخص يحكم عليه بالإعدام يحل محله شخص آخر أو عدة أشخاص فى بعض الأحيان ، ومالك المدينة يحب التغيير ، نحن دُمَى ، وهو الذى يصنع هذه الدمى ، يحب أن يرى فى المدينة دمى جديدة . فهو يصنع دمى ، ثم يعدمها ويصنع غيرها . إنه لا يحب الركود ، يحب رؤية الوجوه الجديدة . هذه هى رغبته ونحن جميعاً لا نملك

سوى السمع والطاعة ، فهو يملك المدينة وكل من فيها وما فيها ، وفى استطاعته أن يخسف بنا الأرض ويدمر كل ما فى المدينة بمجرد أن يضغط على أحد الأزرار ، ولذا فنحن نشكره على كل لحظة تمر بنا ونحن على قيد الحياة .

- فأطرق (ميم) للأرض لحظة مفكراً ثم نظر إلى الخادم وقال :

- قل لى : هل رأيت مالك المدينة ؟

فابتسم الخادم ، وحرك يديه قائلاً :

- ومن أنا حتى أرى مالك المدينة ؟ ما أنا إلا خادم بسيط !

- فقال (ميم) فى إصرار وتحد :

- أنا أريد أن أراه !

فقال الخادم وقد ارتعشت شفتاه وقطّب حاجبيه :

- أنت تريد أن ترى مالك المدينة ؟ ولماذا ؟

وتردد (ميم) بعض الوقت قبل أن يقول :

- هل لهذه المدينة مالك حقيقة ؟

فازدادت دهشة الخادم ، ولزم الصمت ، ثم جلس القرفصاء ، وظل ناظراً إلى (ميم) فترة غير قصيرة وكأنه ينظر إلى إنسان فقد عقله ، و(ميم) فى انتظار إجابته ثم قال :

- لم يخطر على بالى مطلقاً مثل هذا السؤال ، إذ لا يمكنى أن أتصور المدينة بلا مالك .

- من الذى يملك هذا المنزل ؟

- هو طبعاً ، إنه يملك كل ما فى المدينة ، وهو الذى بنى هذا المنزل ،

وكل ما فى المدينة من أبنية ، لولاه ما وجدت منزلاً يؤويك ، وهو كريم إلى أقصى حدود الكرم .

فقال (ميم) ساخرًا :

– كريم إلى أقصى حدود الكرم !

فقال الخادم فى إصرار :

– هذا لا شك فيه ، هل نسيت أنه قدم لك الطعام والسكن بلا مقابل عندما وجدت نفسك وحيداً غريباً فى المدينة لا تحكم على قرش واحد فى جيبك ؟

– لم أكن أرغب فى الحضور إلى هذه المدينة ، وكنت فى غنى عن كرمه هذا . ولا تنس أنى وجميع من فى المدينة محكوم علينا بالإعدام . ومنذ وجدت نفسى هنا وأنا فى عذاب متصل . هل أحضرنى إلى هذه المدينة ليعذبنى ويتلذذ بعذابى ؟ أنا فى عذاب أليم سوف ينتهى بالإعدام ! هل يوجد ما هو أقسى من ذلك ؟

فصاح الخادم غاضباً :

– عار عليك أن تنطق بهذه الكلمات ! نحن جميعاً دمى صنعنا بنفسه ، وبنى لنا هذه المدينة .

فصاح (ميم) بدوره قائلاً :

– ولماذا يعذبنا ؟ أنا أتعذب ، انظر إلى ظهرى .

وكشف عن ظهره فبدت الجروح الدامية من أثر السياط ، وواصل حديثه قائلاً :

– هل فى طاقتى احتمال كل هذا العذاب كل يوم . كل يوم ، من أجل قروش قليلة أمسك بها رمقى ؟

فوضع الخادم فخذيه على الأرض متربعاً ونظر إلى وجه (ميم) طويلاً وقال :

– يكفيه كرماً وتسامحاً أنه لم يعاقبك على هذه الكلمات البلهاء التى نطقت بها الآن !

قال (ميم) :

– وهل يوجد عذاب أقسى من ضرب السياط والدوران فى الطاحونة كل يوم ؟

فقال الخادم بهدوء :

– يكفى أنه منحك نعمة البصر والسمع والقدرة على السير والكلام !

– ولماذا يعاقب الأبرياء ؟ لماذا يحرم فتاة بريئة مسكينة القدرة على السمع والكلام ؟ لماذا يفجع عجوزاً فى ابنها الذى نفذ فيه حكم الإعدام ؟ لماذا يحكم بإعدام شاعر صغير السن يحب جميع البشر ؟ لماذا يزلزل أرض المدينة لتنفيذ حكم الإعدام فى الأطفال والنساء والرجال الأبرياء ؟ لماذا يقتلنا جميعاً ؟

– ولماذا توجه إلىّ كل هذه الأسئلة ؟ أتظننى مكتب استعلامات ؟ اذهب إلى مكتب الاستعلامات واستفهم عن كل ما تريد .

وقام الخادم ، وأصلح هندامه وقال :

– كدت تنسينى موعدى بسبب ثرثرتك . سأتركك الآن ، وداعاً .

واختفى الخادم داخل المنزل ولا يدرى (ميم) أين ذهب ؟ قام يبحث عنه

فى جميع أنحاء المنزل فلم يجد له أثراً . وتعجب أين ذهب مادام لم يخرج من باب المنزل؟ إن باب المنزل مغلق ، ولم يفتح فأين اختفى ذلك الخادم؟ وما ذلك الموعد الذى يحرص عليه كل هذا الحرص؟ أعاد (ميم) تفتيش كل ركن من أركان المنزل فلم يجده ! لم يشغل (ميم) نفسه كثيراً بهذا الأمر ، إذ موعد العشاء قد حان و « واو » فى انتظاره ، فأسرع بالخروج ، وانطلق يحث الخطى بأقصى سرعته نحو المطعم .

٩

عندما دخل (ميم) المطعم وجد « واو » جالساً أمام منضدة فى أقصى اليمين ، فأسرع نحوه وحياه ، وجلس على الكرسى المقابل له . قال له واو :

— تأخرت كثيرا ، لقد تناولت عشائى منذ فترة طويلة ، وكنت على وشك الانصراف يائساً من حضورك ، لماذا تأخرت؟ ألم تشعر بالجوع؟

فقال (ميم) مكتئباً :

— أشعر بالخوف .

— مم تخاف؟

— هذه المدينة .

فى هذه اللحظة أقبلت فتاة لم يرها (ميم) من قبل ترتدى زى فتيات المطعم ذات وجه صبوح وعينين سوداوين وقوام رائع ، قالت (لميم) دون أن تنظر إليه :

— ماذا تريد العشاء؟

بهره جمالها وود لو يظل ناظراً إليها إلى الأبد ، ولكنه قاوم هذه الرغبة ، وغض من بصره وقال :

— أى شىء فى حدود خمسة قروش .

فانصرفت الفتاة وعادت سريعاً وفى يدها طبق به قطعة خبز صغيرة وضعته أمام (ميم) وانصرفت ، ظل (ميم) ينتظر باقى الطعام ، ونظرت الفتاة بطرف عينيها ، فوجدته لم يمد يده إلى الخبز ، فأقبلت نحوه وقالت :

— هذا هو كل ما يمكنى تقديمه لك الليلة فى حدود خمسة قروش .

— فقال (ميم) مندهشاً :

— هذه القطعة الصغيرة من الخبز بخمسة قروش؟ ماذا حدث؟

قالت الفتاة :

— ارتفعت الأسعار ، الطعام التى تناولته هنا بالأمس أصبح ثمنه الآن عشرين قرشاً !

انصرفت الفتاة وظل (ميم) ناظراً إلى قطعة الخبز وقال له (واو) :

— لماذا لا تأكل؟

فقال (ميم) وكأنه يحدث نفسه :

— قطعة خبز جاف بخمسة قروش؟

فقال (واو) :

— وماذا نصنع؟ لا حيلة لنا فى ذلك ! لقد ارتفعت الأسعار ، عليك الآن أن تدور فى الطاحونة مدة أطول لتحصل على أجر أعلى !

شعر (ميم) بحزن عميق ويأس قاتل ومد يده ببطء فتناول قطعة الخبز وأكلها ، وظل مطرقاً للأرض ، ثم أدار بصره فى أنحاء المطعم ، فوجد جميع الزبائن منهمكين فى تناول أشهى الأطعمة التى سال لها لعابه ، أمامهم الدجاج والجمبرى المشوى وكميات هائلة من اللحم وشتى أنواع الخضر والفاكهة ، ثم عاد بصره ليستقر فى طبقه الخالى ، فقال له (واو) :

–كان يسعدنى أن أدفع لك ثمن ما تشتهى من طعام ، ولكن قوانين المدينة تحتم ألا يأكل الإنسان إلا من ثمرة عمله ، هيا بنا نغادر المطعم ، فلا داعى للجلوس هنا ما دمنا انتهينا من تناول الطعام.

خرجا من المطعم وسارا بضع خطوات ، قال (ميم) وكأنه يحدث نفسه :

– سأشكو هذا إلى مالك المدينة ، لاشك أنه لا يرضيه أن أدور فى الطاحونة بعشرة أو عشرين قرشاً فى الوقت الذى يصبح فيه ثمن قطعة صغيرة من الخبز خمسة قروش . هل ينبغى أن أظل دائراً فى الطاحونة طوال الليل والنهار لأحصل على ثمن وجبة غذاء واحدة ؟ وكيف أدفع إيجار المنزل ؟ وإذا احتجت لقميص أو بدلة فماذا أصنع ؟ كنت أفكر فى شراء قميص بدلاً من ذلك القميص الملطخ بالدماء .

قال (واو) مبتسماً :

– لا تفكر فى ذلك الآن ، لابد أنهم سيرفعون أجر الدوران فى الطاحونة . قد يصبح أجرك ثلاثة أو أربعة جنيهات بدلاً من العشرين قرشاً ، من يدرى ؟

فتمتم (ميم) قائلاً :

– لابد أن أشكو هذا لمالك المدينة .

قال (واو) مبتسماً :

– لو أن مالك المدينة غير راض عن ارتفاع الأسعار لما ارتفعت .

– أنا لا أصدق ذلك . لقد أخبرنى الخادم فى منزلى أن مالك المدينة عطوف ، ودليله على ذلك أن المالك سمح لى بالطعام والمأوى بلا مقابل فى بدء حضورى لهذه المدينة .

فضحك (واو) ضحكة عالية وقال ساخراً :

– الخادم قال لك ذلك ، بعد كل هذا العذاب الذى لمسته بنفسك فى المدينة ؟ يكفى أن كل من فيها محكوم عليهم بالإعدام ، ولا أحد يدرى موعد تنفيذ هذا الحكم ، كل شخص هنا يتوقع الإعدام فى أية لحظة .

وأردف قائلاً بحزن :

– ليتنى ما عرفت موعدى ! لقد ازددت شقاء ، هيا معى إلى منزلى .

سار معاً نحو منزل (واو) ، وفى أثناء سيرهما استرعى انتباه (ميم) واجهة إحدى دور السينما تتلألأ بالأضواء المتحركة تعلن عن عرض فيلم بعنوان « الجانب الآخر من المدينة » وتمنى فى أعماق نفسه لو يستطيع مشاهدة هذا الفيلم ليرفه عن نفسه . ولكنه تذكر أن كل قرش فى جيبه ينبغى الحرص عليه لتناول الطعام ودفع إيجار المنزل . ثم رأى إحدى واجهات المتاجر وقد عرض فيها بتنسيق بديع شتى أنواع السلع والتحف الثمينة وعند كل سلعة بطاقة تحمل ثمنها ، استرعى نظره جهاز تليفزيون أنيق أصفر اللون تمنى أن يشتريه ليأتنس به فى وحدته ، فركز بصره على البطاقة فوجد أنه لكى يدبر ثمنه لابد أن يدور فى الطاحونة يومياً لمدة خمسين عاماً دون أن يصرف قرشاً واحداً من أجر الدوران

فى أى غرض آخر وأقبلت نحوهما ثلاث فتيات جميلات سائرات فى الاتجاه المضاد على الإفريز نفسه . نظر (ميم) إليهن ليمتع نظره بهذا الجمال ، ولكنهن أشحن وجوههن عنه ، ولم يعد يؤلمه مثل هذا التصرف فلقد أصبح معتاداً عليه .

كان النسيم فى هذا المساء كعادته عاطراً برائحة الورود والياسمين التى تعتبر شيئاً مميزاً لهذا الشارع الأنيق الجميل ، ولمحت عينا (ميم) فتاة جميلة ذات شعر كستنائى مرسل تعزف على جيتار فى شرفة منزلها ، ولما رأته هو ورفيقه (واو) أجفلت وأسرعت بالاختفاء داخل منزلها .

وعندما اقترب (ميم) ورفيقه من ميدان الشاعر ، أبدى (ميم) رغبته فى الجلوس بعض الوقت بجوار التمثال . كانت جميع المقاعد مشغولة ما عدا دكة خشبية يجلس عليها رجل بمفرده وبجواره مساحة تسع لجلوس اثنين . جلس (ميم) ورفيقه بجوار ذلك الرجل ، وتوقع (ميم) أن ينفر منهما ويترك لهما الدكة ويسرع بالهرب ، ولكنه ظل جالساً فى مكانه بجوارهما وكأنه لا يشعر بوجودهما ، كان كهلاً غير حليق الذقن ذا أنف كبير وشارب كث وعينين نصف مغمضتين يرتدى بدلة حمراء وقميصًا أبيض وبلا رباط عنق . قال (ميم) لرفيقه (واو) :

– تحيرنى أشياء كثيرة .

– مثل ماذا ؟

– لست أدرى كيف جئت إلى هذه المدينة ؟ وما ذلك القطار الذى أسمع صفيره من خلال البالوعة عندما يلقون فيها الذين نفذ فيهم حكم الإعدام ، وما مصير تلك الجثث التى يلقونها فى البالوعة . وما لك المدينة هل هو خيِّر كما قال لى الخادم أو هو قاس ؟ وإذا كان خيِّراً فلماذا يعذب الناس كل هذا

العذاب ؟ وهل هو الذى يحركنا كما قلت لى أو نحن الذين نحرك أنفسنا ؟ وإذا كان هو الذى يحركنا كما تقول فلماذا يحاسبنا على أعمالنا ؟ هذه أشياء تحيرنى .

– هل سمعت صوت قطار ينبعث من البالوعة ؟

– نعم ، سمعته بوضوح .

– شىء عجيب ! يبدو أن هذا الصوت لم يسمعه غيرك .

– ليس هذا هو المهم ، المهم فى نظرى لماذا يعذبنا ؟

قال (واو) :

– يبدو أن هذه الأفكار تلح عليك إلحاحاً شديداً . قلت لك : إنه يعذبنا ، ليشعرنا بوجوده ، ويشعرنا نحن أيضا بوجودنا .

– أنا غير مقتنع بهذا الرأى .

– وماذا ترى أنت ؟

– لست أدرى !

وهنا تدخل الرجل الجالس على يسار ميم قائلاً :

– مالك المدينة لا هو بالخيِّر ولا بالشرير .

فالتفت إليه (ميم) وقال :

– ماذا تعنى بقولك ؟ هل يوجد غير الخير والشر ؟

فقال الرجل وهو يعبث بشاربه الكثيف :

– نعم ، يوجد العدم .

قال (ميم) :

– ماذا تعنى بذلك ؟

– لا مالك لهذه المدينة .

فقال (ميم) في فزع :

– لا مالك لهذه المدينة ؟

والتفت (ميم) إلى رفيقه (واو) الجالس على يمينه وكأنه يستنجد به ويحثه على إبداء رأيه ، ولكن (واو) ظل صامتاً مطرقاً للأرض . قال (ميم) للرجل الكهل :

– سمعت أن لهذه المدينة مالكاً هو الذي بناها وهو الذي ينفق عليها ، وأننا جميعا دمى من صنعه هو . هو الذي يحركنا ، وهو الذي يجعلنا نحزن أو نفرح ، وهو الذي حكم على جميع سكان هذه المدينة بالإعدام !

قال الكهل وهو لا يزال مطرقاً للأرض يعبث بشاربه :

– لا تصدق شيئاً من تلك الأكاذيب ، لقد بحثت عنه في كل ركن من أركان المدينة فلم أعثر له على أثر ! لو كان للمدينة مالك كما يزعمون لرأيناه ، أو رآه ولو فرد واحد من أهل المدينة على الأقل ، كل ما سمعناه عن مالك المدينة مجرد أساطير لا يستطيع أحد أن يبرهن على صحتها . كيف تقتنع بوجود من لا تراه .

في هذه اللحظة هب نسيم عليل صافح وجه (ميم) فقال للكهل :

– هل شعرت بهذا النسيم الذي هب الآن ؟

– نعم شعرت . أتظنني عديم الإحساس ؟

– لا أقصد أنك عديم الإحساس . كل ما يعنى أنك شعرت بوجود النسيم .

– نعم . شعرت به طبعاً .

– ولكنك لم تره ، هل رأيت النسيم ؟

فقال الكهل بعد لحظة تفكير :

– لم أره ، ولكنى أحسست به . أحسست به حاسة من حواسى ، وهى حاسة اللمس ، ولكن مالك المدينة لم يشعرنى بوجوده ولو عن طريق أية حاسة من الحواس .

وهنا تدخل (واو) قائلاً :

– أما عن وجود مالك للمدينة فهذا لا شك فيه ، لا يمكن أن تكون المدينة بلا مالك . ولكن الذى يحير رفيقى هذا : هل مالكُ المدينة عطوفٌ محب للخير أو قاسٍ يهوى العذاب ؟

قال الكهل :

– لو كان لهذه المدينة مالك يسيطر عليها كما يزعمون لما سمح بكل هذا العذاب والاضطراب ! الأمور تسير عشوائياً بلا تفكير أو تخطيط ، هل تعرف ذلك المبنى الكبير الذى عند نهاية الشارع المسمى « بيت الشكاوى » ؟ مئات من أهل المدينة الشاكين يرحون إليه يومياً لتقديم شكاواهم التى تفتت الأكباد ، ولم أسمع طوال حياتى أنه استجاب لشكوى واحدة ! وهذا لسبب بسيط : ليس للمدينة مالك يطلع على تلك الشكاوى . إنه وهم كبير .

قال (واو) وهو يهم بالقيام :

– أنا لا أوافقك على ذلك ، أنا متيقن من وجود مالك للمدينة .

والتفت إلى (ميم) قائلاً :

– هيا بنا .

– قام (ميم) ورفيقه وتركا الكهل جالساً بمفرده على الدكة يعبث بشاربه . وبعد أن سارا معاً بضع خطوات قال (ميم) :

– أشعر بتعب وإرهاق شديد ، وسأقوم غداً من نومي مبكراً ، لأدور في الطاحونة ، وأفضّل أن أذهب إلى منزلي ، لأنال قسطا من الراحة .

تصافحا وافترقا وسار كل في طريقه . وعندما وصل (ميم) إلى منزله لم يجد الخادم ، فدخل غرفة النوم وتعجب عندما وجد آلة تليفون على المنضدة بجوار السرير وبجوارها ورقة . اختطف (ميم) الورقة ، ليقرأها ، فوجد فيها سطراً واحداً يقول : « تم تركيب آلة تليفون بمنزلك بناء على أمر من مالك المدينة ! » . فرح (ميم) لوجود تليفون بمنزله على الرغم من عدم معرفته لأي إنسان في المدينة يمكنه الاتصال به تليفونياً ، ولكنه شعر بأنه لم يعد وحيداً . رفع السماعة ووضعها على أذنه وفرح عندما سمع أزيزاً كما يفرح الطفل بلعبة جديدة . ثم وضع السماعة في موضعها ، وخلع حلته ، ولبس المنامة ، وألقى بنفسه فوق السرير ، ونظر إلى آلة التليفون ، ثم أغمض عينيه ونام .

صحا (ميم) من نومه مرعوباً في نحو السابعة صباحاً على صوت رنين جرس التليفون ، وتعجب . إنه لا يعرف أحداً ولا أحد يعرف رقم تليفونه ، فمن الذي يتصل به في هذه الساعة ؟ التقط السماعة وقال :

– هالو .

فسمع صوت رجل يقول :

– أنت (ميم نون) ، أليس كذلك ؟

– بلى ، أنا (ميم نون) . من أنت ؟

– أنا إنسان يحب أن يراك ، فمتى أراك ؟

– عندما أنتهي من الدوران في الطاحونة بعد ظهر اليوم .

– منزل رقم ١٣٦ بالشارع ، سأنتظرك بعد أن تنتهي مباشرة من الدوران في الطاحونة .

– هل يمكنني أن أعرف من الذي يكلمني ؟

لم يتلق (ميم) رداً على سؤاله ، فلقد وضع المتكلم السماعة ، وأخذ (ميم) يفكر ، ترى من يكون هذا الشخص ؟ وماذا يريد منه ؟ وكيف عرفه وعرف رقم تليفونه ؟ ! أسرع بارتداء ملابسه ، وبينما هو يهم بالخروج من الغرفة وجد الخادم واقفاً بجوار الباب . قال الخادم :

– أرجو أن تكون مسروراً بتركيب التليفون . هل لاحظت وجوده ؟

فقال (ميم) :

– واتصل بي الآن شخص لا أعرفه دعاني لزيارته في منزله .

– ومتى تراه ؟

– بعد الانتهاء من الدوران في الطاحونة . لست أدري ماذا يريد مني ؟

قال الخادم وهو يبتعد عنه :

– ستعرف كل شيء عندما تراه .

هم (ميم) بالخروج من المنزل ، ولكنه تذكر شيئاً ، فعاد ونادى الخادم وقال له :

– لقد ارتفعت الأسعار فى المطعم ، ولم تعد نقودى كافية ، لست أدرى ماذا أفعل ؟ سأموت جوعاً !

فقال الخادم :

– ولماذا لا تغير هذا المطعم ؟ توجد مطاعم أخرى أقل منه درجة وأرخص منه .

– وهل فى المدينة مطاعم غيره ؟

فقال الخادم مبتسماً :

– توجد مئات المطاعم . اذهب إلى المطعم فى المبنى رقم ٤٦١٢ فى الشارع ، لقد ارتفعت أسعاره هو أيضاً بالأمس ، ولكنها لا تزال رخيصة نسبياً .

انطلق (ميم) بأقصى سرعته نحو هذا المطعم الذى ذكره الخادم . كان مطعماً صغيراً ولكنه جميل وأنيق ، نوافذه ذات زجاج أخضر ومغطاة بستائر زرقاء تجعل الضوء فيه خافتاً مريحاً للأعصاب ، تتناثر فى أنحائه أباجورات خضراء .

كان المطعم خالياً من الرواد عندما دخله (ميم) ، جلس عند منضدة بجوار النافذة العريضة المطلة على الشارع ، ولم تكن الستائر تسمح برؤية واضحة لما يحدث فى الطريق ، كان سير الناس على الإفريز الملاصق للمطعم لا ينقطع ، ولكن (ميم) لم يكن يرى المارة إلا كظلال غير واضحة المعالم .

أقبلت نحو (ميم) فتاة طويلة نحيلة رائعة الجمال ترتدى ثوباً أزرق ذا ياقة ناصعة البياض وعلى رأسها قلنسوة بيضاء تشبه تلك التى ترتديها الممرضات بالمستشفيات . كان فى يد الفتاة نوتة صغيرة الحجم وقلم رصاص .

سألت (ميم) : ماذا يريد لفطوره فقال : إنه يرغب فى أى طعام لا يكلفه أكثر من خمسة قروش ! تركته الفتاة وعادت بعد قليل وفى يدها صينية عليها طبق به ثلاث بيضات مقلية وقطعة خبز وفنجان من الشاى ، لم يصدق أن هذا الطعام له حتى وضعته الفتاة أمامه على المنضدة وابتعدت عنه ، لم يكن يتوقع أن يقدم له هذا الطعام الشهى بخمسة قروش ، فشعر بفرحة كفرحة الطفل عندما تقدم له هدية كان يحلم بها ، وأقبل على الطعام بفرحه فى معدته ، وكانت تنساب إلى أذنيه فى أثناء تناول الطعام موسيقى شجية هادئة تمنى لو يظل منصتاً لها إلى الأبد ، ولكنه انتهى من غدائه وقد حان موعد دورانه فى الطاحونة . فوضع على المنضدة خمسة قروش ، وأسرع نحو الطاحونة والموسيقى العذبة لا تزال ترن فى أذنيه .

كان الدوران فى الطاحونة فى هذا اليوم شديد الوطأة على (ميم) ، فالأسواط كانت تنهال على جروح فى جسده لم تلتئم بعد ، فكر فى عدم إتمام الدوران ، فالموت جوعاً أصبح فى نظره أقل قسوة من هذا العذاب . ثم فكر فى أن يقدم التماساً إلى مالك المدينة يطلب منه تنفيذ حكم الإعدام فيه ، ليستريح من هذه الآلام التى لم يعد قادراً على تحملها ! ولكن عدم الاستجابة لشكواه السابقة جعله يشك فى إمكان الاستجابة لهذا الالتماس ، لم يستطع السيطرة على مشاعره فأخذ يبكى فى صمت . فى هذه اللحظة هوى عامل الطاحونة بالسوط على ظهره ، فانفجر (ميم) يبكى بصوت مسموع . وتجمع الأطفال عند باب الطاحونة يضحكون من هذا الرجل الذى يدور فى الطاحونة وهو يبكى بصوت متشنج ، ثم تجمع عدد آخر من النساء والرجال والأطفال . أزاحوا الأطفال إلى

الخلف ، واحتلوا أماكنهم ، واشرأبوا بأعناقهم ناظرين إلى (ميم) .

حانت من (ميم) فى أثناء دورانه التفاتة نحو هؤلاء المتفرجين ، فوجدهم يضحكون كالأطفال . تعجب (ميم) من ضحكهم وقال لنفسه : « لماذا يضحك الناس فى هذه المدينة ويسخرون من إنسان يتألم ؟ هذه الضحكات أشد إيلامًا من السياط التى تنهال على جسدى ! » . لمح بين المتفرجين فتاة جميلة يعرفها ، إنها فتاة المطعم الأولى التى كان قد طلب منها أن تؤنس وحدته وتعجب لوقوفها بين جموع المتفرجين ، ولكنها لم تكن تضحك مثلهم ، بل كانت تبكى ، وبرز رجل عملاق عريض الفكين والمنكبين استغل الموقف ، وأخذ يجمع من المتفرجين نقوداً ثمناً لفرجتهم على (ميم) والجميع يدفعون له النقود عن طيب خاطر .

لما انتهت فترة الدوران أعطاه عامل الطاحونة عشرين قرشاً ، وخرج (ميم) يترنح كالسكران . لم يستطع السيطرة على دموعه التى ظلت تنساب على خديه وقد فقد حاسة الاتجاه ! لم يعد يدرى أى الاتجاهين يؤدى إلى منزله ؟ فسار على غير هدى . ولاحظ شيئاً عجيباً . لم يعد الناس يشيحون وجوههم عنه ، بل كان الجميع يبتسمون له ، وتعجب : لماذا حدث ذلك ؟

وجد نفسه أمام ميدان الشاعر ، فى هذه اللحظة أدرك الاتجاه الصحيح ، فأسرع نحو منزله . وما كاد يسير بضع خطوات فى هذا الاتجاه حتى تذكر موعده مع الرجل المجهول الذى تحدث معه بالتليفون ، فسار فى الاتجاه المضاد نحو منزل ذلك الرجل . ظل طوال الطريق يفكر فى هذه المحادثة التليفونية الغريبة ، ماذا يريد منه هذا الرجل ؟ وهل تم تركيب التليفون فى منزله خصيصاً لهذه المحادثة ؟

ظل (ميم) يسير فى الشارع متتبعاً أرقام المساكن ، وأخيراً وجد نفسه أمام الرقم المطلوب . كان منزلاً من طابقين ، أزرق اللون ذا نوافذ بيضاء وحديقة ذات أشجار عالية تكاد تحجبه عن الناظر إليه من الشارع . وقف (ميم) أمام باب الحديقة يبحث عن زر جرس الباب ليضغط عليه . وقبل أن يهتدى إلى الزر وجد باب الحديقة يفتح وفى انتظاره خلف الباب فتاة فى نحو التاسعة عشرة ممشوقة القوام ، ذات بشرة بيضاء وشعر أسود وعينين سوداوين وأنف دقيق وشفتين رقيقتين . نظر إليها مبهوراً بجمالها ، انحنت له قليلاً وقالت :

— تفضل ، إنه فى انتظارك .

قادته الفتاة عبر ممر طويل فى الحديقة تحف به الأشجار على الجانبين وتتلاقى أغصانها ، وتتشابك من أعلى مما جعل الممر أشبه بالنفق ، ثم صعدا معاً سلماً به سبع درجات . كان باب المنزل مفتوحاً فأشارت إليه ليدخل ، فدخل ودخلت بعده . وجد (ميم) نفسه فى بهو متسع يكاد يكون خالياً من الأثاث ، فى ركنه الأيمن سلم خشبى . طلبت منه الفتاة أن يتبعها فسارت أمامه وبدأت تصعد السلم وهو خلفها يجر ساقيه بمشقة ، ظلا يصعدان السلم مدة طويلة وبدا السلم وكأنه لا نهاية له ، وتعجب (ميم) ، كيف يكون السلم بهذا الارتفاع على حين أن المنزل كما رآه من الخارج لا يرتفع لأكثر من طابقين عاديين ؟

وبعد مدة طويلة وصلا معا إلى غرفة تبدو وكأنها معلقة فى الفضاء ، طلبت منه الفتاة أن يدخل الغرفة ، فدخل ، ثم أغلقت الباب من الخارج . وسمع (ميم) وقع أقدامها تبتعد وهى تهبط السلم مسرعة حتى تلاشى ، لم يكن بالغرفة سوى كرسيين يجلس على أحدهما رجل فى نحو الخمسين أقرب إلى البدانة مستدير

الوجه كثيف الحاجبين ذو عينين خضراوين. أشار (لميم) بيده ليجلس على الكرسي الآخر فجلس، وساد الصمت فترة من الزمن وظل الرجل المجهول مطرق للأرض حتى خيل (لميم) أنه أمام تمثال لن ينطق، وبدأ يشعر بالخوف.

وأخيراً نظر الرجل إلى (ميم) بعينين ثاقبتين وقال:

– سمعتك تتكلم عن أشياء لا تفهمها في هذه المدينة!

فقال (ميم) متلعثماً وقد شعر بقلبه يدق دقات سريعة:

– أنا لا أفهم شيئاً منذ وجدت نفسي هنا.

قال الرجل:

– سمعتك يوم تنفيذ حكم الإعدام في الشاعر تبكي وتقول: «ملعونة تلك المدينة التي ينفذ فيها حكم الإعدام في شاعر رقيق صغير السن».

فقال (ميم) في إصرار وقد تجهم وجهه:

– نعم، ملعونة تلك المدينة ألف لعنة! لقد قلت ومازلت مصرًّا على رأيي. إنها مدينة بشعة.

فأطرق الرجل للأرض فترة ثم رفع رأسه وقال:

– أنا من المقربين إلى مالك المدينة، وأقضي معه أمسيات وأعلم عنه أشياء كثيرة.

فصاح (ميم) بانفعال:

– أين مالك المدينة هذا؟ أريد أن أراه، لأقول له رأيي فيه بصراحة: هل أقام تلك المدينة ليتلذذ بعذاب أهلها؟ لماذا يعذبنا كل هذا العذاب؟

سأذهب إليه وألتمس منه أن يسرع بتنفيذ حكم الإعدام فيَّ، فلقد أصبحت الحياة هنا فوق احتمالي!

فابتسم الرجل وقال:

– لا تغضب، كن هادئاً، إن مالك المدينة لا يحب الذين يغضبون.

فصاح (ميم) في ثورة:

– فليغضب كما يشاء، إنه لا يعرف الرحمة.

قال الرجل بهدوء:

– أنت لا تعرف شيئاً عن مالك المدينة، إنه عطوف حنون.

قال (ميم) وقد نفرت شرايين رقبته من الغضب.

– أنا أعرف السبب الذي دفعه لتنفيذ حكم الإعدام في الشاعر.

– قال الرجل مبتسماً:

– ما الذي تعرفه؟

– كان يحقد على الشاعر، ويغار منه.

– ولماذا يحقد عليه ويغار منه؟

– لأن كل من في المدينة كان يحب الشاعر ويعجب به.

– كل من في المدينة دمى صنعها مالك المدينة، والشاعر لم يكن سوى دمية من هذه الدمى، فهل يحقد الصانع على دمية من صنع يديه ويغار منها؟ إذا رأيت تمثالاً جميلاً أو منزلاً رائع البناء أو رسماً آية في الإبداع، فهل التمثال أو المنزل أو الرسم هي الجديرة بالمدح والثناء أو الذي صنع التمثال وصمم المنزل وأقامه أو رسم الصورة؟

– الذى صنع التمثال أو صمم البناء أو رسم الصورة هو الجدير بالمدح بطبيعة الحال .

– إن مالك المدينة يسعده أن تكون دميته موضع إعجاب الجميع ، إذ فى هذا إعجاب به وتقدير له ، لقد كان الشاعر دمية جيدة الصنع يعتز ويفخر بها مالك المدينة ، كان مالك المدينة يحب الشاعر حبًّا جمًّا .

– إذا كان الأمر كذلك فلماذا نفذ فيه حكم الإعدام وهو لا يزال صبيًّا ؟

– من العسير على عقل الدمية أن يرقى إلى مستوى عقل صانعها ليفهم دوافعه وأسراره إن عقل الدمية يعجز عن تفسير الأشياء التى فوق طاقته ، وإذا حطّم مالك المدينة دمية جميلة من صنع يديه فلا لوم عليه ! هو الذى صنعها وهو الذى حطّمها !

فاغرورقت عينا (ميم) بالدموع وقال :

– عندما تدب الحياة فى الدمية وتشعر بوجودها ، ويكون وجودها سببًا فى إسعاد أهل المدينة ، لا يصبح من حق صانعها أن يحطمها ! أىُّ ذنب جناه الشاعر الصغير ، لينفذ فيه حكم الإعدام ؟

– ليس من الضرورى أن يرتكب ذنبًا ، ليحكم عليه بالإعدام ، كل أهل المدينة محكوم عليهم بالإعدام بلا ذنب جنوه !

– ومن الذى حكم بالإعدام على كل سكان المدينة بلا ذنب جنوه ؟

– مالك المدينة .

– ولماذا صنعنا ؟ لماذا صنع كل هؤلاء المساكين ؟ هل صنعهم ليحطمهم ؟ هل صنعنا ليؤنس وحدته ؟ وما دمنا مجرد دمى صنعها ليلهو بها ويؤنس وحدته فلماذا جعلنا نحس ونتألم ونخاف ونحزن ؟ لماذا لم يجعلنا آلات صماء لا تشعر بالألم والعذاب ؟ لماذا يعذبنا ثم يحطمنا ؟ لا يفعل ذلك سوى شرير !

فأطرق الرجل المجهول نحو الأرض لحظة ، ثم رفع رأسه وقال بهدوء :

– لا تكن متسرعًا فى أحكامك ، فمالك المدينة لا يحب المتسرعين ، وهو ليس فى حاجة لمن يؤنس وحدته .

صاح (ميم) قائلاً :

– وماذا يهمنى إذا أحبنى أو كرهنى ؟ فليكرهنى وليفذ فىّ حكم الإعدام فى هذه اللحظة فهذا أقصى ما أتمناه ! لقد كرهت الحياة فى هذه المدينة الرهيبة البشعة ، إننى أتعذب عذابًا لم تعد لى طاقة على احتماله .

وانفجر باكيًا وضم أصابعه فى قبضة قوية ولوح بها صائحًا :

– هل صنعنى ليعذبنى ؟ أنا لم أرتكب ذنبًا لأعذب كل هذا العذاب !

وفى حركة عصبية خلع سترته فبدا القميص غارقًا فى الدماء وصاح قائلاً :

– أى ذنب جنيته أستحق من أجله أن أدور فى الطاحونة ويُلهب جسدى بالسوط كل يوم وتسيل منه كل هذه الدماء ؟

فقال الرجل المجهول فى هدوء :

– ألا تأخذ أجرًا على ذلك ؟

– وهل من الضرورى أن أعذب كل هذا العذاب لقاء أجر لا يكاد يمسك رمقى ؟

– أتيت إلى هذه المدينة لتبحث عن الحقيقة ، أليس كذلك ؟

– قال (ميم) ساخرًا ؟

– بلى ، علمت من مكتب الاستعلامات أن مهمتى البحث عن الحقيقة ، لست أدرى ما تلك الحقيقة التى أتيت لأبحث عنها ؟

– أطرق الرجل المجهول إلى الأرض وضمم وكأنه يحدث نفسه :

– هذا هو سر عذابك .

لم يسمع (ميم) من تلك الجملة سوى كلمة « عذابك » فواصل حديثه قائلا :

– وعلاوة على هذا العذاب الجسمانى فإنى أرزح تحت وطأة عذاب نفسى قاتل . منذ أيام وأنا أشعر بالمذلة والمهانة بلا ذنب جنيته ، لماذا يشيح وجهه عنى كل من يرانى ؟ أى ذنب جنيته أعذب من أجله كل هذا العذاب ؟

قال الرجل مبتسماً :

– ولكنى أعلم أن أهل المدينة استقبلوك بالمودة والترحاب فما الذى جعلهم يشيحون وجوههم عنك ؟

فأطرق (ميم) للأرض وقال بصوت حزين :

– فى لحظة من لحظات الوحدة والضيق طلبت من الفتاة التى قدمت لى الطعام فى المطعم أن تؤنس وحدتى ، لم أكن أضمر لها أى سوء ، ولم تخطر ببالى أية نية سيئة ، فهل بسبب كلمة قلتها بحسن نية فى لحظة ضيق يشيح كل من فى المدينة وجوههم عنى حتى الأطفال ؟

لم يستطع (ميم) أن يسيطر على مشاعره فأجهش بالبكاء وأخذ جسده يرتجف . وضع الرجل المجهول يده على رأس (ميم) وقال :

– ولكن ألم تلاحظ عند قدومك عندى اليوم ، بعد خروجك من

الطاحونة ، أن الناس لم يشيحوا وجوههم عنك ؟

قال (ميم) وهو يمسح دموعه بيديه :

– لاحظت ذلك . ولست أدرى لماذا حدث ؟

قال الرجل مبتسماً :

– فى أثناء دورانك فى الطاحونة ألم تلاحظ فتاة المطعم ضمن المتفرجين عليك ؟

قال (ميم) :

– لاحظت ذلك . كان الجميع يضحكون عندما أبكى ، لست أدرى لماذا يضحك الناس فى هذه المدينة لرؤية إنسان يتألم أشد الألم ويتحمل أقسى العذاب !

– ولكن فتاة المطعم لم تكن تضحك . أليس كذلك ؟

– بلى . لاحظت ذلك .

– كانت تبكى ، ومن تقاليد هذه المدينة أن يُغفر ذنب أى مذنب إذا بكى من أجله المجنى عليه .

– أمن أجل ذلك لم يعد الناس ينفرون منى لأنها بكت من أجلى ؟

– أجل لن ينفر منك أحد بعد اليوم إلا إذا اقترفت ذنباً آخر لا يتسم بالأمانة والشرف . لا مكان فى هذه المدينة لمن يخرج عن قواعد الخلق الكريم .

فأطرق (ميم) للأرض فترة من الزمن مفكراً وأمسك رأسه بيديه ، ثم رفع رأسه ونظر إلى الرجل المجهول وقال :

– لماذا طلبت منى أن أحضر لمقابلتك ؟

فابتسم الرجل وقال :

– ليدور بيننا هذا الحوار ، أردت أن أخفف عنك وطأة الوحدة .

– أشكرك على ذلك ، ويسرني أن أعرف اسمك .

– يكفي أن تعرف أنني من المقربين لمالك المدينة كما أخبرتك .

أطرق (ميم) إلى الأرض وتردد قليلاً قبل أن يقول :

– هل أستطيع أن ترتب لي لقاء مع مالك المدينة ؟ أريد أن أراه .

– لا يمكنني أن أعدك بهذا ، ليس الأمر بالسهولة التي تتصورها !

وهم (ميم) بالوقوف فسأله الرجل :

– إلى أين أنت ذاهب الآن ؟

– إلى منزلي .

– لقد حان موعد العشاء ، ستتناول عشاءك عندي الليلة .

فاحمر وجه (ميم) خجلاً وقال :

– شكراً لك ، لا أشعر برغبة في الطعام .

قال الرجل مبتسماً :

– ستشعر بهذه الرغبة عندما ترى الطعام .

نهض الرجل ، فقام (ميم) وصافحه ، وأراد الخروج من الغرفة ، ولكنه وجد للغرفة عدة أبواب جميعها موصدة ، فوقف حائراً لا يدري من أي باب يخرج ؟ أشار له الرجل المجهول نحو أحد الأبواب قائلاً :

– افتح هذا الباب تجد السلم ، وعندما تهبط إلى الطابق الأرضي ستجد المائدة معدة لك .

فتح (ميم) الباب الذي أشار نحوه الرجل ، ودهش عندما رأى سلماً خشبياً لا معاً مفروشاً بسجادة خضراء ، لم يكن هو السلم المرتفع اللانهائي الذي صعده عند حضوره بل سلماً عادياً لا يرتفع لأكثر من طابق واحد ، ولا يستغرق هبوطه أكثر من دقيقة . هبط السلم ، فوجد الفتاة واقفة عند أسفله ، كأنها تمثال ، عندما هبط آخر درجة ابتسمت له الفتاة وقادته إلى غرفة المائدة . انبعثت من الغرفة رائحة طعام سال لها لعاب (ميم) ، لم تكن الغرفة فاخرة ، بل ضيقة قليلة الأثاث تتوسطها منضدة متوسطة الحجم حولها أربعة كراسي من النوع الرخيص . جلس (ميم) على أحد الكراسي ونظر إلى المائدة فوجد أمامه طبقين أحدهما فوق الآخر وعليهما فوطة نظيفة وحولها ملاعق وشوك وسكاكين وكوب مليء بالماء ، ولكن الأهم من ذلك كله ما رآه في وسط المائدة ، رأى لأول مرة في حياته خروفاً متوسط الحجم محاطاً بكمية كبيرة من الأرز المخلوط بالزبيب والبندق وأجزاء من الكبد وقد وضع في طبق كبير يناسب حجمه ، وحول هذا الطبق عدد آخر من أطباق مغطاة لم يستطع (ميم) معرفة ما بداخلها .

اتجهت الفتاة وفصلت من الخروف كتلة كبيرة من اللحم وضعتها في الطبق العلوي الذي أمام (ميم) ، ووضعت بجوار اللحم كمية من الأرز ، ثم وقفت بجواره .

أقبل (ميم) على الطعام فالتهمه في دقائق قليلة ، فأخذت الفتاة الطبق العلوي الذي فرغ منه الطعام ، ورفعت غطاء أحد الأطباق المغطاة فظهر تحت الغطاء لون من الطعام لم يعرفه (ميم) . وضعت الفتاة جزءاً من ذلك الطعام

أمامه وملأة أنفه برائحة فائحة الشهية ، التهم هذا الطعام أيضاً . ومدت الفتاة يدها لتكشف غطاء طبق آخر ولكن (ميم) اعتذر عن عدم تمكنه من مواصلة الطعام لامتلاء معدته ! وضعت الفتاة أمامه طبقاً نظيفاً وخرجت من الغرفة وعادت وفي يدها سلة كبيرة مليئة بشتى أنواع الفاكهة ! فأكل (ميم) بعضها وأبدى رغبته في الانصراف . فابتسمت الفتاة وانحنت له قليلاً وقالت :

- هل ترغب في أية خدمة قبل انصرافك ؟

فأجاب (ميم) قائلاً وقد احمر وجهه خجلاً :

- كلا ، وشكراً .

ولكن (ميم) كان يحس في أعماق نفسه أن تؤدي له هذه الفتاة خدمة واحدة . وهي أن تظل معه طوال الليل والنهار ناظراً إلى وجهها الجميل المبتسم ، ولكنه تحاشى النظر إليها وغض من بصره حتى لا تبدو منه أية بادرة ينساء فهمها ! قام واتجه نحو باب الغرفة وهو مطرق للأرض . فأسرعت الفتاة ، وفتحت له باب المنزل ، ووقفت متنحية له حتى خرج ، ثم أسرعت إلى الحديقة ، وسارت معه حتى الباب الخارجي . وفجأة التفت إلى الفتاة وقال :

- لماذا تقلد مالك المدينة حكم الإعدام في شاعر صغير السن ؟

- فابتسمت الفتاة وقالت :

- لقد سألت صاحب المنزل هذا السؤال نفسه !

- وماذا كانت إجابته ؟

- قال لي إن مالك المدينة لم يضع في رأسي من العقل ما يسمح لي بفهم مثل هذه الأسرار وقال : إنني لكي أستطيع فهم مثل هذه الأشياء ينبغي أن

يكون حجم رأسي عشرة أمثال حجم المدينة بأسرها .

ضحكت الفتاة وقالت :

- وهذا غير ممكن بطبيعة الحال . أنا أفضل أن يبقى رأسي بهذا الحجم الذي تراه .

ثم فتحت الباب الخارجي ، فخرج منه (ميم) ، وابتسمت له ، وأغلقت الباب خلفه .

١٠

عندما خرج (ميم) من منزل ذلك الرجل كان النهار قد انقضى ، وأقبل المساء والشارع يسبح في الأضواء المتعددة الألوان ، وصورة الفتاة الجميلة التي استقبلته وودعته لا تفارق خياله بوجهها الجميل وعينيها المبتسمتين . تمنى لو تبادل الحديث وأي إنسان يصادفه ، وليذكر شيئاً عجيباً ، كان ضوء النهار يضيء المنزل الذي خرج لتوه منه فتعجب ، كيف يسود الظلام جميع أنحاء المدينة على حين يبقى ضوء النهار في منزل ذلك الرجل المجهول ؟ كل يوم يتكشف له في المدينة شيء عجيب ويرى شيئاً لم يكن قد رآه من قبل ! ترى هل يتغير الشارع ويتبدل ؟ إنه لم يسبق له مثلاً أن رأى ذلك المبنى الأزرق الذي تغمره الأضواء الساطعة ، ولم ير من قبل هذه اللافتة المضاءة باللون الأحمر عند مدخل هذا المبنى والمكتوب عليها هذه الجملة « كل من يشكو الوحدة يدخل

هذا المكان ؟ ! ووجد طابوراً طويلاً من الرجال والشباب يقف في انتظار دوره أمام شباك التذاكر بالقرب من مدخل هذا المبنى ، خفق قلبه فرحًا عندما رأى هذه اللافتة ، وأسرع بالوقوف في الطابور . كان كل من يأتي دوره ليقف أمام شباك التذاكر يدفع بعض النقود ، ويتناول تذكرة ويدخل من الباب ويتوارى داخل المبنى . ظل (ميم) يتقدم في الطابور حتى وجد نفسه أمام شباك التذاكر الجالس خلفه رجل يرتدي روباً يشبه ذلك الروب الذي كان يرتديه الواعظ

فسأله (ميم) :

– كم ثمن التذكرة ؟

فأجاب الرجل :

– لا ثمن محدد للتذكرة ، الكل يدفع على قدر استطاعته .

فوضع (ميم) أمام الرجل ثلاثة قروش وتناول تذكرة ودخل المبنى ، وما كاد يخطو بضع خطوات حتى وجد أمامه دهليزاً ضيقاً طويلاً حسن الإضاءة علقت جدرانه بصور فتيات جميلات ، يفوح منه عبير زكي الرائحة فشعر بالسعادة لأول مرة منذ قدومه إلى هذه المدينة ووجد نفسه يكاد يعدو نشوة . وعند نهاية الدهليز وجد باباً تعلوه لافتة مضاءة تحمل هذه الجملة « من سئم السعادة وراحة البال ويرغب في تجربة الحزن والقلق فليدخل من هذا الباب ! » .

وقف (ميم) أمام هذا الباب متعجباً . من ذا الذي يسأم السعادة وراحة البال ويرغب في الحزن والقلق ؟ وكيف توضع عند الباب الخارجي لافتة تدعو إلى دخول من يشكو الوحدة ثم يفاجأ الآن بلافتة تنذر من يدخل بالحزن والقلق ؟ والأعجب من ذلك أن الناس يتزاحمون للدخول من هذا الباب

الأخير ! التصق (ميم) بالجدار مفسحاً الطريق للداخلين من هذا الباب ، وأخذ يبحث عله يجد باباً آخر يحمل لافتة أخرى ، ولكنه لم يجد سوى هذا الباب . فأسرع بالرجوع ليهرب من هذا المبنى إلى عرض الطريق ، فهو لم يسأم السعادة ، لأنه لم يعرفها ولا يرغب في تجربة الحزن والقلق فهو غارق في الحزن ويستبد به القلق ولا يرغب في المزيد ، ولكن في أثناء رجوعه اعترضت طريقه امرأة مفرطة البدانة عابسة الوجه قاسية الملامح تحمل في يدها عصا غليظة وسألته : لماذا عدل عن الدخول فقال لها :

– دخلت من الباب الخارجي ، لأني أشكو من الوحدة ، ولكني لا أرغب في مزيد من الحزن والقلق .

– فقالت له وقد رفعت العصا في وجهه :

– من يدخل هذا المكان لا يخرج منه بهذه السهولة ! لابد أن تستمر حتى نهاية الطريق ، وأنت ممنوع من الخروج مادمت قطعت التذكرة ودخلت بمحض إرادتك ، لم يقبض أحد على يدك لكي تدخل .

فصاح (ميم) غاضباً :

– لقد خُدعت ، دعتني اللافتة الخارجية للدخول تخلصاً من الوحدة ، وفوجئت بهذه اللافتة التي تدعوني للحزن والألم ! لن أدخل من هذا الباب بإرادتي .

قالت له المرأة وقد كشرت عن أنيابها كشرة مفترسة :

– إذا لم تدخل بإرادتك فستدخل بإرادتي أنا ! لماذا تريد أن تشذ عن

جميع الناس ؟ ألا ترى الجميع يتزاحمون للدخول من هذا الباب ؟ لماذا لا تدخل مثلهم ؟

وقالت آمرة فى غضب :

– هيا ادخل وإلا حطمت رأسك وأذقتك من العذاب مالا يخطر لك على بال !

ودفعته دفعة قوية فإذا به يجد نفسه فى قاعة فسيحة مزينة بالأضواء والورق الملون ، مؤثثة بأفخر الأثاث ، تتصدرها فرقة موسيقية تعزف ألحاناً صاخبة ، وتموج بالشبان والرجال والفتيات الرائعات الجمال بعضهن جالسات ، والبعض واقفات يتبادلن الحديث والشبانُ والرجال والبعض يرقصن بمفردهن أو بصحبة أحد الشبان أو الرجال والجميع فى مرح وسعادة .

فتعجب (ميم) وقال لنفسه :

– إذا كان هذا هو الحزن والقلق فليَّحى إذن الحزن والقلق ! إنى ما شعرت بالسعادة كما أشعر بها الآن !

وبينما يدير بصره فى أنحاء المكان فى شبه ذهول رأى مفاجأة جعلته يزداد ذهولاً : رأى الفتاة الجميلة التى استقبلته عند دخوله وشيعته عند خروجه من منزل الرجل المجهول جالسة مرتدية ثوباً طويلاً ناصع البياض وعلى رأسها تاج من الأزهار وقد وضعت ساقاً فوق ساق تنظر إليه مبتسمة بوجهها الجميل الذى تمنى منذ دقائق أن يظل ناظراً إليه إلى الأبد ، حياها مبتسماً والفرحة تملأ قلبه ، فأسرعت بالقيام واندفعت نحوه وتأبطت ذراعه ، وبدأت الفرقة الموسيقية تعزف لها لحناً جميلاً ، واصطف على الجانبين عدد من الشبان والفتيات وسار

(ميم) بصحبة الفتاة بين المصطفين والموسيقى تواصل عزفها .

تعجب (ميم) ، وقال محدثاً نفسه : « ماذا يحدث فى هذا المكان ؟ أنا لا أرى أى أثر للحزن أو القلق ! لا شىء سوى المرح والسعادة » . ومالت الفتاة عليه وقالت :

– أشكرك من كل قلبى ، لأنك اخترتنى زوجة لك من بين جميع الفتيات .

فنظر إليها (ميم) مشدوهاً وقال :

– اخترتك زوجة ؟

فقالت :

– نعم ، من تقاليد هذا المكان أن الرجل إذا ابتسم لفتاة فمعنى هذا أنه اختارها زوجة له . أشكرك من كل قلبى يا زوجى العزيز .

فارتبك (ميم) ولم يدر ماذا يفعل ؟ وأدار بصره فى أنحاء المكان وكأنه يبحث عن مخرج من هذا المأزق ، فرأى شباناً ورجالاً وقد تأبط كل منهم ذراع فتاة جميلة والموسيقى تعزف لهم كما عزفت له ويسيرون بين صفين من الفتيات والشبان ، والتفت إلى الفتاة التى أصبحت عروسه وقال :

– ولكنى لم أهيئ نفسى للزواج .

فقالت الفتاة :

– كل ما يلزم الزواج توفر الرغبة الحسية ، وأنا نحاحتى هذه الرغبة ، فهل تشعر بها مثلى ؟

قال (ميم) فى حماس :

– أشعر بها شعوراً قوياً.

– هذا كل ما يلزم الزواج ، ولو كنت تركت نفسك نهباً للتفكير والتدبير لظللت تفكر إلى آخر رمق فى حياتك دون أن تتخذ قراراً ، هيا نرقص.

فقال (ميم) وقد احمر وجهه خجلاً :

– أنا لا أعرف الرقص.

فضحكت الفتاة وقالت :

– عندما تبدأ الرقص ستجد نفسك تعرف كل شيء !

كانت الموسيقى تعزف قالساً ، وتحول المكان إلى حلبة رقص ، كل (عريس) يرقص مع عروسه ولم يعد فى القاعة شخص بمفرده ، وساد المرح واختلطت الضحكات بأنغام الموسيقى. تعجب (ميم) وسأل نفسه ، لماذا كل هذا المرح وكل هذه السعادة وهم يعلمون أن كل من فى المدينة محكوم عليه بالإعدام ؟ هل نسوا أو تناسوا تلك الحقيقة الرهيبة البشعة التى تقشعر منها الأبدان ؟ إننا جميعاً سُلِق بنا فى البالوعة ، لا يدرى أحد متى ينفذ فيه حكم الإعدام ؟ قد يكون فى هذه اللحظة وقد يكون بعد لحظات أو أيام أو شهور أو أعوام ، ولكننا محكوم علينا بالإعدام ، فلماذا كل هذا المرح ؟

لاحظ (ميم) أنه يرقص فى رشاقة مع عروسه فتعجب لذلك أيضاً ، إذ لم تكن لديه أية فكرة عن حركات الرقص. وعلى الرغم من تلك الأفكار السوداء التى كانت تدور فى رأسه أحس بنشوة وابتهاج وهو واضع يده حول خصر فتاته ناظراً إلى عينيها الباسمتين. عندما توقفت الموسيقى تأبط كل (عريس) ذراع عروسه واتجه الجميع نحو الباب الخارجى ، وقال (ميم) لعروسه :

– هل انتهت الآن جميع إجراءات الزواج ؟

قالت الفتاة :

– عندما عزفت لنا الموسيقى واصطف لنا الناس على الجانبين كانت إجراءات الزواج قد تمت. لم يبق سوى شيء واحد ، قسيمة الزواج ، سنأخذها من شباك التذاكر عندما نخرج من هنا.

– أطرق (ميم) مفكراً ثم قال :

– ولكن كيف تصبح زوجتى وأنا حتى هذه اللحظة لا أعرف اسمك ولا تعرفين اسمى ؟

فضحكت الفتاة ضحكة رنت فى أذنى (ميم) وكأنها موسيقى عذبة وقالت :

– وعلام يدل الاسم ؟ ألم تبتسم لى وأبتسم لك دون أن تسأل عن اسمى أو أسألك عن اسمك ؟ ومع ذلك فأنا أعرف اسمك ، أليس اسمك (ميم نون) ؟

فقال (ميم) مندهشاً :

– بلى ، ولكن كيف عرفت اسمى ؟

– ألم أستقبلك عند باب المنزل منذ لحظات ؟ أنا أعرف اسم كل من يأتى لزيارة هذا المنزل.

– وما اسمك أنت ؟

– اسمى « جيم ».

كانا قد وصلا إلى شباك التذاكر ، فتسلم (ميم) قسيمة الزواج من الرجل الجالس خلف الشباك ، طبقها بعناية ووضعها فى الجيب الداخلى لسترته ،

وسارا معاً فى الطريق ، وبعد بضع خطوات قال (ميم) لعروسه :

– لست أدرى أين نذهب الآن؟

فنظرت إليه جيم فى دهشة وقالت :

– أليس لك بيت تعيش فيه ؟

فقال (ميم) وقد احمر وجهه خجلاً :

– لى بيت ، ولكن ليس به سوى كرسى واحد وسرير ضيق لا يتسع لاثنين.

فضحكت جيم وقالت :

– هيا إلى المنزل لا نضيع الوقت فى مثل هذه الهواجس. المهم أن يضمنا عش واحد كعش العصافير!

فضحك ميم وقال :

– كنت على وشك الجنون من الوحدة ، هل تتصورين أنني بعد دخولى من الباب الخارجى للمبنى حاولت الرجوع والهرب من ذلك المكان؟ لم أكن أدرى أن كل هذه السعادة فى انتظارى.

فنظرت إليه عروسه وقد اتسعت عيناها الجميلتان دهشة وقالت :

– تهرب من المكان؟! لماذا؟!

– قرأت لافتة على باب القاعة تحمل جملة غريبة لست أدرى لماذا وضعت فى هذا المكان؟

– وما هذه الجملة الغريبة؟

– قرأت هذه الجملة «من سئم السعادة ويرغب فى تجربة الحزن والقلق فليدخل من هذا الباب»! . وأنا بطبيعة الحال لا أرغب فى مزيد من الحزن والقلق ، فلقد كنت غارقاً فيه حتى أذنىّ!

فقالت الفتاة مندهشة :

– ولماذا أنت غارق فى الحزن والقلق؟

فقال ميم وقد لمعت الدموع فى عينيه :

– يكفى دورانى فى الطاحونة والسياط تهوى على جسدى.

ضحكت الفتاة حتى اغرورقت عيناها بالدموع ، فقال لها (ميم) متعجباً :

– علام تضحكين؟ هل العذاب الذى أصطلى بناره فى الطاحونة يدعو للضحك؟ هل تسخرين من عذابى؟ حتى الأطفال كانوا يضحكون ويسخرون منى وأنا أدور فى الطاحونة والدم يتفجر من ظهرى بسبب السياط التى تلهبه! لماذا يسخر الناس فى هذه المدينة من عذاب المساكين؟

فأطرقت جيم إلى الأرض ولاذت بالصمت ولو أن الابتسامة كانت لا تزال على شفتيها.

أدار (ميم) مفتاح منزله وهو لا يكاد يصدق أنه سيجتمع تحت سقف واحد وهذه الفتاة الرائعة الجمال ، ودخلا معاً البهو ، ولكن ما هذا؟ كان البهو يغمره ضوء بنفسجى ومزين بأوراق زاهية الألوان تمتد بين الجدران ، ووجد كرسياً جديداً ، فأصبح فى البهو كرسيان بدلاً من الكرسى اليتيم. جلس على أحد الكرسيين وجلست عروسه على الكرسى الآخر مطرقة للأرض ثم رفعت رأسها ونظرت إلى (ميم) وقالت وعلى شفتيها ابتسامة ماكرة :

– أخبرتنى أن بالمنزل كرسياً واحداً ، ولكنى أرى كرسيين.

فقال (ميم) مرتبكاً :

– لم يكن بالمنزل سوى كرسى واحد طوال هذه المدة ، لم أر الكرسى الآخر إلا فى هذه اللحظة .

فأطرقت العروس إلى الأرض من جديد على حين بدأت الأفكار تدور فى رأس (ميم) :

أشعر الآن بسعادة لم أشعر بها من قبل . ما أجمل أن يعيش الإنسان مع فتاة جميلة تؤنس وحدته ! ولكننى لا أدرى كيف تسير الأمور ؟ كنت أجد مشقة فى الحصول على ضروريات الحياة وأنا بمفردى ، وعلىّ الآن أن أجد ما يضمن الحياة لاثنين . هل تكفى العشرون قرشاً التى أحصل عليها من التدوران فى الطاحونة لتغطية نفقاتى ونفقات هذه الفتاة التى أصبحت زوجتى ؟ كيف أوفر لها السعادة التى هى جديرة بها ؟

وانتزعه من تلك الأفكار غير المريحة صوت عروسه قائلة وهى لا تزال مطرقة للأرض :

– أليس بهذا المنزل غرفة نوم ؟

فقال (ميم) مبتسماً ابتسامة عريضة :

– توجد غرفة نوم ، ولكن كما ذكرت لك ليس بها سوى سرير ضيق .

فمالت عليه وقبلته وقالت :

– لا يهم اتساع السرير ، هيا معى لنراها .

صعدا معاً السلم ودخلا غرفة النوم ، فوجد (ميم) شيئاً عجيباً . وجد السرير الضيق قد استبدل به سريرٌ عريض يتسع لاثنين ، ويغمر الغرفة ضوء وردى اللون ، فقالت جيم :

– إنه سرير عريض .

فقال (ميم) :

– لست أدرى ماذا حدث ؟ كان ضيقاً عندما تركته هذا الصباح .

فضحكت العروس وقالت :

– أعلمت إذن أن كل ما كنت تخشاه لم يكن سوى أوهام لا أساس لها ؟

– ولكن كيف حدث ذلك ؟

– المسألة فى غاية البساطة ، أنت تعلم أن الرجل الذى كنت أعمل فى منزله وثيق الصلة بمالك المدينة ، لقد طلب من مالك المدينة الإذن بهذا التغيير ، فأمر خادمك بعمل اللازم .

– وأين ذهب هذا الخادم ؟

– ذهب إلى منزله ، هل كنت تريد منه البقاء معنا فى هذه الليلة ، ليقيِّد حريتنا ويشوه جمال وحدتنا ؟

ثم ألقت بنفسها عليه وطوقته بذراعيها وقبلته فى فمه قبلة طويلة ، فشعر بخدر لذيذ يسرى فى جسده واحتضنها بقوة وعصر جسدها ، وأخذ يغمرها بالقبلات . شعرت بقواها تخور ، فجلست على حافة السرير وهمست قائلة :

– أطفىء النور .

فامتدت يد (ميم) فى سرعة خاطفة وأطفأ النور وأسرع بخلع ملابسه وناما على السرير متجاورين .

عندما بدأ ضوء النهار ينفذ من خلال شيش النافذة استيقظ (ميم) ، ونظر فلم يجد عروسه بجواره . أدار بصره فى أنحاء المكان باحثاً عنها فوجدها

جالسة على أرض الغرفة وقد استندت بظهرها على الجدار ، واحتضنت التليفون وسمعها تهمس فى السماعة بكلام لم تستطع أذنه التقاطه ، فتعجب لهذا المشهد ، ترى من الذى تتحدث معه فى هذا الصباح الباكر؟ فتظاهر بالنوم وحاول الإنصات لحديثها . كانت تتحدث بصوت منخفض لا تتيح له سماعه ، ولكنه سمعها بعد ذلك تشهق بالبكاء ، فازداد تعجبه ، ما الذى يجعل عروساً تبكى بعد قضاء ليلة واحدة مع (عريسها) لقد كانت فى قمة السعادة منذ رآها فى القاعة حتى آخر لحظة من لحظات الليل عندما غلبها النوم ، فناما بعد سهر طويل حافل بكل ألوان الحب والنشوة . ثم شعر بها تضع سماعة التليفون وتضع التليفون فى موضعه بجانبى الحلفز وتنام بجواره كما كانت . لم ينم بعد ذلك ولكنه ظل متظاهراً بالاستغراق فى النوم ، سمعها تبكى بكاء مكتوماً ، ثم كفت عن البكاء وسحبت الغطاء عليها .

لم يستطع التظاهر بالنوم بعد ذلك فقام واستند بظهره على السرير . عندما أحست العروس بهذه الحركة التفتت وأسرعت بالجلوس ونظرت إليه وعلى شفتيها ابتسامة عذبة وانحنت عليه وقبلته فى خده وقالت بصوت ينم عن السعادة والعاطفة الجياشة .

- صباح الخير يا حبيبى . لماذا استيقظت فى هذه الساعة المبكرة؟ أنت لم تأخذ كفايتك من النوم .

فقال لها :

- ولماذا استيقظت أنت؟ لماذا لم تأخذى كفايتك من النوم؟

- لاحق لى فى النوم وأنت سهران ، لقد صحوت فى هذه اللحظة عندما

شعرت بك تنهض من الفراش .

فأطرق (ميم) إلى الأرض وظل متردداً بضع لحظات إلى أن قال :

- سمعتك تتحدثين فى التليفون . مع من كنت تتحدثين؟

فشهقت شهقة قوية خشى (ميم) أن تحطم رئتيها وقالت وقد اتسعت عيناها :

- أنا كنت أتحدث فى التليفون؟ سلامتك يا حبيبى ، لابد أنك كنت تحلم . أنا لم أغادر مكانى بجوارك منذ نمنا معاً ! من واجب الزوجة أن تظل بجوار زوجها لا تنام إلا عندما ينام ولا تصحوا إلا عندما يصحو!

فقال (ميم) فى غضب :

- أنا لم أكن أحلم ! لقد رأيتك جالسة فى ركن الغرفة محتضنة التليفون تتحدثين فى همس ، ثم سمعتك تبكين ، ما معنى هذا؟ أنا زوجك ومن حقى أن أعلم كل شىء .

فرفعت ركبتيها وأحاطتهما بذراعيها ودفنت رأسها فى حجرها ، وانفجرت تبكى وجسدها يهتز اهتزازاً عنيفاً ، ثم قالت :

- هل تكذبنى؟ هل أنا كاذبة؟ هل أنا خائنة؟

حاول تهدئتها فأحاط خصرها بيده ، وقبلها وقال :

- هل كنت تتحدثين مع أحد أفراد أسرتك؟

فقالت العروس وهى لا تزال تشهق بالبكاء .

- لم تعد لى عائلة ، لقد نفذ حكم الإعدام فى جميع أفراد أسرتى ، ولهذا السبب عطف علىّ ذلك الرجل الطيب وأوانى فى منزله كسكرتيرة وخادم .

– هل كنت تتحدثين مع هذا الرجل؟

فعادت تجهش بالبكاء وقالت :

– أنت لا تريد أن تصدقني . مازلت تكذبني . لست كاذبة . أنا لم أتكلم مع أحد .

فرأى (ميم) أنه لافائدة من الاستمرار في هذا الحوار مادام لن يصل لأية نتيجة ، فربت على ظهرها وقبلها وقال :

– لا تغضبي مني ، أرجو أن تنسي هذا الموضوع .

فقفزت من السرير وقد تهلل وجهها بالفرح كطفلة صغيرة ، واحتضنته وأخذت تقبله وتقول :

– أنت حبيبي ! أنت حياتي ! لا حياة لي بدونك ! ليس لي سواك !

نهض (ميم) من السرير وأخذ يرتدي ملابسه ، فقالت له :

– إلى أين أنت ذاهب يا حبيبي؟

– سنذهب معاً إلى المطعم أولاً لتناول الإفطار ، ثم أذهب لأدور في الطاحونة . ظهري لايزال يؤلمني ، ولست أدري كيف أحتمل لسع السياط وجراحي لم تندمل بعد؟

فلاحظ (ميم) أن عروسه تبذل مجهوداً كبيراً لكيلا تضحك وقالت :

– لا تشكُ ، لا ينبغي للرجل أن يشكو ، الرجل الذي يشكو لا يصلح للحياة في هذه المدينة .

– منذ وجدت نفسي في هذه المدينة وأنا أشكو وأتعذب .

فاحتضنته وقبلته في جبينه وقالت :

– العذاب وقود العبقرية يا حبيبي ، لقد قرأت هذا في أحد الكتب ، هل تيقنت الآن أني مثقفة؟

– وما شأني أنا بالعبقرية؟ لست عبقرياً ، أنا مسكين أدور في الطاحونة لأحصل على قوت يومي ، ولا يترك لي هذا لحظة واحدة للتفكير ، فهل الدوران في الطاحونة يحتاج لأية عبقرية؟

لم تستطع العروس السيطرة على نفسها ، فانفجرت تضحك حتى شعرت بدوار من كثرة الضحك ، فجلست على حافة السرير ، ووقف (ميم) ينظر إليها مندهشاً . لماذا تضحك؟ ما الذي يضحكها كلما جاء ذكر الطاحونة؟ لماذا يسخر الجميع من آلامه؟ لقد صمم منذ هذه اللحظة على ألا يبوح لأحد بالآمه وأحزانه ، صمم على أن يتعذب في صمت . كان فيما مضى لا يتحدث عن آلامه لأنه لم يكن يجد من يتحدث معه ، ولكن الأقسى من ذلك أن يعيش المرء مع إنسان ، ويفرض على نفسه الصمت فلا يشكو له كلما أحس برغبة في الشكوى ، ما أقسى ألا يجد الإنسان أذناً تصغي لشكواه ! حتى مالك المدينة لم يستجب لشكواه عندما شكا إليه قسوة الحياة في هذه المدينة والتمس منه السماح له بالانتقال إلى مكان آخر . كانت هذه الأفكار تدور في رأس (ميم) ، ثم التفت إلى عروسه وقال :

– هل رأيت مالك المدينة؟

فنظرت إليه في دهشة وقالت :

– أنا أرى مالك المدينة؟ من أنا حتى أرى مالك المدينة؟ ليس في هذه المدينة من يجرؤ على الادعاء بأنه رآه ، ماعدا أفراداً قلائل جداً ، الرجل الذي

كنت أعمل عنده واحد منهم .

– هل أخبرك هذا الرجل أنه رأى مالك المدينة ؟

– لم يقل ذلك ، ولكنى أعلم أنه كان يقضى مع مالك المدينة سهرات طويلة فى عديد من الليالى .

– وهل اعتاد مالك المدينة الحضور لزيارة هذا الرجل ؟

فقالت فى دهشة :

– مالك المدينة يحضر لزيارته ؟ مستحيل . مالك المدينة لا يزور أحداً !

فأطرق (ميم) للأرض مفكراً ثم رفع رأسه وقال :

– هل حقيقة ما سمعته من أننا دمى صنعها مالك المدينة ليلهو بنا ويسلى نفسه ثم يحطمنا ويصنع غيرنا ؟

– أما كوننا دمى صنعها مالك المدينة فهذه حقيقة لاشك فيها ، أما كونه صنعنا ليلهو بنا ويتسلى فهذا ما لا أعلمه .

ثم اقتربت منه وقالت له فى همس وكأنها تبوح له بسر لا يعلمه :

– جميع من فى المدينة محكوم عليهم بالإعدام . كلنا محكوم علينا بالإعدام . هل تعلم ذلك ؟

– نعم ، أعلم ذلك ، وهذا من أسباب حزنى وشقائى .

فقالت فى دهشة :

– ولماذا تحزن ؟

ثم اقتربت منه مرة أخرى وأخذت تهمس فى أذنه قائلة :

– لقد أطلعنى الرجل الذى كنت أعمل عنده على سر غريب .

فقال (ميم) فى لهفة :

– ما هو السر ؟

– أخبرنى أن كل من ينفذ فيه حكم الإعدام ويلقى به فى البالوعة يعود للحياة من جديد !

– يعود للحياة من جديد ؟ وما فائدة الحياة داخل بالوعة ؟ هل تصدقين ذلك ؟

– لا يمكنني بطبيعة الحال أن أجزم بشيء كهذا إلا إذا رأيته أو جربته بنفسى ، ولكن الرجل الذى أخبرنى بذلك لا يكذب مطلقاً ، وهو مطلع على عديد من أسرار مالك المدينة .

ثم قامت وأخذت تدور فى أنحاء الغرفة وكأنها ترقص ونظرت إلى (ميم) بطرف عينها وقالت :

– ويقول أيضاً . . . ويقول أيضاً . . . .

فقال (ميم) بصبر نافد :

– ماذا يقول ؟

– يقول : إن فى أسفل البالوعة محطة قطار ، وهذا القطار يحمل الذين نفذ فيهم حكم الإعدام إلى مكان بعيد مجهول بعد أن تدب فيهم الحياة من جديد ، وهذا المكان قد يكون أجمل وأروع من هذه المدينة ، وقد يكون أسوأ منها ، كل إنسان يراه بصورة مختلفة .

فأطرق (ميم) للأرض مفكراً ثم قال :

– أنا سمعت صوت القطار . سمعته ينبعث من البالوعة عندما فتحت .

فقفزت جيم فى فرح وكأنها طفلة صغيرة ، ودارت فى الغرفة عدة دورات قائلة :

- أنت سمعت صوت القطار ؟ أنت الوحيد الذى سمع صوت القطار ! هذا دليل على أن ما قاله لى الرجل صحيح . ألم أخبرك أنه لا يكذب أبداً أبداً ، ولكن هذا دليل على شىء آخر . . .

فقال (ميم) فى لهفة :

- دليل على ماذا ؟

فجلست (جيم) على حافة السرير ، وأخذت تحدق فى عينى (ميم) وقد غابت ابتسامتها ثم قالت :

- يدل على أنك تختلف عن جميع أهل المدينة ، لم يسمع صوت القطار سواك !

فى هذه اللحظة شعر (ميم) بجوع شديد فقال باقتضاب :

- هيا نسرع بالذهاب إلى المطعم فلقد شعرت بالجوع و . . .

وكان على وشك أن يقول « واقترب موعد دورانى فى الطاحونة » ولكنه لم يقلها وصمم على ألا يذكر لعروسه كلمة « الطاحونة » مطلقًا مادام ذكرها يثير فيها عاصفة من الضحك !

١١

فى المطعم الرخيص الذى تناول فيه (ميم) طعامه آخر مرة جلس الاثنان متقابلين حول منضدة صغيرة ، وبعد برهة قصيرة أقبلت فتاة المطعم وفى يدها لافتة متوسطة الحجم تحمل هذه الجملة « زوجان جديدان » ووضعتها على المنضدة ، وتعجب (ميم) : كيف عرفت أنهما زوجان جديدان ؟ ووقفت الفتاة بجوارهما وفى يديها نوتة صغيرة وقلم وقالت :

- ماذا يطلب العروسان ؟

فوضع (ميم) يده فى أحد جيوبه وتحسس عدد النقود التى معه وقال :

- طعاماً لنا نحن الاثنين فى حدود عشرة قروش .

فابتسمت فتاة المطعم وقالت :

- لقد ارتفعت أسعار الطعام . طعام لاثنين فى حدود عشرة قروش ! أقل طعام لاثنين أصبح بستة وعشرين قرشاً .

فارتبك (ميم) واحمر وجهه خجلاً وقال :

- ولكن كل ما معى من النقود لا يزيد عن سبعة عشر قرشاً .

فقالت العروس موجهة كلامها (لميم) :

- نحضر طعاماً لفرد واحد ونقتسمه نحن الاثنين .

فابتسمت فتاة المطعم وقالت :

– هذا ممنوع بكل أسف ، ممنوع اقتسام الطعام .

أطرق (ميم) إلى الأرض خجلاً ، وشعر بأنه لا يقوى على النظر إلى عروسه وقال وكأنه يحدث نفسه :

– وما العمل الآن ؟

قالت فتاة المطعم :

– الطاحونة قريبة ، يمكنك الإسراع إليها والدوران فيها لتحصل على تسعة قروش أخرى وتنتظرك عروسك هنا حتى تحضر .

فقال (ميم) وهو يكاد يذوب خجلاً :

– هل في المدينة مطعم آخر نستطيع تناول إفطارنا فيه بعشرة قروش ؟

قالت فتاة المطعم مبتسمة :

– لا أظن ذلك ، فهذا أرخص مطعم في المدينة .

وابتعدت عنهما فتاة المطعم تاركة (ميم) مطرقاً للأرض وقد ظللت وجهه سحابة من الاكتئاب والخجل ، ثم عادت الفتاة وفي يدها لافتة أخرى صغيرة وضعتها أمام (ميم) وقرأ فيها هذه الجملة « من يتزوج ينبغي أن يكون قادراً على الإنفاق على زوجه ! » فانتفض (ميم) واقفاً وقال لعروسه :

– سأذهب إلى الطاحونة وسأدور لأحصل على عشرة قروش أخرى . انتظريني حتى أعود .

ولم ينتظر حتى يسمع إجابتها ، بل اندفع خارجاً من المطعم ، وحانت منه التفاتة فوجد عروسه تضحك من أعماق قلبها وفتاة المطعم تشاركها في الضحك .

سار (ميم) يعدو نحو الطاحونة وقد تصبب عرقه ويجرى خلفه ثلاثة أطفال

يصيحون مرددين هذه الجملة في لحن جميل :

– يا مسكين يا مسكين .. اجر ودر في الطواحين !

وكلما سار عدة أمتار يتجمع خلفه عدد أكبر من الأطفال مرددين معاً الجملة نفسها حتى وصل إلى الطاحونة في زفة من الأطفال وقفوا جميعاً عند باب الطاحونة يرددون هذه الكلمات وأخذ صوتهم يعلو حتى أصبح كهدير الرعد ! كان باب الطاحونة مغلقاً ، فضغط (ميم) على زر الجرس وهو يلهث ، ولكن الباب لم يفتح ، فأخذ يطرق الباب بشدة بقبضة يده ، وتسابق الأطفال نحو الباب يدقونه بأيديهم ويصيحون مرددين هذه الجملة في لحن عنائي :

– العجل وصل بالجوزة .. افتح له باب الطاحونة ..

وفُتح باب الطاحونة ، وأطل منه الرجل البدين وهو يفرك عينيه المتضخمتين ، واندفع (ميم) داخل الطاحونة ، فقال له الرجل :

– لقد حضرت قبل موعدك .

فقال (ميم) وهو لا يزال يلهث وصراخ الأطفال خارج الطاحونة يشق عنان السماء :

– سأدور عدة دورات إضافية لأنى في حاجة ماسة إلى عشرة قروش لتناول الإفطار مع عروسى الجالسة في المطعم في انتظارى .

فابتسم حارس الطاحونة ابتسامة خبيثة وقال :

– هل تزوجت ؟

فقال (ميم) وهو لا يزال يلهث ويتصبب عرقه :

– نعم ، تزوجت ليلة أمس .

فقال الرجل والابتسامة الخبيثة ما زالت على فمه :

– مبروك .

بدأ (ميم) يدور فى الطاحونة . وتركه الرجل ، وأسرع نحو الباب ، وصاح موجهاً حديثه للأطفال المجتمعين فى شبه مظاهرة عند باب الطاحونة .

– من الآن فصاعداً لن أسمح بالفرجة مجاناً على هذا الرجل . من يريد الفرجة فليدفع عشرة قروش .

فأسرع الأطفال بتسليم النقود للرجل حتى امتلأت يداه بالمال ، ووضع كوم النقود على المنضدة وفتح باب الطاحونة على مصراعيه ليتيح للأطفال الفرجة بوضوح ، وأمسك بالسوط وأخذ يهوى به على جسد (ميم) والأطفال تهلل وتقفز فرحاً .

أنهى (ميم) فترة الدورة الإضافية هذه عندما بدأ يشعر بالدوار ، ومد صاحب الطاحونة يده إلى كوم النقود الذى جمعه من الأطفال ، فأخذ منه عشرة قروش وأعطاها (ميم) قائلاً :

– هذا أجرك على هذه الدورات الإضافية ، وأنا فى انتظارك لتدور دورات اليوم الأصلية ، وفرقع السوط عدة فرقعات فى الهواء ، وأطل من باب الطاحونة فطرد الأطفال المجتمعين قائلاً :

– هيا اذهبوا إلى بيوتكم ، لقد انتهى العرض . العرض القادم يبدأ بعد ساعة عندما يعود هذا البطل !

وأشار نحو (ميم) وضحك ضحكات مجلجلة وكأنها قهقهة الرعد !

ولكن الأطفال لم ينصرفوا . خرج (ميم) مهرولاً نحو المطعم ، وانطلقت الأطفال خلفه يهللون ويصرخون مرددين مثل هذه العبارات .

– دوخينى يا لمونة . . تعيش وتدور فى الطاحونة . . .

وحاول (ميم) أن يزجرهم ليبتعدوا عنه ، ولكنهم لم يزدجروا ، وكما وصل إلى الطاحونة فى زفة لقد عاد إلى المطعم بالزفة نفسها . وارتفعت ضجة الأطفال فقام بعض رواد المطعم لاستطلاع الأمر ، ونظر (ميم) فوجد عروسه مازالت جالسة فى انتظاره فى المكان نفسه ، وما إن رأته حتى صاحت فى فرح :

– هل حضرت يا حبيبى ؟ لقد قلقت من أجلك وخفت ألا تعود . هل أحضرت النقود ؟

فقال (ميم) وهو لا يزال يلهث والجراح تلهب ظهره :

– نعم ، حصلت على عشرة قروش .

فصفقت عروسه فرحاً ، وأقبلت فتاة المطعم فقالت لها العروس :

– زوجى أحضر عشرة قروش ، هيا أحضرى لنا الطعام ، نريد طعاماً لاثنين بستة وعشرين قرشاً .

ظلت فتاة المطعم واقفة تنظر إليها مبتسمة فصاح (ميم) فى غضب :

– لماذ لا تتحركين . هيا احضرى الطعام ، سنموت جوعاً ، وأوشك أن يحل موعد دوراتى فى الطاحونة .

فضحكت فتاة المطعم وظلت تضحك حتى خيل إليه أنها لن تكف عن الضحك ، وبدت العروس وكأنها تقاوم الضحك . ثم ضعفت مقاومتها ،

فانفجرت تضحك هي الأخرى ، فنظر إليهما (ميم) في غضب وقد اغرورقت عيناه بالدموع وقال :

– علام تضحكان ؟

فقالت فتاة المطعم بعد أن تمكنت من السيطرة على نفسها :

– أليس معك غير هذه القروش الستة والعشرين ؟

فقال (ميم) والغضب لا يزال يطل من عينيه :

– إنه المبلغ اللازم لطعام اثنين ، أليس كذلك ؟

فقالت الفتاة مبتسمة :

– كان هذا منذ ساعة ، قبل مغادرتك المطعم ، ولكن الأسعار في ارتفاع مستمر ، وفي فترة غيابك ارتفعت الأسعار وأصبح الحد الأدنى لإفطار شخصين ثلاثين قرشاً !

فشعر (ميم) بدوار وركن برأسه على حافة المنضدة ، وساد الصمت ، وعندما تملك نفسه ورفع رأسه وجد عروسه مطرقة للأرض في حزن وفتاة المطعم لا تزال واقفة تبتسم ، فقال بصوت خافت ضعيف يغلفه اليأس :

– ما معنى هذا ؟

فقالت فتاة المطعم والابتسامة لا تزال على شفتيها :

– معنى هذا أنه ينبغي عليك أن تسرع إلى الطاحونة وتدور بضع دورات أخرى لتحضر باقي المبلغ .

فانتفض (ميم) واقفاً واندفع خارج باب المطعم وانطلق يعدو نحو الطاحونة بكل ما بقي في جسده من قوة . وتجمع الأطفال خلفه من جديد يضحكون

ويرددون الهتافات نفسها ، وخيل إليه أن المسافة بين المطعم والطاحونة في هذه المرة قد أصبحت أطول منها في المرة السابقة ، فكلما ظن أنه على وشك الوصول وأن مبنى الطاحونة قد أصبح على بعد خطوات إذا به يجري ويجري ولا يجد لها أثراً ، فخشي أن يكون قد اجتاز المبنى ولم ينتبه لوجوده ، ولكنه رأى دار السينما التي قبل مبنى الطاحونة ، فظل يجري ولاحظ أن جميع شرفات المساكن قد امتلأت بالمتفرجين الذين اشرأبوا بأعناقهم لرؤيته . وأخيراً وجد نفسه بجوار مبنى الطاحونة ، وتجمع الأطفال حوله يضحكون ويهللون ويقفزون ، أخذ يطرق باب الطاحونة بعنف والأطفال يشتركون معه في الطرق كما فعلوا في المرة السابقة ، ففتح الباب وأطل منه حارس الطاحونة في ذعر . وقف (ميم) أمام الرجل يلهث وحاول أن ينطق فتقطعت أنفاسه وخرجت من فمه كلمات لا معنى لها ! فسحبه الرجل ووضعه داخل الحلقة المعدنية ، وبدأ (ميم) يدور في الطاحونة ، وخرج الحارس يجمع من الأطفال أجر فرجتهم على (ميم) ، كما فعل في المرة السابقة ، وامتلأت يداه بالنقود ، فوضعها على المنضدة وتناول السوط وأخذ يلهب به ظهر (ميم) و (ميم) ينتفض كالطائر المذبوح !

وبعد نحو خمسين دورة أراد (ميم) أن يتوقف عن الدوران ويأخذ ثلاثة قروش ، ولكن حارس الطاحونة أخبره أن الوقت المخصص للدورات الإضافية قد انتهى وعليه الآن أن يكمل الدورات الأصلية التي يقوم بها يومياً للحصول على عشرين قرشاً ، وهذا بطبيعة الحال سيستغرق وقتاً طويلاً ، فلم يجد (ميم) بداً من الإذعان واستمر يدور .

عندما انتهت الدورات المقررة ناوله الرجل عشرين قرشاً أخذها من النقود

التى جمعها من الأطفال . وصنع (ميم) النقود فى الجيب الداخلى لسترته . والطلق يعدو من جديد نحو المطعم والأطفال يجرون خلفه وجميع شرفات المنازل مكتظة بالمتفرجين يلوحون له بأيديهم وهو لا يدرى هل يلوحون له إعجاباً أو استهزاء ؟

وصل إلى المطعم منهوك القوى فرأى مشهداً أثار دهشته ، وجد عروسه منهمكة فى الأكل وأمامها مائدة حافلة بأطيب الطعام ، فجلس وما إن رأته زوجته حتى توقفت عن الأكل وقالت :

– هل حضرت يا حبيبى ؟

رأى أن سؤالها لا يحتاج إلى إجابة ، فجلس وحاول أن يتكلم فقطعت أنفاسه طزم الصمت . واستمرت زوجته فى الأكل فى هدوء وسعادة ، وبعد أن هدأت أنفاس (ميم) بعض الشىء قال لزوجته :

– ما معنى هذا ؟ من الذى أحضر لك هذا الطعام ؟

فقالت (جيم) دون أن تتوقف عن الأكل :

– أحضرته لى فتاة المطعم يا حبيبى .

فقال (ميم) فى غضب :

– ومن الذى دفع ثمنه ؟

فقالت وهى تلتهم فخذ الدجاجة :

– فاعل خير .

فقال (ميم) وقد شعر بالغيرة مختلطة باليأس والألم والمهانة :

– أنا لا أقبل أن يتصدق على زوجتى أى إنسان غريب .

فقالت بهدوء وهى تجهز على صدر الدجاجة :

– وهل كنت تحب أن أموت جوعاً يا زوجى العزيز . كنت أنتظر منك أن تشكر هذا الشاب الكريم الذى رق لى ورق لحالى .

أخذ (ميم) يدير بصره فى أنحاء المكان فرأى عدداً كبيراً من الشبان من ذوى الوجوه الوسيمة يختلسون النظر إليه ويبتسمون . اعتقد (ميم) أنها ابتسامات سخرية واستهزاء فغلى الدم فى عروقه ، ونادى فتاة المطعم ، فأقبلت بسرعة ووقفت بجواره مبتسمة فى انتظار أوامره ، فقال لها وقد نفرت عروق رقبته واختلجت بعض عضلات وجهه من الغضب والإرهاق :

– كيف أترك زوجتى هنا وأذهب لأدور فى الطاحونة لأوفر لها ثمن الإفطار وأعود فأجدها تأكل على نفقة إنسان غريب عنها ؟

فقالت فتاة المطعم وهى تبذل مجهوداً كبيراً لكيلا تنفجر ضاحكة :

– تقول الإفطار ؟

– نعم الإفطار .

– ولكن موعد الإفطار انتهى منذ وقت طويل وأوشك أن يحل الآن موعد العشاء .

– سأدفع ثمن هذا الطعام الذى تأكله زوجتى . كم ثمنه ؟

– مائة وعشرون قرشاً .

فارتبك (ميم) وتلعثم وأطرق للأرض فى حزن ومذلة ، ونطق ببعض كلمات غير مفهومة ثم قال وكأنه يحدث نفسه :

– لكى أحصل على هذا المبلغ ينبغى أن أدور فى الطاحونة ستة أيام متتالية ، فنظرت إليه (جيم) فى دهشة وقالت :

– ولماذا تدفع يا حبيبى؟ هذا الطعام دُفع ثمنه وانتهى الأمر. كل أنت الآن ، وادفع ثمن طعامك فلابد أنك جائع ، لم تتناول طعاماً طوال اليوم يا حبيبى.

كانت فتاة المطعم لاتزال واقفة بجواره فالتفت إليها وقال :

– أحضرى لى طعاماً فى حدود مبلغ خمسة عشر قرشاً.

فلم تتحرك فتاة المطعم ولزمت الصمت ناظرة إليه مبتسمة ، فصاح فى غضب :

– لماذا لا تتحركين؟ لقد مت جوعاً !

فقالت الفتاة فى هدوءوالابتسامة لا تفارق شفتيها :

– لقد ارتفعت الأسعار مرة أخرى وأصبح الحد الأدنى لطعام شخص واحد ستين قرشاً.

فتوقفت زوجته عن الأكل ، ونظرت إليه بحزن وقالت :

– كنت أتمنى يا حبيبى أن تشاركنى فى طعامى ولكن من التقاليد العريقة لهذه المدينة أن الزوج لا يجوز أن يشارك زوجته فى طعام لم يقم هو بدفع ثمنه.

فأخرج من جيبه كل ما معه من النقود ووضعه على المنضدة قائلاً :

– أحضرى لى طعاماً ، أى طعام ، بهذا المبلغ ،

فأخذت الفتاة المبلغ وعدته فوجدته سبعة وأربعين قرشاً ، وانصرفت ، ثم عادت ومعها طبق به ثلاث بيضات مقلية وقطعة خبز وضعتها أمامه ، التهم

الطعام فى بضع دقائق وقام فوقفت زوجته وتأبطت ذراعه وغادرا المطعم وقلبه مفعم بالحزن وجيوبه خاوية.

وعندما وصلا إلى المنزل أسرعت زوجته إلى الحمام وفتحت خزانة صغيرة مثبتة بالحائط ، وأخذت منها مادة مطهرة وقطعة من القطن ، وعادت لزوجها حيث قامت بتضميد جراحه التى أحدثتها السياط فى أثناء دورانه فى الطاحونة. ونظرت إليه فوجدت عينيه مغرورقتين بالدموع ، فأشاح وجهه عنها حتى لا ترى دموعه ، فلقد سبق أن قالت له : إن الرجل لا ينبغى له أن يشكو ويتحتم عليه فى هذه المدينة أن يكون قوى الاحتمال.

وبعد أن انتهت زوجته من تضميد جراحه ألقى بجسده على الفراش وسرعان ما استغرق فى نوم عميق.

استيقظ فى الصباح فلم يجد زوجته بالغرفة. فقال لنفسه إنها لابد أن تكون فى الحمام. وحاول القيام فشعر بألم شديد فى ظهره ، ولكنه قاوم الألم واعتدل وركن بظهره على السرير ، ثم جلس على حافة السرير مطرقاً للأرض فترة من الزمن. بعد ذلك اتجه نحو الحمام فلم يجد به أحداً. أخذ يدور فى أنحاء البيت هابطاً صاعداً منادياً زوجته ، ولكنه لم يعثر لها على أثر ! وعلى الرغم من شغفه وحبه الشديد لزوجته الجميلة ، لم يفزع عندما قفزت فى ذهنه فكرة إمكان هروبها منه وهجرها له إلى غير رجعة ، ولكنه شعر بكرامته تنمى عندما فكر فى أن هجرها له قد يكون بسبب عجزه عن دفع ثمن طعامها ، شعر بتعب شديد فجلس على أحد الكرسيين اللذين فى البهو. وفى هذه اللحظة أقبل نحوه الخادم وهو لا يدرى من أين أتى؟ فابتدره قائلاً :

– أين كنت ؟

فقال الخادم بدون اكتراث :

– كنت أينما كنت ! هل تريد شيئاً ؟

فابتلع (ميم) هذا الأسلوب الجاف في الحديث وقال للخادم :

– صحوت من النوم فلم أجد زوجتى ، هل تعلم أين ذهبت ؟

فقال الخادم وهو يهم بالخروج من البهو :

– ربما تكون قد ذهبت إلى الجزء الخلفى من المدينة .

فقال (ميم) بدهشة :

– الجزء الخلفى من المدينة ؟ وهل للمدينة جزء خلفى ؟ المدينة عبارة عن شارع واحد .

فتوقف الخادم ونظر إلى (ميم) وأطال النظر ثم قال :

– يبدو أنك مازلت تجهل أشياء كثيرة عن هذه المدينة .

فقال (ميم) بسخرية :

– ولماذا لا تزودنى ببعض هذه المعلومات ؟

فأدار الخادم ظهره لميم ، ووقف ينظر من النافذة التى تطل على الشارع وقال :

– ليس هذا من اختصاصى ، غير مصرح لى أن أزودك بأى معلومات . هذه المعلومات إما أن تكتشفها بنفسك أو عن طريق مكتب الاستعلامات . اذهب إلى مكتب الاستعلامات واستفهم عن كل ما ترغب فى الاستفهام عنه . هو المسئول الوحيد عن تزويدك بأى معلومات ، ولو أنه من الأفضل بالنسبة لك أن تكتشف كل شىء بنفسك ، إذ إن مهمتك البحث عن الحقيقة .

١٢

فى طريقه إلى مكتب الاستعلامات للاستفسار عن ذلك الجزء الخلفى للمدينة الذى لا يعلم عنه شيئاً ، خطر (لميم) أن يسأل سؤالاً آخر إلى جانب هذا السؤال وهو : لماذا لا يرتفع أجر الدوران فى الطاحونة على حين ترتفع جميع الأسعار بشكل جنونى ؟

وقف أمام الفتاة الجميلة بمكتب الاستعلامات ، وجميع الفتيات اللاتى رآهن (ميم) فى المدينة حتى الآن رائعات الجمال ، قال للفتاة :

– أريد أن أستفهم عن شيئين .

قالت الفتاة وقد رسمت شفتاها ابتسامة عذبة :

– خذ هذه الورقة وهذا القلم واكتب نص الاستفهامين ، وضع الورقة فى ثقب الجهاز .

كتب (ميم) هذين الاستفهامين :

أولاً : لماذا لا يرتفع أجر الدوران فى الطاحونة متمشياً مع ارتفاع الأسعار ؟

ثانياً : ماذا يقصد بالجزء الخلفى للمدينة . وكيف أذهب إليه ؟

ووضع الورقة فى فتحة الجهاز ، وضغط على الزر الذى طلبت منه الفتاة أن يضغط عليه ، وما إن فعل ذلك حتى دقت الأجراس فى جميع أنحاء المدينة وانطلقت العربات الصفراء بأقصى سرعتها مطلقة صفاراتها التى تشبه صفارات

عربات الشرطة حتى أصبح صوت دوى الأجراس مختلطاً بصفارات العربات يكاد يصم الآذان ، وقفت الفتاة ترتجف فزعاً وصاحت :

– ماذا فعلت يا مجنون ؟ ماذا فعلت ؟

فوقف (ميم) يرتجف وقد عقد الخوف لسانه فلم يستطع النطق ، وأخيراً قال :

– لم أفعل شيئاً ! سألت سؤالين لا ثالث لهما .

قالت الفتاة فى غضب :

اذكر لى السؤالين اللذين سألتهما .

فذكر لها (ميم) نص السؤال الأول ولم تتركه الفتاة ليذكر السؤال الآخر . بل أحتقنت للغيظ خديها حتى أصبحا فى لون الورد وتشد شعرها ثم قالت :

– كيف تجرؤ على مثل هذا السؤال ؟ كيف تجرؤ على طلب رفع أجر الدوران فى الطاحونة ؟

فقال (ميم) وهو لا يدرك سبب كل هذا الغضب والانفعال :

– وهل هذه جريمة ؟

قالت الفتاة وجسمها ما زال يرتعد خوفاً وغضباً :

– طبعاً جريمة . إنك بهذا السؤال فتحت على نفسك طاقة من نار ! سوف تعاقب بسببه عقاباً صارماً لا رحمة فيه !

فقال (ميم) وهو لا يزال مندهشاً لهذه الثورة العارمة :

– أتعاقب لمجرد الاستفسار عن سبب عدم رفع أجر الدوران فى الطاحونة ؟

– أجل ، إنك بهذا تحرض على التمرد وتعمل على بلبلة الأفكار فى تلك

المدينة الآمنة :

وأراد أن يهرب بجلده ، ويطلق لساقيه العنان فى الشارع ، ولكن الفتاة اعترضت طريقه ومنعته من الخروج وأغلقت باب مكتب الاستعلامات وأصبحا وحيدين معاً فى المكتب ، وبعد لحظات سمع من جديد صوت صفارة سيارة الشرطة تقترب ووقفت السيارة أمام باب مكتب الاستعلامات وخبط طرقاً شديداً على الباب ، ففتحت الفتاة الباب ، وتقدم أحد الشرطة ووضع القيد الحديدى فى يدى (ميم) واقتاده إلى السيارة التى انطلقت فى الشارع بأقصى سرعتها و (ميم) لا يعلم إلى أين هو ذاهب ؟

ووقفت السيارة أمام مبنى أخضر ذى نوافذ صفراء لا يذكر (ميم) أنه رآه من قبل فى الشارع . وهبط رجل الشرطة من السيارة وبصحبته (ميم) ، وصعدا السلم الخارجى ، ثم دخلا من الباب واجتازا بهواً متسعاً على جانبيه تماثيل رائعة من الرخام ، ثم صعدا معاً سلماً داخلياً عند نهاية البهو يقف عند أسفله أحد الشرطة وكأنه تمثال ، يرتدى حلة مزركشة . وعند قمة السلم يقف رجل شرطة آخر يرتدى الزى نفسه . لاحظ (ميم) أن السكون المطلق يخيم على المكان فلم ير أحداً ولم يطرق سمعه أى صوت ، واجتازا معاً البهو العلوى واتجها إلى اليسار حيث دهليز ضيق طويل . وعند نهاية الدهليز باب مغلق بجواره لافتة تحمل هذه الجملة « المحكمة التأديبية العليا » . فشعر (ميم) بقلبه تسرع دقاته ، وسرت فى جسده رعشة خوف ، ضغط رجل الشرطة على زر بجوار الباب ففتح الباب أحد الشرطة مرتدياً الزى المزركش .

كانت القاعة فسيحة خالية من الأثاث ما عدا مكتباً فوق منصة عالية

وخلف المكتب كرسى . وقف (ميم) أمام المنصة وبجواره رجل الشرطة الذى صاح قائلاً :

- محكمة .

فى هذه اللحظة دخل من باب جانبى يُطل على المنصة رجل طويل القامة ذو لحية مدببة يرتدى الزى العسكرى . جلس الرجل على الكرسى خلف المنصة ونظر إلى (ميم) نظرة طويلة ثاقبة وقلب (ميم) يرفرف داخل ضلوعه وكأنه طائر جريح !

قال الرجل موجهاً حديثه إلى (ميم) :

- لقد أنشأنا هذه المحكمة خصيصاً من أجلك على وجه السرعة ، ولقد كلف ذلك المدينة أموالاً طائلة ، إذ إن المحاكم كانت قد ألغيت من المدينة منذ أجيال عديدة لعدم الحاجة إليها . أنت متهم ببلبلة الأفكار والعمل على تغيير نظام المدينة .

فأطرق (ميم) للأرض ولزم الصمت ، فصرخ فى وجهه القاضى قائلاً :

- لماذا لا تتكلم ؟ هل فقدت النطق ؟

فازداد فزع (ميم) وازدادت رعشة جسده ودقات قلبه وقال :

- أنا شخص مسكين أدور فى الطاحونة كل يوم عدة ساعات ، ويلهب جسدى بالسياط ويرهقنى الألم وأمنح عشرين قرشاً أجراً على ذلك . كانت هذه القروش تكفينى فى أول الأمر وتمسك رمقى ، ولكن الأسعار دائمة الارتفاع وأجرى ثابت لا يتغير ، وعندما تزوجت عجزت عن دفع ثمن الإفطار لزوجتى . . .

وخنقت العبرات فتهدج صوته وأخذ يبكى فى صمت ، فهوى القاضى بقبضته على المكتب ، ونظر إلى (ميم) بعينين كعينى نمر وصاح قائلاً :

- ولماذا تزوجت ؟ ألم يكن من الأفضل وأنت فى هذه الحال المزرية أن تبقى بلا زواج حتى لا تتعس معك فتاة فاضلة جميلة ؟

فقال (ميم) والدموع تلمع فى عينيه :

- لم أكن أنوى الزواج إطلاقاً ولم يخطر لى على بال . ولكن فى أثناء سيرى فى الشارع رأيت لافتة تدعو لدخول كل من يشكو من الوحدة ، وكانت الوحدة تكاد تقتلنى ، فابتعت تذكرة ودخلت هذا المكان ، وحاولت الخروج فلم أستطع ووجدت نفسى متزوجاً .

فأخذ القاضى يعبث بلحيته ويحرك كتفه الأيمن حركة عصبية ثم قال :

- ألا تعلم أن المطالبة برفع أجر الدوران فى الطاحونة جريمة لا تغتفر فى هذه المدينة ؟

فأطرق (ميم) للأرض فى يأس واكتئاب ، فصاح القاضى قائلاً :

- تكلم ، هل فقدت النطق ؟

فقال (ميم) :

- لم أكن أعلم أن المطالبة برفع الأجر جريمة لا تغتفر ، فأرجو أن تغفروا لى ذنبى وترأفوا بحالى ، فأنا بائس مسكين معذب وهذا أول ذنب أقترفه منذ وجدت نفسى فى هذه المدينة !

فنظر إليه القاضى نظرة تكاد تحرق جسده وقال وهو يهز كتفه الأيمن :

- ليس هذا أول ذنب تقترفه فى هذه المدينة ، أنت من أصحاب

السوابق . هل نسيت أنك وجهت إلى فتاة طاهرة نقية تعمل فى أحد المطاعم كلاماً لا ينطق به سوى شخص مجرد من الحياء عديم الأخلاق ؟ ألم تطلب منها أن تؤنسك فى وحدتك فى منزلك ؟ ماذا كنت تنوى أن تفعل بهذه الفتاة البريئة الفاضلة ؟

– فقال (ميم) :

– لم أكن أنوى أن أفعل أى شىء . لم تدر بخلدى أية فكرة دنسة . كنت أنوى التحدث معها بضع لحظات ولا شىء غير ذلك . . إننى . .

فقاطعه القاضى صائحاً :

– اسكت ، لا تتكلم ، أنت كثير الكلام وأنا لا أحب الثرثرة .

فلاذ (ميم) بالصمت وأطرق القاضى للأرض بضع لحظات ثم رفع رأسه وقال :

– حكمت المحكمة التأديبية العليا عليك بالسجن والعذاب لمدة أسبوع !

وأراد (ميم) أن يقول شيئاً فأخذ يفتح فمه ويغلقه عدة مرات ، ولكنه لم يستطع النطق . قام القاضى واختفى داخل الباب الذى خرج منه وأمسك رجل الشرطة بذراع (ميم) ، وجره بعنف وخرجا من القاعة . لم يشعر (ميم) بشىء بعد ذلك ، فلقد أحس بإعياء شديد وخارت قواه وسقط مغشى عليه . وعندما أفاق وجد نفسه ملقى على أرض غرفة ضيقة ليس بها سوى نافذة واحدة صغيرة الحجم بالقرب من السقف وبها قضبان حديدية تقسمها إلى مربعات دقيقة ، كانت الغرفة خالية من الأثاث . ودارت الأفكار فى رأس (ميم) :

لست أدرى ! ربما كان السجن أهون من الحياة فى هذه المدينة ، يكفى

أننى سأستريح من ضرب السياط والدوران فى الطاحونة بضعة أيام حتى تندمل جراحى . لن يطالبنى أحد هنا بدفع أجر طعامى ، ولكن ماذا ستفعل زوجتى فى هذه المدينة ؟ وأين اختفت ؟ وماذا يكون مصيرها ؟ إنها فتاة جميلة تضمد جراحى وتؤنس وحدتى ، ولكننى عجزت عن دفع ثمن طعامها ! إننى فى السجن الآن بسببها ، لو كنت بمفردى ما طمعت فى طلب المزيد من الأجر . وماذا أفعل فى المستقبل ؟ . . ترى من الذى كانت تتحدث معه زوجتى فى التليفون ؟ هل من المعقول أن تكون على اتصال برجل غيرى ؟ هذا شىء بعيد الاحتمال ! فجميع أهل المدينة أطهار أبرار لا يرتكبون الفاحشة ولا يعرفون الخيانة ، ولكن لماذا اختفت هذا الصباح ولم أجدها فى البيت ؟ وما ذلك الجزء الخلفى من المدينة الذى ذكره لى الخادم ؟ كنت أتمنى أن أحصل على إجابة لسؤال عن الجزء الخلفى من المدينة عن طريق مكتب الاستعلامات ، ولكن لم أجد إجابة عن هذا السؤال . ليتنى ما سألت السؤال الأول الذى كان سبباً فى دخول السجن . . لو لم أسأل السؤال الأول . لحصلت على إجابة السؤال الآخر . . . ولكن هل من المعقول أن للمدينة جزءاً خلفياً ؟ . أنا لا أرى سوى هذا الشارع . . إنه الشارع الوحيد بالمدينة على ما أعلم . . عندما يطلق سراحى من هذا السجن سأبحث بنفسى عن هذا الجزء الخلفى من المدينة ، فربما أجد فيه راحتى من هذا العذاب . . . ولكن كيف يعيش الناس فى هذه المدينة ؟ إن جميع من رأيتهم يعيشون فى بذخ ورفاهية فهل يتقاضون عن دورانهم فى الطاحونة أجراً أعلى من الذى أتقاضاه ؟ ولماذا يبخس أجرى ويخصم حتى وأنا إنسان طيب أتيت إلى هذه المدينة لأبحث عن الحقيقة ؟

في هذه اللحظة صرخ (ميم) صرخة فزع ، فلقد رأى ثعباناً ضخماً يزحف نحوه فانتفض واقفاً محاولاً الهرب منه ، ولكنه لم يجد منفذاً فالباب مغلق والنافذة الوحيدة لاتصلح للخروج ، وانساب الثعبان نحوه في رشاقة والتف حول ساقه ، وأخذ (ميم) يحرك ساقه في حركات سريعة محاولاً التخلص منه ، ولكن بلا جدوى ! وأبصر ثعباناً آخر يتسلل نحوه من النافذة يتبعه سرب من الثعابين حتى امتلأت الغرفة بهذه الزواحف البشعة ، فأخذ (ميم) يصرخ ويدق على الباب بعنف وشعر بثعبان يزحف على صدره ، ويتسلل من كتفه إلى الأمام ، ثم يلتف على وسطه . فأخذ يدور في الغرفة صارخاً حتى أرهقه التعب ، وخارت قواه ، فارتمى على الأرض يائساً مستسلماً لتلك الأفاعي تفعل به ماتشاء . ثم ما لبث أن غاب عن وعيه ، فأنقذه هذا من العذاب والرعب الذي يرزح تحت وطأته .

في هذه اللحظة سمع دقات عنيفة على الباب فقام مذعوراً ورأى باب غرفته يفتح ويطل منه وجه رجل قال له الرجل :

– استعد لمغادرة الغرفة ، لقد صدر أمر بالعفو عنك .

ففرح (ميم) لهذا النبأ واندفع نحو الباب ليخرج ، ولكن الرجل منعه من الخروج قائلاً :

– ليس الآن . ستخرج بعد عشر دقائق .

وأغلق الباب ، فرجع (ميم) إلى مكانه والثعابين تلتف حوله ، وما لبث أن غاب عن وعيه مرة أخرى من فرط الرعب .

عندما عاد إلى وعيه وفتح عينيه لم ير سوى الظلام . فأيقن أنه فقد بصره .

وظل على هذا الاعتقاد إلى أن فتح باب الزنزانة وأطل منه رجل يحمل في إحدى يديه مصباحاً يبعث منه ضوءً قوي وفي اليد الأخرى وعاء به كمية من الأرز المسلوق ، وعلى ضوء المصباح تمكن (ميم) من رؤية مجموعة كبيرة من الثعابين في الزنزانة .

صاح (ميم) مخاطباً الرجل :

– أخبرتني أن أمراً قد صدر بالعفو عني فلماذا لم يفرج عني حتى الآن ؟

فقال الرجل :

– لقد ألغي قرار العفو عنك ، وعليك أن تبقى إلى حين صدور أوامر أخرى !

فشعر (ميم) بصدمة عنيفة وصاح قائلاً :

– ومتى يفرج عني ؟.

قال الرجل :

– لا أحد ! يدرى قد يفرج عنك بعد لحظات ، وقد يفرج عنك بعد شهور ، وقد لايفرج عنك مطلقاً !

فانهار (ميم) وأخذ يهذى بكلام غير مفهوم . وضع الرجل وعاء الأرز أمام (ميم) دون أن يتكلم ، وخرج وأغلق الباب وأطبق الظلام على الزنزانة من جديد ، فصار (ميم) يتحسس بيده حتى عثر على وعاء الأرز والتهمه سريعاً ، ثم سرت في جسده رعدة عندما تصور أسراب الثعابين التي تنساب حوله في الظلام . ليس من المعقول أن يمضي له حقن وهذه الزواحف الكريهة تشاركه في المسكن ! وشعر بشيء يطير ويصطدم هو وجدار الزنزانة ، وامتلأت الغرفة

الضيقة بهذه الكائنات التى تطير وترتطم هى والجدران . تخشى أن تصدم وجهه ، شعر بواحد منها يمرق سريعاً من أمامه ، ويكاد يلمس أنفه ، فوضع كفيه على وجهه ليحميه ، وانسابت الدموع من عينيه ، وفكر فى تقديم شكوى لمالك المدينة ، بمجرد إطلاق سراحه فهو لم يرتكب إثماً يستحق أن يعاقب من أجله هذا العقاب الشديد ، إذ من حق أى إنسان أن يطالب برفع أجره ليتناسب هو وتلك الأسعار التى ترتفع فى كل لحظة ارتفاعاً يصيب الرأس بالدوار ! وقد أصبح عاجزاً عن الحياة فى هذه المدينة . ولكن أين يذهب ؟ وأين ذلك الجزء الحلو من المدينة الذى ذكره الخادم ؟ وهل الحياة فى هذا الجزء الحلو أقل قسوة من الحياة فى هذا الشارع الذى لا يعرف سواه ؟ وبينما تدور هذه الأفكار فى رأس (ميم) بدأ الضوء يتسلل إلى الزنزانة من خلال النافذة الضيقة . لقد طلع النهار .

سمع (ميم) صوت باب الزنزانة يفتح وأطل منه الرجل الذى سبق أن أحضر له الطعام وركله بقدمه بقوة فأصابت الركلة ظهر (ميم) ، وقال الرجل :

– هيا قم واتبعنى .

فقام (ميم) وخرج من الزنزانة وسار خلف ذلك السجان ، وظلاً سائرين فى دهليز طويل مظلم حتى وصلا إلى غرفة على يسار بابها لافتة مكتوب عليها « مأمور السجن » . فتح السجان الباب وطلب من (ميم) الدخول بمفردة ، فوجد نفسه فى غرفة فسيحة ذات أثاث فاخر ، وحاجز يختفى خلفه مكتب طويل عريض يجلس خلفه رجل أميل للبدانة أصلع الرأس أفطس الأنف قصير العنق يرتدى حلة سوداء بها خطوط حمراء . وقف (ميم) أمام الرجل مطرقاً للأرض

ظل مأمور السجن ناظراً إلى (ميم) وكأنه يتلذذ برؤيته فى هذه الحالة من الرعب ملتزماً الصمت لثلاث دقائق ثم قال :

– ورد الأمر بالإفراج عنك .

فقال (ميم) وهو غير مصدق لما سمعته أذناه :

– أنا . . . سيفرج عنى الآن . . . ؟

فقال المأمور :

– سيفرج عنك فوراً .

ولزم المأمور الصمت نحو دقيقة ثم قال :

– شخص لم يشأ أن يفصح عن اسمه توسط لك لدى أحد المسئولين ، واستصدر منه أمراً بالإفراج عنك .

ثم أشار بيده محذراً وقال :

– ولكن حذار . . حذار أن تسول لك نفسك الأمارة بالسوء أن تطالب برفع أجرك مرة أخرى . فاهم ؟

فقال (ميم) وهو مطرق للأرض :

– لن أعود لارتكاب مثل هذه الجريمة .

فدق مأمور السجن بيده الغليظة على المكتب وقال :

– هيا اغرب عن وجهى ، وإياك أن تعود لمثل هذه الجريمة مرة أخرى حتى لا نضطر لإقامة محكمة من أجلك . هذا المبنى يستخدم كمدرسة ، وأنت المسئول عن تعطيل الدراسة وتحويل المبنى إلى محكمة وسجن . وسوف يعود مدرسة كما كان ، لا نريد أن يتحول إلى محكمة مرة أخرى بسببك .

١٣

انطلق (ميم) يعدو غير مصدق أنه قد أصبح حرًّا طليقاً . كان كمن استيقظ من كابوس رهيب أطبق على أنفاسه ، وزلزل كيانه ، وأخذ يفكر :

ترى من ذلك الشخص الذى توسط لى لدى أحد المسئولين للإفراج عنى ؟ ولماذا يريد أن يظل مجهولاً ؟ لم يكن فى طاقتى قضاء ليلة أخرى فى السجن ! لقد اعتقدت فى لحظة من هذه اللحظات الرهيبة أنهم قرروا تنفيذ حكم الإعدام فىَّ عن طريق الرعب الذى لا يحتمل ! إنى الآن فى شوق لمنزلى وزوجتى .. ترى ماذا حدث لها ؟ وكيف قضت تلك الليلة وأنا بعيد عنها ؟ ترى هل عادت إلى المنزل أو هجرتنى ؟

ووصل إلى منزله ، وأدار مفتاح الباب وإذا بزوجته تنادى من عند قمة السلم قائلة فى فزع :

- من ! من الذى دخل ؟

فرح (ميم) عندما سمع صوت زوجته وقال :

- أنا زوجك .

فصاحت فى لهفة وهى تهبط السلم قفزاً :

- أهلا يا حبيبى . أحمد الله على سلامتك .

واحتضنته وتبادلا القبلات وقالت :

- لم يغمض لى جفن طوال الليل وأنت بعيد عنى .

فقال (ميم) بصوت ضعيف .

- ولا أنا .

جلس (ميم) على أحد الكراسى وجلست زوجته على الكرسى المقابل له ، وتعجب عندما رأى الكراسى قد ازداد عددها فى البهو ، فأصبحت أربعة بدلاً من كرسيين ، قالت زوجته :

- قرأت خبر القبض عليك فى صحيفة « غراب البين » فأسرعت إلى الرجل الذى كنت أعمل عنده ورجوته أن يتوسط لك ليفرجوا عنك . لم أكن أحتمل البعد عنك أسبوعاً بأكمله .

فنظر (ميم) إليها مبتسماً وقال :

- إذن أنت التى سعيت للإفراج عنى .

- ومن يكون غيرى ؟ لا أحد فى المدينة يهمه أمرك سواى . وجودك بيننا ضرورى لرعاية الأولاد !

فى هذه اللحظة هبط السلم (طفلة) وطفل شبه عاريين فى نحو السابعة من عمرهما وكأنهما توءمان فبدت الدهشة على وجه (ميم) وقال :

- من هذان الطفلان ؟

قالت الزوجة والفرحة تطل من عينيها :

- إنهما ابننا وابنتنا يا حبيبى .

ونادت الطفلين قائلة :

- تعال يا « فاء » وأنت يا « باء » سلما على أبيكما بعد أن طالت غيبته . فأسرعت (الطفلة) وعانقت (ميم) وقبلته ثم عانقه الطفل ، وقبّلت

(الطفلة) ، وجلست على فخذيه و(ميم) ينظر إلى زوجته وإلى الطفلين في ذهول ، فنظرت إليه نظرة قاسية وقالت :

– لا تبدو عليك الفرحة بأولادك . لم أر في حياتي أبا لا يفرح لرؤية أولاده !

فقال (ميم) بعد أن استجمع قواه وأفاق من الصدمة :

– ومتى ولد هذان الطفلان ولم يمض على زواجنا سوى يوم واحد ، هل في خلال يوم واحد قضيته في السجن ولد لنا طفلان وأصبحا في هذه السن ؟

فقطبت الزوجة حاجبيها ودمعت عيناها وقالت :

– يجب أن نشكر مالك المدينة لأنه صنع لنا هاتين الدميتين الجميلتين ، إنهما هدية منه .

في هذه اللحظة طوقت (الطفلة) عنق أبيها وقالت :

– أين كنت يا بابا ؟ لقد اشتقت إليك !

فقال (ميم) :

– كنت في السجن .

فالتفتت الطفلة إلى (جيم) وقالت :

– ما معنى السجن يا ماما ؟

فقالت الزوجة :

– معناه الوحدة والعذاب .

قالت (الطفلة) باكية :

– أنا لا أحب أن يعذب بابا .. أنا أحبه .

وبكى الطفل وقال :

– وأنا لا أحب أن يعذب بابا .. بابا حبيبي .

فاحتضنتهما الزوجة وقبلتهما وقالت :

– بابا حبيبكما لن يعذب بعد اليوم ، وجودكما سيجلب له السعادة ، ويملأ قلبه بالفرح .

قالت (الطفلة) :

– ماما أخبرتني أنك عندما تعود يا بابا ستحضر لي ملابس جميلة تستر جسدي .

وقال الطفل :

– وأنا يا بابا ، ماما أخبرتني أنك عندما تعود ستحضر لي ملابس جميلة تستر جسدي .

نظر (ميم) إلى الطفلين فوجدهما آية في الجمال تشع البراءة من عيونهما فاحتضنهما وقال :

– سأحضر لكما كل شيء ، سأحضر لكما كل ما تريدان ، أنا أحبكما .

ودمعت عيناه فالتفت إلى زوجته وقال :

– هل من الممكن أن أعرف كيف أصبحت أبا ؟

قالت زوجته وفي عينيها بريق السعادة :

– كنت في المنزل وحدي ، في انتظارك ، وسمعت جرس الباب يدق ، فحسبت أنك عدت . فأسرعت بفتح الباب فلم أجدك بل وجدت هذين الطفلين عرايا تماماً ! شعرت بعطف شديد عليهما وحب عنيف لهما وسألتهما

« من أنها » فقالا : « لقد أرسلنا مالك المدينة إليكما ، لتصبح أولادكما ولتطلقا علينا ما تشاءان من أسماء ! » فأطلقت على (الطفلة) اسم « فاء » ليصبح اسمها الكامل « فاء ميم نون » ، وحيت الطفل « باء » ليصبح اسمه الكامل « باء ميم نون » ، ورحبت بهما وقبلتهما وأدخلتهما المنزل ! ولما رآهما الخادم رق قلبه لها عندما وجدهما بلا ملابس إطلاقاً ، فأحضر لى قميصاً قديماً من قمصانه صنعت منه قميصين صغيرين مؤقتاً إلى حين عودتك لتحضر لهما ملابس لائقة تستر جسديهما ، ولقد أحضر لنا الخادم كرسيين آخرين وسريراً لها !

في هذه اللحظة بكت (الطفلة) فاحتضنتها أمها في حنان وقالت :

– لماذا تبكين يا حبيبتي ؟ لماذا تبكين ؟

فقالت (الطفلة) وهي لاتزال تبكي :

– أنا جوعى .

وقال الطفل :

– وأنا جوعان .

فقالت لها الأم :

– سيحضر أبوكما طعاماً لكما حالاً .

وقالت لزوجها :

– هيا يا حبيبي أخرج وأحضر لها طعاماً .. إنهما مسكينان لم يتناولا أي طعام منذ حضورهما .. لقد انتظرتك طويلاً .

فأطرق (ميم) إلى الأرض لحظة دارت في رأسه في أثنائها أفكار عديدة سوداء ! إنه لا يملك مليماً ويشعر بإرهاق شديد عقب تلك الليلة المرعبة

التي قضاها في السجن ، ولن يستطيع الدوران في الطاحونة إلا بعد زوال هذا الإرهاق ، ولكنه لابد أن يحصل على المال اللازم لغذاء وكساء الطفلين المسكينين فقال لزوجته وهو لا يزال مطرقاً للأرض :

– وبالذات أليس بها بعض اللبن لتغذية الطفلين في الوقت الحاضر ؟

قالت الزوجة في دهشة :

– ثدياي لتغذيتك أنت يا حبيبي وليسا لغذاء الأطفال !

قال (ميم) وفي صوته رنة حزن :

– غذاء الطفلين أهم من متعتي : لا يمكنني الشعور بأية متعة وهما جائعان .

قالت الزوجة عابسة غاضبة :

– أنت المسئول عن غذائهما لا أنا !

ثم تهدج صوتها وهي تقول :

– إنك تهينني وتجرح مشاعري .

وانخرطت في بكاء عنيف ، فأسرع إليها الطفلان في فزع وأخذا يقبلانها ويمسحان دموعها ، فقالت وهي تشهق بالبكاء :

– ليس من يمسح دموعي غيرهما .

فقام (ميم) وأخذ يقبلها ويسترضيها حتى كفت عن البكاء وقال لها :

– سأخرج لأدور في الطاحونة لأحصل على المال اللازم لغذائهما وكسائهما .

واندفع خارجاً من المنزل يعدو نحو الطاحونة ، وتجمع عدد كبير من الأطفال يجرون خلفه ويصيحون . لم يشعر بغضب أو نفور من الأطفال في هذه المرة كما حدث في المرات السابقة ، وتجمعوا عند باب الطاحونة .

جمع الحارس من الأطفال قدراً كبيراً من المال أجراً لفرجتهم على (ميم) أثناء دورانه في الطاحونة . وظل يدور حتى خارت قواه ، فتوقّف عن الدوران . أعطاه حارس الطاحونة العشرين قرشاً المعتادة . وبينما (ميم) يهم بالخروج من الطاحونة وجد زوجته وطفليه الشبيهين بالعاريين يقتحمون الطاحونة ، فشعر بخجل شديد ، وقال لزوجته في انفعال :

– لماذا حضرت هنا ؟ هل جئت أنت أيضاً للاستمتاع برؤيتي وأنا أدور في الطاحونة وأضرب بالسوط ؟

قالت الزوجة :

– كلا يا حبيبي ، لقد حضرت لأعطيك حقك .

والتفتت إلى حارس الطاحونة وصاحت في وجهه قائلة :

– كيف تستغل دوران زوجي في الطاحونة لتجمع النقود من الأطفال أجراً لفرجتهم عليه ؟ هذه النقود من حق أنا ، وليست من حقك !

وهجمت على النقود التي جمعها الرجل فاختطفتها وحارس الطاحونة ينظر إليها في ذهول دون أن يتحرك .

خرج (ميم) من الطاحونة بصحبة طفليه وزوجته التي ظلت قابضة على النقود بأصابعها ثم سلمتها لزوجها قائلة :

– خذ عدّ هذه النقود .

فأخذ (ميم) يعدها وهو غير مصدق أنه قد أصبح مالكاً لكل هذه الكمية من النقود . وبعد أن انتهى من عدها قالت له زوجته في لهفة :

– كم وجدتها ؟

فقال :

– ثلاثة جنيهات وثلاثين قرشاً !

قالت الزوجة :

– إنها أكثر من الأجر الذي تتناوله عن الدوران في الطاحونة لنصف شهر . كان هذا اللص يريد أن يستولي عليها ! لا مكان في هذه المدينة للصوص . سأرفع أمره للمسئولين لينال ما يستحقه من العقاب والتعذيب . هل سبق له أن فعل ذلك ؟

فقال وهو شارد الذهن :

– فعل ماذا ؟

– هل سبق لهذا اللص أن استغل دورانك في الطاحونة للحصول على المال ؟

– نعم ، فعل ذلك عدة مرات .

– شيء جميل ! أنت تدور في الطاحونة وتضرب بالسياط وهو يقبض !

وسارا في الشارع ويصحبهما (الطفلة) والطفل فوقفت المارة يتفرجون عليهم ، وأطل الناس من الشرفات لرؤية هذا المشهد العجيب ! أب وأم ومعهما طفلان شبه عاريين ، وصاح شخص من إحدى الشرفات قائلاً :

– يا للقسوة ! أب يترك طفليه عاريين !

وصاح ثان قائلاً :

– يا للعار ! هل يترك الأب ابنه وابنته عاريين ؟ ياله من أب نذل حقير !

وصاح ثالث قائلاً :

— اكسى أولادك أيها الأب القاسى القلب .

وتوالت أصوات عديدة تردد المعنى نفسه فشعر (ميم) بخجل شديد ، وقال لزوجته :

— سأحمل الطفل وأحمل أنت (الطفلة) وهيا نسرع لنشترى لها ملابس لائقة .

حمل كل منهما طفلاً وأخذا يعدوان فى الشارع بحثاً عن محل لشراء الملابس والشتائم تنهال على (ميم) كالمطر من المارة ومن الشرفات . وأخيراً وجدا متجراً كبيراً لبيع الملابس الجاهزة ، فوقفا يتأملان الأسعار فى واجهة المحل . وجد أن ثمن الكساء الواحد ستون قرشا ، ولكن حدث شىء عجيب : كانت الأسعار تتغير من تلقاء نفسها فأصبح ثمن الكساء سبعين قرشاً وبعد فترة قصيرة أصبح الثمن خمسة وسبعين قرشا ! بدت الأسعار كأنها مكتوبة على أسطوانة دائمة الدوران ، وكلما دارت ظهر رقم جديد أعلى من الرقم السابق ! فأسرع (ميم) بدخول المحل مهرولاً قبل أن يستفحل الأمر وخلفه زوجته تجر الطفلين كلحق به . وعندما وصل (ميم) إلى المكان الخاص بتلك الملابس كان سعر الكساء قد أصبح جنيهاً ! دفع (ميم) جنيهين ثمناً للكساءين ، وارتدى الطفلان كساءيهما الجديدين وخرج من المحل . قالت (الطفلة) باكية :

— أنا جوعى .

فبكى الطفل وقال :

— وأنا جوعان .

فقالت الزوجة لزوجها :

— هيا نسرع بشراء طعام قبل أن نعجز عن شرائه .

فحملا الطفلين ، وأسرعا نحو دكان يبيع طعام الأطفال ، ففرح (ميم) عندما وجد أن ثمن كمية معقولة من طعام الأطفال لا يتجاوز المبلغ الباقى معه ، فدفع جنيهاً ثمناً لهذا الطعام ، وقالت الزوجة :

— ونحن .. أنا وأنت .. ألن نأكل ؟

فقال (ميم) وهو شارد الذهن .

— سآكل طبعاً .

فقالت الزوجة وفى لهجتها شىء من السخرية :

— متى ؟

— الآن ، هيا بنا إلى المطعم .

— كم بقى معك من النقود ؟

— خمسون قرشاً .

— وهل تعتقد أن هذا المبلغ يكفى طعاما لنحن الاثنين ؟

— أعتقد ذلك ، ربما نجد مطعماً رخيصاً .

— كلا .. لن يكفى .

— كلى أنت وأؤجل أنا طعامى للغد .

وهل يطيب لى الطعام وأنت جوعان يا حبيبى ... كلا ... لن آكل بمفردى .

ثم قالت وكأنها تذكرت شيئاً هاماً :

— اسمع ، لدى فكرة .

– ما هى ؟

الطعام فى المطاعم أصبح باهظ الثمن ، فلماذا لا نشترى بعض الطعام وأقوم بطهيه بنفسى فى المنزل ؟ أنا طاهية ماهرة كنت أطهو الطعام للرجل الذى كنت أعمل عنده . هل تذكر الطعام الذى تناولته هناك ، إنه من صنع يدى .

فصاح (ميم) وقد شعر بشىء من الارتياح :

– فكرة هائلة .

اشترى (ميم) بعض الخضروات وثلاث قطع من عظام الساق ، لتصنع منها زوجته بعض المرق ورغيفين من الخبز وبقى معه عشرة قروش .

وفى المساء بعد تناول الطعام وتغذية الأطفال جلس (ميم) فى البهو وصعدت الزوجة إلى الدور العلوى لتضع الطفلين فى سريرهما ، وبعد أن ناما تركتهما وهبطت السلم وجلست مع (ميم) . ودارت الأفكار فى رأسه . تذكر عندما استيقظ من النوم فلم يجد زوجته فى المنزل وعندما أخبره الخادم أنها ربما تكون قد ذهبت إلى الجزء الخلفى من المدينة . وتذكر أنه عندما أراد أن يستفسر من مكتب الاستعلامات عن هذا الجزء الخلفى من المدينة ، لم يتلق الإجابة لأن سؤاله الأول عن سبب عدم زيادة أجره عن دورانه فى الطاحونة أحدث ضجة عنيفة كان من نتيجتها أن زُج به فى السجن ، فرغب فى الاستفهام من زوجته عن ذلك الجزء الخلفى من المدينة فقال :

– أين كنت عندما استيقظت من نومى فلم أجدك فى المنزل ؟

فقالت الزوجة وكأنها لا تذكر شيئاً عن هذا الموضوع :

– أنا لم تجدنى بالمنزل ؟ متى ؟

فقال (ميم) :

– فى صباح اليوم الذى دخلت فيه السجن استيقظت من نومى فلم أجدك ، وأخبرنى الخادم أنك ربما تكونين قد ذهبت إلى الجزء الخلفى من المدينة . فهل لهذه المدينة جزء خلفى لا أعرف عنه شيئاً ؟ أنا أعلم أن المدينة تتكون من شارع واحد !

فضحكت الزوجة وقامت وطوقت (ميم) بذراعيها وقبلته فى فمه قبلة طويلة ثم عادت إلى مكانها وقالت :

– لا تسمع كلام هذا الخادم المعتوه ، إنه يهذى ، المدينة تتكون من شارع واحد هو هذا الشارع الجميل الذى نعيش فيه يا حبيبى ولا شىء سواه !

قال (ميم) وقد ساوره شعور بأن زوجته تخفى عنه شيئاً :

– يخيل إلىّ أن الرجل ليس معتوهاً ولم يكن يهذى ! ربما يكون للمدينة جزء خلفى لا نعلم عنه شيئاً نحن الاثنين ، فلماذا لا نتحقق بأنفسنا من هذا الأمر ؟ ربما يكون الغلاء فى الجزء الخلفى أخف وطأة منه فى هذا الشارع .

فقامت الزوجة ، وجلست على فخذى (ميم) وطوقته بذراعيها وقالت :

– دع عنك هذه الأوهام يا حبيبى ، ولا تحاول البحث عن شىء لا وجود له .

رأى (ميم) عدم جدوى الاسترسال فى هذا الحوار فلاذ بالصمت ، وظلت زوجته على فخذيه تداعبه ، فأخذها من يدها وصعدا معاً إلى غرفة النوم .

فى نحو منتصف الليل صحا ميم من نومه مرعوباً على أثر صرخة ندت من (الطفلة) أعقبها بكاء وصراخ ، ثم صحا الطفل وأخذ يصرخ ويبكى .

فأسرع إليهما (ميم) على حين بقيت الزوجة مستغرقة فى نومها وكأن شيئا لم يحدث ، احتضن (ميم) الطفلين وسألها :

ماذا حدث يا حبيبتى ؟ ماذا حدث يا حبيبى ؟

قالت (الطفلة) باكية :

– الثعبان .. الثعبان يجرى خلفى !

فتعجب (ميم) . هل ترك الثعابين فى السجن لكى تطارد (طفلته) فى أحلامها ؟ وقال (للطفلة) :

– لا ثعابين هنا ياحبيبتى .

فقالت (الطفلة) وهى لاتزال تصرخ وتبكى والطفل يصرخ ويبكى لصراخها :

– الثعابين كانت تجرى خلفى :

ويبكى الطفل وقال :

– أين ماما ؟ أريد ماما .

فحاول (ميم) أن يوقظ زوجته من نومها ، ولكنها ظلت مستغرقة فى النوم ، وانقلبت على جانبها الأيسر وعلى شفتيها ابتسامة ، فتعجب (ميم) ، كيف لا تصحو وهذه الزوبعة من الصراخ والعويل تهز أركان الغرفة ؟ وأخذ يهدئ الطفلين ويغنى لها ويمسح على رأسيهما ، وبعد مجهود عنيف عاد الهدوء إليهما ، وبدأ النوم يداعب جفونهما ثم ناما .

عاد (ميم) إلى سريره وتمدد بجوار زوجته التى لم تشعر بما حدث ، وظلت مستغرقة فى نومها تبتسم ، ولا يدرى لماذا تبتسم ، وأدارت ظهرها لزوجها ، وانقلبت على الجانب الآخر .

ظل (ميم) ساهراً متوقعاً صراخ الطفلين من جديد فى أية لحظة ، وبعد نحو ساعة غلبه النوم فنام ، ورأى فى منامه أنه يدور فى الطاحونة والعرق يتصبب منه ، ثم شعر بسوط يهوى على جسده وتحدث فرقعة هائلة أشبه بفرقعة الرعد فصحا من نومه منتفضاً ووجد الطفل يصرخ ويبكى قائلاً :

– الأسد .. الأسد سيأكلنى .. الأسد سيأكلنى !

ثم صحت (الطفلة) صارخة باكية ببكاء أخيها ، وأخذ (ميم) يهدئهما ويحضنهما حتى عاد الهدوء إليهما وناما ، والزوجة نائمة لم تشعر بشىء فى هذه المرة أيضاً ! وأخذ (ميم) يفكر ويتعجب . أين رأت ابنته الثعبان ؟ .. وأين رأى ابنه الأسد ؟ . إنهما لا يعرفان شيئاً فى الوجود فكيف عرفا الثعبان والأسد ؟ وبعد نحو ساعة نام (ميم) ، ولكن لم يطل نومه ، فلقد صحا بعد نحو ساعة فوجد الطفلين نائمين ، ولكنه لم يجد زوجته بالغرفة ، فقام فى هدوء وأخذ يبحث عنها فى جميع أنحاء الطابق العلوى فلم يجدها ، هبط السلم على أطراف أصابعه فوجد شيئاً عجيباً لم يكن يخطر له على بال . وجد زوجته مرتدية قميص النوم الشفاف تفتح باباً خلفياً لم يره من قبل ، ولم يكن يعلم عنه شيئاً وتسللت من ذلك الباب ، فتركها تخرج وأقفلت الباب خلفها ، وبعد فترة أخذ (ميم) يعالج هذا الباب حتى فتحه ، وخرج منه فوجد نفسه فى الجزء الخلفى من المدينة . ذلك الجزء الذى أنكرت زوجته وجوده ، ها هى ذى تتسلل إليه عند طلوع الفجر . وتعجب كيف قضى كل هذه الأيام فى المدينة وهو لا يعلم شيئاً عن هذا الجزء المترامى الأطراف ؟

١٤

كان أول ما شعر به (ميم) فى هذا الجزء الخلق تلك الروائح الكريهة التى تفوح من مصادر مجهولة، ورأى الشوارع طويلة ملتوية والأرض ملوثة بالوحل والقاذورات. سار فى أحد تلك الشوارع باحثاً عن زوجته. كانت المساكن على الجانبين قديمة رثة والشرفات متداعية. ظل سائراً حتى وصل إلى ميدان يتوسطه مستنقع قذر، وأبصر على ضوء الفجر رجلاً شبه عارٍ يسير خلفه، فشعر بالخوف، وأسرعت دقات قلبه، اختبأ فى أحد الأركان المظلمة فى مكان يسمح له برؤية ذلك الرجل دون أن يتمكن الرجل من رؤيته. تذكر (ميم) أنه سبق أن رأى هذا الرجل، ولكنه لا يذكر أين رآه، وأضاءت ذاكرته فجأة، فتذكر الرجل وتذكر المكان الذى رآه فيه. إنه الواعظ، نعم، إنه هو بعينه ولا أحد سواه. ذلك الواعظ الذى قال: إن المدينة لم ترتكب فيها أية جريمة من أى نوع، ولم يحدث فيها ما يتنافى مع القيم الأخلاقية الرفيعة، وأن المدينة لم تعد فى حاجة إلى وعظ وإرشاد. وقف هذا الرجل وأخذ يتلفت حوله. ورأى (ميم) فتاة جميلة ترتدى قميص نوم شفافاً تقبل نحو الرجل. وتقابل الرجل والفتاة. وعند ذلك رأى (ميم) الفتاة ترقص، وبعد لحظات هجم عليها الرجل واحتضنها، وأخذ يقبلها فى فمها ووجهها ورقبتها وصدرها، ثم حملها وسار بها وهى تضحك ضحكات خليعة، فسار (ميم) خلفهما، دون أن يشعرا

بوجوده مشدوهاً لا يصدق ما يراه. وانعطف الرجل حاملاً الفتاة واختفيا فى زقاق ضيق.

سار (ميم) مذهولاً من هول ما رأى، ثم خطرت له فكرة جعلت الدنيا ظلاماً فى عينيه. إنه لم يتحقق من وجه الفتاة، أليس من الممكن أن تكون زوجته؟ فرجع ودخل الحارة وأخذ يتسلل محاولاً النظر من خلال الباب الذى رآهما يدخلان منه، ولكنه رأى الباب مفتوحاً على مصراعيه والرجل والفتاة يتطارحان الغرام فى بهو المنزل. أجفل (ميم) عندما التقت عيناه وعينا الرجل وشعر بخجل شديد وظن أن الرجل سيفزع ويستحى، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث. لقد ابتسم الرجل (لميم) وحياه بإيماءة من رأسه، واستمر يطارح الفتاة الغرام بلا حياء أو حرج! لم يتمكن (ميم) من رؤية وجه الفتاة بوضوح، فلقد كان جزء كبير من وجهها مختبئاً خلف كتف الرجل، ولكنها عندما حركت رأسها تمكن من رؤية وجهها، وشعر ببعض الراحة النفسية عندما وجدها فتاة أخرى غير زوجته، ولكن هذه الراحة النفسية لم تدم طويلاً، أليس من الممكن ما دام الأمر كذلك أن تكون زوجته فى هذه اللحظة بين أحضان رجل آخر؟

ظلت الهواجس والأفكار تعربد فى ذهن (ميم)، كيف يحدث هذا فى هذه المدينة التى نبذه فيها الجميع وأشاحوا بوجوههم عنه أينما سار لمجرد أنه طلب من فتاة المطعم أن تؤنس وحدته ولم يكن يضمر لها أى سوء؟ وكيف عاش طوال هذه المدة وهو لا يعرف شيئاً عن هذا الجزء من المدينة؟ إن هذا الجزء

الخلق يبدو وكأنه لا نهاية له ، كان يظن أن المدينة ما هي إلا ذلك الشارع الذي يعيش فيه ويدور في طاحونته على حين تكشف له الآن أن ذلك الشارع ما هو إلا جزء ضئيل هو واجهة المدينة ، على حين يلتف هذا الجزء الخلق حول الشارع من جميع الجهات فيبدو الشارع وكأنه جزيرة صغيرة تتوسط بحيرة !

أشرقت الشمس وغمر الضياء المدينة ، وظل (ميم) سائراً على غير هدى يبحث عن زوجته وقد استبد به القلق . ترى أين هي الآن ؟ ولماذا تترك زوجها وطفليها وتتسلل إلى هذا الجزء الخلق العجيب ؟ ماذا تفعل هنا ؟ إن ما رآه يثير الفزع ويدعو للشك ، كان يظن أنه علم كل شيء عن المدينة فإذا به يكتشف الآن أنه لا يعلم عنها شيئاً !

وما هذه الروائح الكريهة التي تصدم أنفه أينما سار في هذا الجزء الخلق ؟ شتان بينها وبين رائحة الورد والياسمين التي تنبعث في جميع أنحاء الشارع ! كانت هذه الأفكار تدور في رأس ميم ، ومر عليه في هذه اللحظة سرب من الفتيات لا يضعن على أجسادهن سوى قمصان النوم الشفافة . عندما رأينه أحطن به وهن يرقصن رقصات فيها عنف وشهوة . فأشاح بوجهه مبتعداً عنهن وتركهن وهن ينظرن إليه في دهشة ، واستمر (ميم) يسير على غير هدى في شوارع طويلة ملتوية .

بدأت الشوارع تمتلئ بالمارة شيئاً فشيئاً ، ولاحظ (ميم) أن بعض المارة شبه عراة والبعض يرتدي ملابس النوم ، كل ما في هذا الجزء من المدينة يبدو أقرب إلى العري ، حتى المنازل تبدو عارية بطوبها الأحمر العاري الذي

لا يكسوه طلاء . واعترض طريقه شاب نحيل شاحب الوجه أشعث الشعر صوب نحو (ميم) يداً مرتجفة ، ولكنها تحمل مسدساً وصاح قائلاً :

– كم معك من النقود ؟

فارتجف (ميم) وتحسس جيوبه فلم يجد بها سوى عشرة قروش ، فقال والفزع يطل من عينيه :

– معي عشرة قروش .

فضحك الشاب وقال ساخراً :

– رجل مثلك يسير وليس معه سوى عشرة قروش !

ثم صاح وارتسمت على وجهه علامات الشراسة . ولو أن يده لا تزال ترتجف :

أعطني القروش العشرة .

فأخرج (ميم) القروش العشرة وأعطاها للشاب ، وسار وقد أصبح لا يملك شيئاً . وشعر بظمأ شديد ، فأخذ يبحث عن جرعة ماء . وجد حانة في أعلى بابها لافتة تحمل اسم « حانة الوحش المفترس » فقال يحدث نفسه :

– حتى اسم الحانة مرعب !

وعلى الرغم من تلك الساعة المبكرة من الصباح وجد الحانة غاصة بالرواد ، كانت المناضد متناثرة في أنحائها بلا نظام وقد التف حولها عدد من الرجال والشبان والفتيات وزجاجات الخمر والكئوس أمامهم يعبون منها ، كان الرجل الجالس على يمين الباب لا يرتدي سوى سروال قصير على اللحم وعلى ساقيه العاريتين جلست فتاة شبه عارية يغمرها بالقبلات وقد أحاطت

صدره بيدها اليمنى وفى يدها اليسرى كأس من الخمر ، ويبعث منها بين حين وآخر ضحكة ماجنة ممدودة . ويجلس خلفه رجل طاعن فى السن ذو لحية بيضاء يرتدى عمامة وعلى كل فخذ من فخذيه جلست فتاة ترتدى قميص نوم شفافاً والرجل يغازلها ويقبّلها . ورجل ثان يدق بيده على منضدة دقات إيقاعية وفوق المنضدة فتاة شبه عارية ترقص وتتمايل ، واختل توازنها وأوشكت أن تسقط فاحتضنها الرجل ، وأخذ يتحسس جسدها ويغمره بالقبلات ، ثم عادت ترقص فوق المنضدة . وفى ركن الحانة على اليسار رجل يطارح فتاة الغرام وأربع فتيات أخريات يدرن حولهما راقصات رقصات عنيفة .

كان الساقى واقفاً خلف طاولة طويلة تمتد بعرض الحانة والجزء الأعلى من جسمه الذى لا تحجبه الطاولة يبدو عارياً غزير الشعر أقرب إلى البدانة وهو ذو رقبة قصيرة غليظة ورأس كبير أصلع . وكانت تجلس على الطاولة أمام الساقى فتاة شبه عارية يغازلها ويقبلها من آن لآخر . تذكر (ميم) أنه سبق أن رأى هذا الرجل ، ظل ناظراً إليه فترة من الزمن محاولاً تذكره ، وأخيراً تذكره . إن هذا الساقى هو مأمور السجن الذى رآه منذ يومين !

وقف (ميم) وسط الحانة مذهولاً يدير بصره فى أنحاء المكان وقد نسى الظمأ الذى من أجله دخل الحانة . وعندما ركز بصره على الفتيات الأربع اللاتى يرقصن ، كاد يفقد عقله من هول المفاجأة . إن إحداهن يعرفها جيداً . إنها فتاة المطعم . لم يصدق ما يراه ، فأخذ يفرك عينيه وينظر إليها فتيقن أنها هى بعينها ! كيف يحدث هذا ؟ إنها الفتاة التى أشاحت بوجهها عنه لمجرد أنه فى لحظة ضيق طلب منها أن تؤنس وحدته ، فكيف يراها هنا ترقص شبه عارية

حول رجل وفتاة يتطارحان الغرام فى حالة مليئة بالفسق والفجور ! نظرت إليه الفتاة وابتسمت فأشاح بوجهه عنها خوفاً من العقاب ، وهم بالخروج من الحانة ، فأسرعت الفتاة نحوه وأمسكته من ذراعه ومنعته من الخروج واحتضنته بقوة وقبلته بقوة فى فمه وقالت :

أريد أن أتزوجك وأقضى الليلة معك . أنت تعجبنى .

فى هذه اللحظة اختل توازن الفتاة التى ترقص فوق المنضدة ، فترنحت وسقطت على رأسها فوق أرض الحانة ، فقامت ضجة وصراخ ، وصاح الساقى قائلا :

– لقد نفذ فيها حكم الإعدام !

وفى مثل لمح البصر وقفت أمام باب الحانة سيارة سوداء هبط منها رجلان يرتديان ملابس السهرة السوداء ، وحملا الفتاة ووضعاها فى السيارة التى انطلقت بعد ذلك بأقصى سرعتها . فتيقن (ميم) أن ذلك المكان ما هو إلا جزء من المدينة ، الناس فيها محكوم عليهم بالإعدام كما هى الحال فى الشارع الذى يعيش فيه . . . وبعد أن هدأت الضجة فى الحانة عادت الفتيات للرقص والرجال لمطارحة الفتيات الغرام وكأن شيئاً لم يحدث .

تسلل (ميم) وخرج وانطلق يعدو بأقصى سرعته مبتعداً عن هذه الحانة ، وإذا بفتاة المطعم تجرى خلفه وتلحق به وتحتضنه بعنف وعادت تقول :

– أنت تعجبنى ! أريد أن أتزوجك ولو لليلة واحدة !

اعتقد (ميم) أن هذا فخ نصب له ، وقال لنفسه : إنه لن يسمح بأن يلدغ مرتين من جحر واحد ! فاستجمع قوته وأفلت منها ، وجرى بأقصى

سرقته ، فلحقت به مرة أخرى ، وأخذت تحتضنه وتغمر وجهه بالقبلات وهو يحاول أن يفلت منها ، وتجمع حولها عدد من الرجال والنساء ، عندما أفلت منها ، فى هذه المرة هجم عليه رجلان أحدهما قصير والآخر طويل وأوسعاه ضرباً واقتاداه إلى المحكمة وفتاة المطعم تصحبهم وقد بدا عليها الغضب .

وقف الرجلان أمام القاضى وخلفهما (ميم) والفتاة . كان القاضى جالساً خلف منصة وهو شبه عار ، واكتشف (ميم) أنه القاضى الذى سبق أن حكم عليه بالسجن ، نظر القاضى إلى (ميم) وقال :

– ما اسمك ؟

– (ميم نون) .

– ما سبب قدومك لهذه المدينة ؟

– البحث عن الحقيقة .

– وسبب مجيئك للجزء الخلفى من المدينة ؟

– البحث عن زوجتى :

– فضحك القاضى وقال :

– الناس لا يذهبون للجزء الخلفى للمدينة للبحث عن زوجاتهم .

ثم نظر إلى الرجل القصير وقال :

ما التهمة الموجهة إليه فى هذه المرة ؟

قال الرجل القصير مشيراً إلى فتاة المطعم :

– لقد أهان هذه الفتاة وجرح مشاعرها !

عند ذلك بدأت الفتاة تبكى ، فنظر القاضى إلى (ميم) وقال غاضباً :

– وكيف حدث هذا ؟

فقال الرجل الطويل :

– هذه الفتاة المسكينة وجدناها تستعطفه ليقضى ليله بصحبتها ، ولكنه كان قاسى القلب قسوة لم أر مثلها ، فلم يستجب لطلبها .

فنظر القاضى إلى (ميم) بوجه متجهم وقال :

– هل تنكر ذلك ؟

– فقال (ميم) فى ذهول :

– كلا ، لا أنكره ، ولكن هذه الفتاة سبق لى إن طلبتُ منها فى المطعم تحت وطأة شعورى بالوحدة القاسية أن تؤنس وحدتى ، ولم أكن أضمر لها سوءا ، بل كان طلبى بريئاً كبراءة الأطفال ! ولكننى عوقبت بسبب ذلك أقسى عقاب ، إذ أصبحت منبوذاً يشيح بوجهه عنى كل من يرانى وظللت مدة طويلة على هذه الحال ، وخشيت فى هذه المرة أن تكون قد نصبت لى شركاً لأعاقب من جديد ، ولم أعد أحتمل العذاب والعقاب ، فلقد قاسيت وتعذبت فى هذه المدينة بما فيه الكفاية !

فقال القاضى وهو يتحسس صلعته :

– أنت جاهل لا تعلم شيئاً عن هذه المدينة ، ولكن كيف اهتديت إلى هذا الجزء الخلفى ؟

فقال (ميم) :

صحوت من نومى فى صباح أحد الأيام ، فلم أجد زوجتى بالمنزل ،

وأخبرني الخادم أنها ربما تكون قد ذهبت إلى الجزء الخلفي من المدينة ، وتكرر الشيء نفسه صباح اليوم ، استيقظت من نومي فلم أجدها . واكتشفت باباً خلفياً بالمنزل خرجت منه لأبحث عنها فوجدت نفسي هنا .

في هذه اللحظة عادت فتاة المطعم تجهش بالبكاء ، فنظر إليها القاضي وقال :

– لماذا تبكين أيتها الفتاة الجميلة ؟

قالت الفتاة :

– كنت أتمنى أن أقضي معه عدة ليال ، ولكنه يرفض أن يتزوجني ليلة واحدة !

فقام القاضي من خلف المنصة ، واحتضن الفتاة ، وأخذ يقبلها وقال :

– أنت فتاة جميلة . سأقضي بصحبتك بضع ليال ، إنني أشتهيك !

ثم عاد إلى المنصة ، وقال موجهاً حديثه (لميم) :

– أرأيت إلى أي مدى أهنت هذه الفتاة وجرحت مشاعرها ؟ يالك من شاب قاسي القلب متبلد العاطفة !

ثم قال بلهجة الأمر :

– هيا احتضنها ، وقبلها وإلا قمت أنا واحتضنتها بدلا منك أيها المغفل .

احتضنها (ميم) ، فأغمضت عينيها ، وتبادلا القبلات ، ثم قال (ميم) للقاضي :

– هل يمكنني الانصراف الآن لأواصل البحث عن زوجتي ؟

فقال القاضي :

– ليس قبل تنفيذ الحكم .

فقال (ميم) :

– وما الحكم ؟

قال القاضي :

– تحمل هذه الفتاة المسكينة المعذبة الولهانة فوق كتفيك ، وتسير بها في أنحاء هذا الجزء الخلفي من المدينة حتى يحل الظلام . هذه هي إجراءات الزواج في هذا الجزء الخلفي للمدينة . ثم تذهبا لقضاء الليلة معاً ، وتسرحها في الصباح !

فخرج (ميم) من المحكمة وهو يحمل فتاة المطعم شبه عارية على كتفيه وأخذ يدور بها في أنحاء الجزء الخلفي من المدينة والرجلان القصير والطويل يسيران خلفهما للإشراف على تنفيذ الحكم .

وفي أثناء سير هذا الموكب امتلأت الشرفات بالفتيان والفتيات يغنون لهما ، ويعزفون ألحاناً على الجيتار حتى وصلا إلى جسر يصل بين ضفتي نهر تحف به المساكن على الشاطئين . نظر (ميم) إلى الجسر ، فوجده متهالكاً على وشك الانهيار ، فلم يجد ما يدعو إلى عبور مثل هذا الجسر الآيل للسقوط ، فاستدار ليرجع من حيث أتى ، ولكن الرجل القصير أمره قائلاً :

– هيا اعبر الجسر .

فوقف (ميم) والعرق يتصبب منه وقال :

– لا داعي لعبور الجسر فهو على وشك الانهيار والقاضي لم يأمر بذلك ، فدفعه الرجل دفعة قوية نحو الجسر وقال :

– لابد أن تعبر الجسر .

فسار (ميم) فوق الجسر حاملاً الفتاة على كتفيه والرجلان خلفه ، وأخذ

الجسر يهتز هزات عنيفة فى أثناء سيرهم وأعتقد (ميم) أنه منهار لا محالة ، ولكن الجسر صمد ولم ينهر ووجد (ميم) نفسه فى الضفة الأخرى للنهر . فتوقف عن السير وقد بلغ به الإجهاد أقصاه ، والتفت إلى الرجلين وقال :

– أنا عطشان . أريد أن أشرب .

فقالت الفتاة التى فوق كتفيه :

– وأنا جوعى . أريد أن آكل ، هيا نعود إلى الحانة .

نظر (ميم) إلى الجسر وقد امتلأ قلبه بالرعب وقال لنفسه :

– لقد عبرته مرة فى سلام ولابد أنه سيتقوض فى هذه المرة ، ويلقى بى فى مياه النهر وأنا لا أعرف العوم .

وصاح أحد الرجلين :

– هيا اعبر الجسر . سنعود للحانة ، الفتاة المسكينة الولهانة جوعى ولابد أن تأكل

فقال (ميم) :

– وأنا عطشان وجوعان .

فصاح الرجل الطويل قائلاً :

إذن أسرع بالرجوع .

وعاد (ميم) يعبر الجسر وفى كل خطوة يعتقد أن الجسر سيهوى به . وبينما هو فى منتصف الجسر إذا بسرب من الفتيات مرتديات قمصان النوم الشفافة يندفعن نحوه من الضفة الأخرى ويغازلنه . فغضبت الفتاة التى فوق كتفيه وأخذت تقذفهن بشتى أنواع الشتائم فانصرفن ، وعبر بسلام فى هذه المرة أيضاً

وسار الموكب راجعاً نحو الحانة .

وعند باب الحانة قفزت الفتاة من على كتفيه بحركة رشيقة وما كادت قدماها تلمسان الأرض حتى احتضنته وقبلته قبلة طويلة و(ميم) يترنح من فرط التعب .

كانت الحانة فى هذه اللحظة تكاد تكون خالية ليس بها سوى الساقى وفتاة جميلة ترتدى قميص نوم قصيراً كمعظم قمصان النوم التى رآها (ميم) على أجساد الفتيات فى هذا الجزء الخلفى من المدينة . كانت الفتاة جالسة على فخذى رجل بدين يرتدى منامة وقد أدار ظهره نحو باب الحانة ، فلم يتمكن (ميم) من رؤية وجهه ، ولكن الرجل عندما شعر بدخول شخص إلى الحانة استدار ليراه ، عرفه (ميم) على الفور وشعر بالقباض عندما رأى وجهه ، إنه حارس الطاحونة .

جلست فتاة المطعم عند منضدة على اليمين ، وجلس أمامها (ميم) منهوك القوى ، ووقف عند باب الحانة ، الرجلان اللذان رافقاها . وقال الرجل الطويل :

– لا داعى لوجودنا معكما الآن لتنعما معاً بوقت سعيد ، وستحمد على كلمة شرف منك لتقيد باقى الحكم ، وهو قضاء الليلة مع هذه الفتاة المسكينة الولهانة . هل تعدنا بذلك ؟

فقال (ميم) وهو يكاد يسقط جوعاً وإعياء .

– أعدكما بذلك .

وانصرف الرجلان وقالت الفتاة (لميم) :

– اطلب لى طعاماً .

فقال لها (ميم) .

– ليس معى نقود ، لم يكن معى سوى عشرة قروش سرقت منى فى هذا الجزء الخلفى من المدينة ، لابد أن أذهب لأدور فى الطاحونة لأحصل على بعض النقود ! ولكنى أرى حارس الطاحونة هنا فهل فى هذا الجزء الخلفى طاحونة أخرى أدور فيها ؟

فانفجرت الفتاة ضاحكة حتى اغرورقت عيناها بالدموع وشاركها فى الضحك الساقى وحارس الطاحونة والفتاة الجالسة على فخذيه .

وتعجب (ميم) ، إذ لم يجد فى كلامه ما يدعو إلى الضحك ، وقال للفتاة :

– لماذا تضحكون ؟

فلم تجب الفتاة عن سؤاله ولكنها قالت :

– سأدفع ثمن الطعام فى هذه المرة ، معى مال كثير وأنت ضيف هذه الليلة ، سنسهر معاً حتى الصباح .

وسألها (ميم) :

– والمطعم .. متى ستذهبين إلى المطعم الذى تعملين فيه ؟

فضحكت وقالت :

– عندى إجازة يومين .

فقال لها وتعمد أن يرفع صوته ، ليسمعه حارس الطاحونة :

– وحارس الطاحونة ، هل عنده إجازة أيضاً ؟

فرد عليه حارس الطاحونة قائلاً :

– ألا تعلم لماذا أنا هنا ؟

وضحك ضحكات عالية وشاركته فى الضحك فتاته وفتاة المطعم ، وقال له الساقى :

– ماذا تريدان أن أقدم لكما من طعام ؟

فلزم (ميم) الصمت وقالت الفتاة :

– دجاجتين مشويتين وزوجاً من الحمام المحشى وكمية من الموز وزجاجة نبيذ . لابد أن يتغذى حبيبى جيداً قبل أن نقضى الليلة معاً .

وضحكت ضحكة طويلة ، وبعد فترة أحضر لها الساقى الطعام المطلوب .

فقال له (ميم) :

– أنا عطشان .

فقالت الفتاة :

– أحضر لنا دورقاً من الماء المثلج .

فأسرع الساقى وأحضر الماء ، فأفرغ (ميم) فى معدته قدراً كبيراً منه ، ثم هجم على الطعام فأتى عليه فى بضع دقائق ، وصبت له فتاة المطعم قدراً من النبيذ ومثله لنفسها وأفرغاه فى معدتيهما .

وعند الانتهاء من الطعام والشراب دخل الحانة خمس فتيات حسان يرتدين قمصان نوم قصيرة فوقفن يتأملن (ميم) ، وقالت إحداهن :

– هذا الشاب الجميل يعجبنى .

فقالت فتاة ثانية :

– ويعجبنى أنا أيضاً .

وقالت ثالثة :

- يبدو أنه يعجبنا جميعاً . إن أى فتاة تتمناه وترغب فى قضاء عدة ليال فى صحبته .

فقالت الأولى :

- سيبيت معى هذه الليلة .

وقالت ثانية :

- بل سيبيت معى أنا .

فصاحت فتاة المطعم قائلة :

- كيف تجرؤن على هذا ؟ ألا ترينه جالساً معى ؟

فنشبت معركة بين فتاة المطعم وباقى الفتيات وأخذن يتجاذبن (ميم) بينهن حتى خارت قواه ، فصاحت فتاة المطعم :

- انظرن ماذا فعلتن به يا مجرمات ! لقد خارت قواه قبل أن يبيت معى .

وتدخل الساقى فطرد الفتيات الخمس اللاتى دخلن الحانة وبقى (ميم) مع فتاته التى احتضنته وكأنها تثبت ملكيتها له ، ثم قامت وجذبته من ذراعه ، وسارت معه نحو منزل قريب من الحانة ذى طابقين وأخرجت من جيب صغير فى قميص نومها مفتاحاً وفتحت المنزل ودخلت ، وبقى (ميم) واقفاً على عتبة الدار فجذبته من يده جذبة قوية ، فوجد نفسه فى البهو الذى كان خالياً من أى أثاث ، ثم جرته الفتاة من يده وصعدا سلما يؤدى إلى الدور العلوى ، ثم دخلا حجرة نوم بها سرير عريض وكرسيان . جلست الفتاة على أحد الكرسيين وجلس (ميم) على الكرسى الآخر وسألها :

- هل تسكنين هنا فى الجزء الخلفى من المدينة ؟

فضحكت الفتاة وجلست على فخذيه وقبلته وقالت :

- لكل واحد من السكان منزلان ، أحدهما فى الواجهة والآخر فى الجزء الخلفى هذا .

فأطرق (ميم) فى حزن وقد تذكر زوجته وقال :

- لست أدرى لماذا جاءت زوجتى إلى الجزء الخلفى ؟

فقالت الفتاة :

- أنت لم تحسن اختيار زوجتك . كنت أتمنى أن تتزوجنى أنا . فأنا لا أشتهى سواك يا حبيبى .

فقال (ميم) فى حزن :

- ترى أين هى الآن تلك الخائنة ؟

- قد تكون فى انتظارك بمنزلك .

وانتفضت بغتة وقامت غاضبة وصفعته على وجهه وقالت :

- كفى حديثاً عن زوجتك ! هل جئت معى لتتحدث عنها ؟

وجذبته من يده فى حركة عصبية وألقت به فوق السرير وانقضت عليه !

وفى الصباح صحا (ميم) من نومه متأخراً فلم يجد الفتاة فى السرير ، فقام وهبط السلم ، فوجد باب المنزل مفتوحاً . فتسلل منه وخرج إلى الطريق ، وأخذ يفكر ! ترى ألا تزال زوجته هنا فى الجزء الخلفى غارقة فى شهواتها أو تراها الآن فى المنزل تنتظره كما قالت الفتاة ؟

١٥

شعر (ميم) برغبة فى العودة إلى منزله، فأخذ يبحث عن الطريق المؤدى إليه. وسار عاقداً لحافة الواجهة يبحث عن الباب الخلفى، ولكن الأبواب الخلفية كانت متشابهة، فظل يسير وهو يائس من العثور على باب منزله، وبعد أن أضناه التعب وجد باباً خلفياً مفتوحاً نصف فتحة، أطل منه، فوجد زوجته واقفة خلف الباب تبكى. وما إن رأته حتى جذبته من ذراعه وصاحت:

– أين كنت يا فاجر؟ أين قضيت ليلتك السوداء؟

فقال (ميم) مرتبكاً:

– ذهبت أبحث عنك عندما رأيتك تتسللين إلى الجزء الخلفى. أين كنت أنت يا عاهرة؟

فارتمت على قدميه تقبلها باكية وقالت:

– هل رأيتنى يا حبيبى وأنا أتسلل؟ لن أذهب إلى الجزء الخلفى بعد الآن، لن أذهب أبداً!

فقال لها فى جفاء:

– أين الطفلان؟

قالت وهى لا تزال تبكى:

– أتيت فلم أجدهما.

فصاح غاضباً:

– وأين ذهبا؟

قالت والدموع لا تزال فى عينيها:

– لست أدرى يا حبيبى! اذهب وابحث عنهما فى كل مكان.

فصاح ميم قائلاً:

– مرة أبحث عنك، ومرة أبحث عن الطفلين! ومن المفروض أن أبحث عن الحقيقة، فهل أظل طوال حياتى فى بحث مستمر؟

فاحتضنته زوجته وقالت:

– لا تغضب منى يا حبيبى، روحى فداك، أنا لا أحب أن تغضب أو تحزن، سنذهب معاً نبحث عن الطفلين.

– وهل سنبحث فى الواجهة أو فى الجزء الخلفى؟

– لقد وجدت الباب الخلفى مفتوحاً والباب الأمامى مغلقاً. وهذا دليل على أنهما خرجا من الباب الخلفى.

هرول (ميم) إلى الجزء الخلفى من المدينة وخلفه زوجته وهى لا تزال مرتدية قميص النوم. وأراد أن يسلك الطريق الذى سبق أن سار فيه نفسه ولكن زوجته جذبته من يده بعنف، فسارا فى طريق آخر لم يسبق له السير فيه. كانت الزوجة تسير فى ثقة تدل على إلمامها إلماماً تاماً بكل شبر فى هذا الجزء الخلفى، ووصلا إلى ميدان به عدد كبير من النساء والرجال. النساء مرتديات قمصان نوم قصيرة شفافة، والرجال يرتدون ملابس النوم، والبعض منهم يرتدى سروال النامة وقد ترك النصف الأعلى من جسمه عارياً! كان الجميع ملتفين حول

تمثال مغطى بستارة حمراء وقد وقف على منضدة قريبة من التمثال رجل لا يرتدى سوى سروال قصير ، قال الرجل :

– إن صاحب هذا التمثال يستحق منا الإعجاب والتقدير ، أنه أعظم لص شهدته المدينة منذ أجيال عديدة ، لقد ضرب رقماً قياسياً فى السرقة ، تصوروا أيها السادة والسيدات أنه فى يوم واحد تمكن من سرقة عشرة آلاف جنيه ! سيظل هذا الرجل مثلاً أعلى وقدوة حسنة تحتذى على مر السنين والأجيال . ومنذ أن نفذ فيه حكم الإعدام لم يوجد من يحل محله ويملأ الفراغ الذى تركه ، والآن ارفعوا الستار .

ورفع الستار الذى كان يخفى التمثال وإذا به تمثال رجل شبه عارٍ ضخم الجثة ذى وجه بشع عريض الفكين ، ضيق الجبهة ، فهمس (ميم) فى إذن زوجته قائلاً :

– هل تقام التماثيل هنا للصوص وقطّاع الطرق ؟

فنهرته زوجته قائلة :

– اسكت ، لا ترفع صوتك ، لقد كان معبود الجماهير ، هيا نبحث عن الطفلين .

وجرته من يده بعيداً عن المكان ، فسألها (ميم) :

– إلى أين أنت ذاهبة بى الآن ؟

– إلى حيث معظم الأطفال .

– أين ؟

– يوجد متجر كبير به لعب للأطفال ، ربما نجدهما هناك .

وصلا إلى ذلك المحل المكون من عدة طبقات . وعندما دخلاه وجداه مليئاً بشتى أنواع لعب الأطفال وبه مالا يقل عن خمسمائة طفل يجولون فى أنحائه وهم شبه عراة ، وينتقون ما يروق لهم من اللعب والدمى ، ويخرجون بها من المحل دون أن يدفعوا ثمنها ، فقال (ميم) مندهشاً :

الأطفال يسرقون اللعب ، إنهم لا يدفعون ثمنها .

فنهرته زوجته قائلة :

– اسكت ، أنت لا تعلم شيئاً عن هذه المدينة .

فلم يفهم (ميم) شيئاً . كان مشغولاً بالبحث عن الطفلين بين هذا العدد الضخم من الأطفال فلم يستوضح معنى ما قالته زوجته . وظل يدور ببصره فى أنحاء المكان فى قلق واضطراب ، وسمع صوتاً ينادى زوجته ، التفت نحو مصدر الصوت فوجده شاباً وسيماً مفتول العضلات قفز عدة قفزات حتى وصل إليها واحتضن زوجة (ميم) ، وأخذ يقبلها وهى تقبله غير عابئة بوجود زوجها بجوارها الذى بدا هادئاً ، وكأن الأمر لا يعنيه ، وقد أخذ يدير بصره باحثاً عن الطفلين ! وقالت الزوجة للشاب :

– أين كنت يا حبيبى ؟ لقد بحثت عنك فى كل مكان ، أنا لا أحب زوجى هذا ، أحبك أنت من كل قلبى .

فقال لها الشاب :

– وأنا بحثت عنك هذا الصباح فلم أجدك ، وحاولت الاتصال بك تليفونيا أمس فلم أجدك . أين كنت ؟

قالت الزوجة وقد نسيت وجود زوجها نسياناً تاماً :

– كنت أبحث عنك هنا !

في هذه اللحظة أبصر (ميم) ابنه يحتضن دمية كبيرة على هيئة دب تبلغ نصف حجمه ، ويحاول انتقاء لعبة أخرى ، فأسرع (ميم) نحوه ، وترك زوجته تناجي هي وحبيبها ، وأمسك بيد الطفل وسأله بلهفة :

– أين أختك ؟

فأشار الطفل نحو أحد أركان المحل وقال :

– تركتها هنا ، عند العرائس .

فحمل (ميم) الطفل على كتفه ، وسار يشق الزحام نحو ركن العرائس ، فعثر على ابنته تحتضن عروستين كبيرتين وتحاول عبثاً أن تحمل بيديها الصغيرتين عروسة ثالثة غير مدركة أن هذا من المستحيل . فحملها (ميم) على كتفه الآخر وعاد يبحث عن زوجته ، فوجدها قد اختفت من المحل !

رأى (ميم) فتاة شقراء ترتدي قميص نوم قصيراً جالسة على منصة عالية في المحل ، فاتجه نحوها ليسألها عن ثمن هذه اللعب التي انتقاها الطفلان ، ولكنه تذكر أنه لا يملك مليماً واحداً فوقف متردداً ، ورأى باقي الأطفال يحملون لعبهم ويخرجون دون أن يدفعوا شيئاً ، فقرر أن يسأل الفتاة ويترك اللعب في المحل لو أصرت على ضرورة دفع ثمنها ، فتقدم نحوها وسألها :

– كم ثمن هذه اللعب التي أخذها طفلاي ؟

فابتسمت الفتاة وقالت :

– ألا تعلم أننا لا نأخذ من الأطفال ثمن ما يأخذونه ؟ هل من المعقول أن يملك الأطفال العراة نقوداً ؟

وبينا هَمّ بالخروج وعلى كتفيه الطفلان نادته الفتاة قائلة :

– تعال يا . . . يا أنت .

فلم يلتفت إليها (ميم) ظاناً أنها تنادي أحداً غيره . فقفزت من المنصة التي تجلس عليها ، وجرت خلفه ، وجذبته من ذراعه وقالت :

– ألا تسمعني ؟ أنا أناديك .

فنظر إليها (ميم) مندهشاً وقال :

– تناديني أنا ؟ لماذا ؟

فقالت الفتاة مبتسمة :

– لقد أعجبتني . . شكلك جميل .

فلم يعرها (ميم) اهتماماً وخرج . وإذا برجل عملاق يقبض عليه من رقبته ويقول :

– لقد أهنت هذه الفتاة وجرحت مشاعرها ، يجب أن نحاكم .

فأنزل (ميم) طفليه من فوق كتفيه وقال مندهشاً :

– أنحاكم مرة أخرى ؟ لا . . . لم يعد وقتي يسمح بذلك ، لديّ عمل هام ينبغي أن أقوم به .

– وما هذا العمل الهام ؟

– سأذهب لأدور في القاهرة لأحصل على بعض النقود لزوجتي وأولادي .

فضحك الرجل العملاق وشاركته الفتاة الضحك وطوقت (ميم) بذراعيها وأخذت تقبله .

فقال (ميم) متعجباً :

لماذا تضحكان ؟

فتوقف الرجل عن الضحك ، ولكن الفتاة ظلت تضحك . وقال له الرجل عابساً :

— لا شأن لنا بدورانك فى الطاحونة . يجب أن نحاكم أولاً .

مثل (ميم) أمام القاضى نفسه مرة أخرى وطفلاه على كتفيه والفتاة على يمينه والرجل على يساره ، وقال له القاضى بعد أن تفرس فى وجهه :

— ماذا اقترفت من الجرائم هذه المرة ؟

فقال الرجل الواقف على يساره :

— لقد جرح مشاعر هذه الفتاة ، وأهانها إهانة لا تغتفر ! قالت له : إن شكله جميل وإنه يعجبها ، فلم يعرها اهتماماً ومضى فى سبيله مع طفليه !

فقال القاضى :

— لقد سبق لك أن اقترفت الجريمة نفسها ، أصبحت معتاد الإجرام من أصحاب السوابق .

ثم اعتدل القاضى فى جلسته ونظر إلى (ميم) طويلاً وكأنه يفحصه وقال :

— أنا لم أر فى حياتى مثيلاً لك ! هل تعلم أنك المجرم الوحيد الذى يرتكب هذا النوع من الجرائم فى هذا الجزء الخلفى من المدينة ؟ كل من يأتى هنا يسرع بالاستجابة لنداء أية فتاة حسناء أو غير حسناء وينسى زوجته إذا كان متزوجاً ويطلق لشهواته العنان ! أنت الوحيد الذى لا تتغير أفكارك ولا تتبدل فى الجزء الخلفى من المدينة !

ثم ضحك القاضى وقال :

— لم أر شخصاً قبلك يحضر إلى الجزء الخلفى من المدينة ليبحث عن زوجته !

فقال (ميم) :

— وهل هذه جريمة أعاقب عليها ؟

فقال القاضى وقد انتفخت أوداجه كما يفعل الديك الرومى :

— هذا دليل على إخلاصك الشديد لزوجتك ، ولكن هذا لا يعفيك من العقاب ، لأنك أهنت وجرحت مشاعر هذه الفتاة الجميلة الفاتنة التى غازلتك ، فلم تستجب لغزلها !

وقفز الطفلان من فوق كتفى (ميم) ووقفا فى أحد الأركان يعبثان باللعب التى فى أيديهما وقال القاضى للفتاة :

— تعالىْ . . تعال ياقطقوطة يا جميلة ، أنا اشتهيك ! دعك من هذا الغبى الأحمق .

فاقتربت الفتاة من منصة القاضى الذى أخذ يتحسس جسدها . ثم قام من خلف المنصة واحتضنها وقبلها عدة قبلات ، ثم عاد إلى المنصة .

فقال (ميم) وكأنه يحدث نفسه :

— لن أحضر إلى هذا الجزء الخلفى مرة أخرى مهما كانت الظروف والأحوال .

فضحك القاضى مقهقهاً وقال :

— لم أر أجهل منك فى حياتى ، أنت لا تعلم شيئاً عن المدينة .

ونظر (ميم) حوله فلم يجد طفليه ، لقد انطلقا خارج المحكمة فى أثناء المحاكمة ، فصاح (ميم) قائلاً :

– ابني وابنتي .. أين ذهبا ؟ ، لقد عثرت عليهما بعد عناء ، وسأعود للبحث عنهما من جديد .

فقال القاضي وهو يملّس على صلعته :

– كل من يجيء هنا يا جاهل يعود إلى الواجهة من تلقاء نفسه ، معظم الناس لا يبقون في هذا الجزء الخلفي طويلاً .

ثم أغمض القاضي إحدى عينيه وأبقى العين الأخرى مفتوحة كعادته عندما يفكر في إصدار الحكم وقال :

– ولو أن الجهل لا يعفي من العقاب فإنني في هذه المرة سأعفو عنك لسذاجتك . اغرب عن وجهي ، واذهب إلى منزلك بالواجهة ، ستحضر لك زوجتك ويعود لك طفلاك دون حاجة للبحث عنهم ، إنهم يعرفون طريقهم جيداً .

عندما دخل (ميم) منزله من الباب الخلفي اتجه نحو البهو فرأى زوجته جالسة وفي يدها كتاب وطفلاها ينظران إلى صفحاته ، وعندما رأت (ميم) أسرعت إليه واحتضنته وقبلته وقالت :

– لماذ تأخرت يا حبيبي ؟ لقد أقلقني غيابك !

فلم يعرها (ميم) اهتماماً وسحب من يدها الكتاب ، وأخذ يتصفحه فوجده مليئاً بصور الزواحف والوحوش ، فاستنتج أن الأسد والثعابين التي أفزعت الطفلين في أحلامهما مصدرها هذا الكتاب . فقالت الزوجة :

– إنه كتاب جميل اشتريته لأسلّي به الطفلين .

فاختطف الطفلان الكتاب وأخذا يقلبان صفحاته ، وبقيت الزوجة

واقفة تنظر إلى (ميم) الذي لم يعرها التفاتاً ، وجلس فترة صامتاً مطرقاً للأرض ثم التفت نحو زوجته وقال :

– من هذا الذي كنت تغازلينه أمامي في الجزء الخلفي من المدينة ، وذهبت معه وتركتني وحدي أبحث عن الطفلين ؟

فأجهشت الزوجة بالبكاء وانحنت على قدمي (ميم) تقبلهما ، وترك الطفلان الكتاب واحتضنا أمهما في فزع ، ثم انسحبا وجلسا على أرض الحجرة والدموع تسيل من عيونهما ، وقالت الزوجة ناظرة إلى زوجها وهي لا تزال راكعة أمامه :

– أنت حبيبي ولا حبيب لي سواك ، أنت حبيبي !

ثم جلست على حافة الكرسي واحتضنته وأخذت تقبل رأسه وتبلله بدموعها ، فرق لها قلب (ميم) وأخذ يملّس على رأسها ويربت على ظهرها ثم قام وقال :

– ليس معي أي نقود وينبغي أن أذهب الآن ، لأدور في الطاحونة للحصول على بعض المال اللازم لطعامنا .

فقامت وتأبطت ذراعه وقالت :

– لن أتركك تذهب وحدك يا حبيبي ، سأحضر معك لأجمع النقود من الأطفال الذين سيتفرجون عليك وأنت تدور في الطاحونة وتضرب بالسوط يا حبيبي .

ولاحظ (ميم) أنها تبذل مجهوداً لكيلا تنفجر ضاحكة ، وخرجا من المنزل وأسرعا نحو الطاحونة والطفلان يهرولان خلفهما .

فوجئ (ميم) عندما فتح باب الطاحونة بوجود حارس جديد لم يره من

قبل . كان الحارسُ الجديدُ نحيلاً طويل القامة ذا أنف يشبه أنف الببغاء وعينين خضراوين ، فتعجب (ميم) وقال لزوجته :

— لقد تغير الحارس .

فقالت الزوجة :

— أنا السبب في تغييره ، لقد شكوته للمسئولين وأخبرتهم أنه غير أمين ، لأنه كان يستغل دورانك في الطاحونة لمصلحته الخاصة ، ويجمع نقوداً من الأطفال الذين يتفرجون عليك ، فعوقب عقاباً شديداً واستبدل به غيره وسمحوا لي أنا بجمع النقود من المتفرجين فأنا صاحبة الحق في ذلك .

لم يكن الحارس الجديد أقل قسوة على (ميم) من الحارس القديم ، بل كان أشد قسوة ، لقد ظل يلهب ظهره بالسوط بشراسة ووحشية طوال فترة الدوران حتى تفجر الدم من ظهره ، وأخذ يئن أنيناً خافتاً متصلاً ، ولما انتهى من الدوران كانت الزوجة قد جمعت من الأطفال أربعة جنيهات وأربعين قرشاً ، وساروا جميعاً نحو السوق لشراء لوازم الطعام ، وفوجئ (ميم) بأن الأسعار في هذه الفترة القصيرة قد قفزت من جديد بشكل جنوني لدرجة أن شراء طعام بسيط يكفي أفراد هذه العائلة الصغيرة تكلف نحو ثلاثة جنيهات ونصف الجنيه ! فقرر (ميم) أن تكتفي العائلة بوجبة واحدة في اليوم ، ورغب في شراء بدلة جديدة بدلاً من تلك البدلة (الوحيدة) التي تمزقت في معظم أجزائها ، كما تمنى أن يشتري قميصاً جديداً بدلاً من ذلك القميص الذي صبغته الدماء . فقادته زوجته إلى أحد المتاجر المعروفة باعتدال أسعارها ، وسأل عن ثمن البدلة والقميص ، فشعر بالدوار عندما علم أن ثمن البدلة ثلاثون جنيهاً وثمن

القميص أربعة جنيهات ! فخرج من المتجر مطرق الرأس يائساً حزيناً دون أن يشتري شيئاً ، وتيقن أن هذه البدلة التي على جسده وهذا القميص الملوث بالدماء سيلازمانه طوال حياته !

ظل (ميم) طوال اليوم مكتئباً ، فاقترحت زوجته أن يذهبا لزيارة الرجل الذي كانت تعمل عنده فوافق (ميم) على الفور ، فاتصلت الزوجة تليفونياً وأخبرت الرجل برغبتها في زيارته فرحّب بذلك .

وفي المساء تركا الطفلين بالمنزل ، وذهبا لزيارة ذلك الرجل ، وعندما ضغطت الزوجة على زر جرس الباب فتحته فتاة شقراء طويلة القامة زرقاء العينين ، عندما رأتها الزوجة عانقتها وقبلتها ، وعندما دخلا وجدا البيو غاصّاً بالزائرين والزائرات ، فوقف صاحب الدار وتقدم نحوهما بوجه باسم صبوح ، وصافح (ميم) بحرارة ، وعندما صافح الزوجة مالت عليه وهمست في أذنه كلمات لم يسمعها (ميم) ، ولكنه رأى الرجل يومئ برأسه وبدا وكأنه يوافق على ما أسرته له الزوجة ، ثم تولى تقديم (ميم) وزوجته إلى جميع الزائرين ثم قال مشيراً إلى الزوجة :

— هذه الفتاة كانت تعمل عندي هنا ، ولها عندي مكانة خاصة ، ولقد زوجتها هذا الشاب عندما وجدته في حاجة إلى من يؤنس وحدته .

وأفسح مكاناً (لميم) وزوجته ودعاهما للجلوس متجاورين ، وأخذ (ميم) يفكر : هل حقيقة هو الذي زوجني هذه الفتاة ؟ هل هو الذي رتب وخطط لهذا الزواج ؟ وهل صادف زواج هذه الفتاة هوى في نفسها أو اضطرت لقبوله إرضاء لهذا الرجل ؟ وهل هي على علاقة بذلك الشاب الذي طارحته الغرام

في الجزء الخلفي من المدينة؟

وانتزعه من هذه الأفكار الحزينة صوت الرجل عندما قال:

– ولقد أهدى لها مالك المدينة طفلين جميلين، ذكراً وأنثى.

والتفت إلى (ميم) وسأله:

– كيف حال الطفلين؟

فقال (ميم) وهو شارد الذهن:

– بخير.

فقال الرجل:

– هل ألحقتها بالمدرسة؟

لقد فوجئ (ميم) بهذا السؤال ولم يخطر على باله من قبل فارتبك لحظة ثم قال:

– كلا، لم ألحقها بالمدرسة بعد.

فنظر إليه الرجل نظرة عتاب وقال:

– وماذا تنتظر، ينبغي أن ترسلها غداً للمدرسة. هذه هي رغبة مالك المدينة.

فقال (ميم) وقد شعر بمسئولية جديدة تلقى على كتفيه:

– سأفعل ذلك.

وأخذ (ميم) يدور برأسه فاحصاً الزوار. كانوا ثلاثة رجال وزوجاتهم، كل زوج يجلس بجوار زوجته، كانوا جميعاً يرتدون ملابس جديدة بديعة الألوان متقنة التفصيل مما جعل (ميم) ينكمش خجلاً من ملابسه الممزقة.

وتعجب من أين يحصلون على المال الذي يشترون به مثل هذه الملابس الفاخرة؟!

كان الرجال في مثل سن (ميم) والزوجات في مثل سن زوجته. كان أحدهم سريع الكلام تبدو عليه العصبية، يحرك يديه كثيراً عندما يتكلم وهو دائماً متحمس مرتفع الصوت. أما زوجته الجالسة بجواره فكانت هادئة الأعصاب قليلة الكلام ذات عينين ساحرتين سوداوين وشعر أسود طويل مرسل على ظهرها. أما الزائر الثاني فكان قصير القامة بارز الكرش قصير العنق قمحي اللون هادئ الحديث منخفض الصوت يبدو دائماً مبتسماً، على حين كانت زوجته نحيلة البدن طويلة العنق واسعة العينين بيضاء البشرة ذهبية الشعر تضع ساقاً فوق ساق وتحرك قدمها حركة عصبية. وكان الزائر الثالث مفرط الطول عريض المنكبين عملاقاً تبدو زوجته بجواره وكأنها عصفورة وديعة تتحدث دائماً دون أن تنظر لمن تحدثه بل تسبل جفنيها على عينيها ذواتي الأهداب الطويلة.

نظر صاحب البيت إلى الرجل العصبي المرتفع الصوت وقال:

– كنت تتكلم، أكمل حديثك.

فقال وهو يحرك يديه في عصبية:

– كنت أقول: إنني صحوت اليوم من نومي، فوجدت ورقة حمراء ألقيت من تحت باب المنزل وعندما قرأتها اعترتني رجفة وشعرت بدوار.

فقال صاحب المنزل:

– وماذا قرأت فيها؟

فقال الرجل العصبي:

– وجدت فيها إنذاراً بتنفيذ حكم الإعدام في ولدي الوحيد.

فى هذه اللحظة فتحت زوجته حقيبة يدها ، وأخرجت منديلاً صغيراً مسحت به دموعاً سالت من عينيها ، وقال صاحب المنزل :

– وماذا فعلت ؟

فقال الرجل العصبى :

– جئت أرجوك لتتوسط لى لدى مالك المدينة ليعفو عن ابنى المسكين ويؤجل تنفيذ حكم الإعدام فيه ، فهو وحيدى وهو شديد الذكاء ، يحبنى ويحب أمه حباً شديداً ، وإذا لم يقبل مالك المدينة العفو عنه فأرجو أن ينفذ فينا حكم الإعدام ، أنا وأمه ، فنحن لا نطيق الحياة بدونه .

وتهدج صوته عندما نطق بالجملة الأخيرة وأجهشت زوجته بالبكاء ، فاعتدل صاحب المنزل فى جلسته وقال :

– أنا لا أنكر أننى وثيق الصلة بمالك المدينة ، ولكنه فى كثير من الأحيان لا يستجيب لرجائى .

وقالت زوجة الرجل العصبى وهى تمسح دموعها :

– نتوسل إليك أن تبذل كل ما فى وسعك لتأجيل حكم الإعدام فيه .

فقال صاحب المنزل :

– أعدكما أن أبذل ما فى وسعى ، ولو أننى لا أجد ما يدعوكما لكل هذا الحزن والألم .

فنظر إليه الشاب العصبى وقال :

– هل تطلب منا ألا نحزن أو نتألم لتنفيذ حكم الإعدام فى ابننا الوحيد ؟

فقال صاحب المنزل فى هدوء :

كلنا محكوم علينا بالإعدام إن عاجلاً أم آجلاً ، وعلاوة على ذلك فإن تنفيذ حكم الإعدام ليس نهاية الحياة . لقد قلت لكم ذلك مراراً .

فقال الرجل القصير المبتسم دائماً :

– أنا شخصياً أتمنى أن أصدق ذلك ، ولكنَّ فى أعماق نفسى شعوراً لا سيطرة لى عليه يرفض التصديق ، أسمع صوتاً فى أعماق نفسى يقول : إن تنفيذ حكم الإعدام هو النهاية .

وقالت زوجة الرجل القصير وهى تهز قدمها فى عصبية :

– لو عاد إلينا أحد الذين تم تنفيذ حكم الإعدام فيهم وأخبرنا فقد نصدقه ، ولكن الذين يُلقى بأجسادهم فى البالوعة لا يعودون إلينا ، فمن أين لنا أن نعرف الحقيقة ؟

فظل صاحب المنزل ناظراً إليها فترة من الزمن ثم قال :

– هناك مدينة أخرى يمتلكها مالك هذه المدينة ، مدينة تفوق مدينتنا هذه جمالاً ، ومالك المدينة يعتز بتلك المدينة الأخرى اعتزازاً عظيماً ويهتم بها اهتماماً بالغاً ، وتلك المدينة الأخرى بطبيعة الحال فى حاجة لمن يسكنها ، فمن أين يأتى سكانها ؟

فقال الرجل المبتسم دائماً :

– من المكان نفسه الذى أتى منه سكان هذه المدينة .

فقال صاحب المنزل :

– كلا ، إن سكانها هم سكان هذه المدينة أنفسهم ، يذهبون إليها بعد تنفيذ حكم الإعدام فيهم ويمرون بمدينتنا هذه مروراً عابراً .

قال (ميم) :

– الذى يحيرنى أننى لا أعلم من أين أتيت ؟ لقد وجدت نفسى فى يوم من الأيام فى هذه المدينة ولا أذكر مطلقاً من أين أتيت ؟ كل الذى علمته من مكتب الاستعلامات هو أننى أتيت لمهمة محددة ، وهى البحث عن الحقيقة ، ولست أدرى ما تلك الحقيقة التى أتيت لأبحث عنها هنا ؟

فى هذه اللحظة حدث شىء عجيب : أخذ الزوار ينظرون بعضهم لبعض نظرات غريبة ثم قام الرجل العملاق واحتضن (ميم) وقبل رأسه . ثم حذت حذوه زوجة العملاق التى تقدمت نحو (ميم) والدموع تلمع فى عينيها وقبلت رأس (ميم) فى صمت ، وانسابت الدموع من عيون باقى الزوار وتقدموا بدورهم وقبلوا رأس (ميم) رجالاً ونساء وهو مستسلم فى دهشة وذهول وقد عجز عن تعليل هذا السلوك الغريب . فأطرق للأرض فى صمت ، وقفزت فى ذهنه فى هذه اللحظة سلسلة العذابات التى قاساها منذ أن وجد نفسه فى هذه المدينة ، وقطع صاحب المنزل تيار أفكاره عندما قال :

– ولماذا توقفت عن إرسال تقاريرك عن الحقيقة ؟ ألا تعلم أن من واجبك أن تكتب عدداً من هذه التقارير ؟

فقال (ميم) بصوت متهدج مقاوماً الانفجار بالبكاء :

– لم يطلب منى أحد كتابة هذه التقارير .

فقال صاحب المنزل :

– ولكنك أرسلت تقريراً واحداً بعد فترة وجيزة من وجودك فى المدينة ، ولم ترسل غيره .

فقال (ميم) مندهشاً :

– أنا أرسلت تقريراً عن الحقيقة ؟ متى ؟ أنا لم أرسل شيئاً .

فقال صاحب المنزل :

– ألم تقدم شكوى لمالك المدينة تشرح فيها ما تلاقيه من عذاب ، وتلتمس منه نقلك إلى مدينة أخرى ؟

– نعم ، فعلت ذلك ، ولكن هل أعتبر هذا تقريراً ؟

فقال صاحب المنزل مبتسماً :

– إنك تقرر فيه حقيقة ، ولذا فقد اعتُبر تقريراً ، متى ترسل تقريرك الثانى ؟

فقال (ميم) وهو يقاوم البكاء :

– لا أجد وقتاً لكتابة أى تقرير ، إن وقتى موزع بين الدوران فى الطاحونة والسعى للحصول على ما يمسك رتقى من طعام . وكنت بمفردى فى بادئ الأمر ، ولكنى أصبحت الآن مطالباً بتلبية رغبات زوجة وطفلين والبحث عنهم فى الجزء الخلفى للمدينة عندما يتسللون إليها بدون علمى .

ثم تهدج صوته ولمعت عيناه بالدموع وهو يقول :

– إننى دائم الدوران فى الطاحونة ولقد تمزق ظهرى من ضرب السياط وأعطى أجراً ضئيلاً فى مقابل ذلك . ولا أجد معى فى أية لحظة ما يكفى الطعام .

ومسحت زوجة العملاق دموعاً طفرت من عينيها ومالت على زوجها وقالت :

– لمن أجل هذا يرتدى هذه الملابس الرثة البالية ، ويلطخ الدم ظهر سترته ؟

فقال زوجها وكأنه يحدث نفسه :

– إنه أشرف من في هذه المدينة .

وفي هذه اللحظة اندفع الرجل المعصى نحو صاحب المنزل ، وانحنى أمامه وقبل قدميه قائلاً .

– أتوسل إليك أن تتوسط لى عند مالك المدينة لإنقاذ حياة ولدى وتأجيل تنفيذ حكم الإعدام فيه .

فقام صاحب المنزل غاضباً وقال :

– سأبذل كل جهدى ، سأبذل كل جهدى .

واعتبر قيام صاحب المنزل إنهاء للزيارة فقام الجميع ، وقال صاحب المنزل :

– أرجو أن تكون هذه الزيارة سبباً للتعارف بينكم جميعاً ، ولا تنسوا أن (ميم) ما زال يعانى من الوحدة على الرغم من وجوده بين أفراد أسرته .

وخرج جميع الزوار ما عدا (ميم) الذى ظل واقفاً ناظراً إلى صاحب الدار وبجواره زوجته ، فسأله صاحب الدار :

– أرى في ذهنك سؤالاً حائراً تريد أن تسأله .

فقال (ميم) .

– أجل ، في ذهنى سؤال يحيرنى .

– ما هو ؟

فقال (ميم) بعد لحظة تردد :

– أنت على علاقة وطيدة بمالك المدينة ، أليس كذلك ؟

– بلى .

فأطرق (ميم) للأرض لحظة ثم رفع رأسه وقال :

– هل هو خيّر أو قاسٍ ؟

فقال صاحب الدار في هدوء وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة :

– ماذا تظن أنت ؟

فقال (ميم) في عصبية :

– من يسمح بكل هذا العذاب في مدينته فلا أظن أنه خيّر !

فوضع الرجل يده على كتف (ميم) وقال :

– كل العذاب الذى تراه في هذه المدينة شيء تافه لا قيمة له . ستعلم ذلك في لحظة من اللحظات ، تيقن أن مالك المدينة يحب الخير ولا يحب الشر . وللشر رسالة لا تقل عن رسالة الخير . . هل يقدّر الجمال من لم يعرف القبح ؟ هل يدرك معنى النور من لم يعرف الظلام ؟ إننا نرى الخير من خلال الشر ، وإن لم تر الشر فهل تعرف معنى الخير ؟ لن يبهرك جمال المدينة الأخرى إن لم يرعبك شر هذه المدينة !

قال (ميم) بعد تردد وهو مطرق للأرض :

– أريد أن أرى مالك المدينة ! هل أستطيع أن أراه ؟

فابتسم صاحب المنزل وقال :

– لقد سألتنى هذا السؤال عند زيارتك لى في المرة السابقة . فلماذا

أنت مصمم على رؤيته ؟

– لأتحدث إليه ، وأستفسر منه عن أشياء كثيرة ، وأشكو إليه ظلمى وعذابى !

فوضع صاحب الدار يده على كتف ميم وقال مبتسماً :

– عندما أتمكن أنا من رؤيته سأدعوك لتراه !

وخرج ميم بصحبة زوجته واتجها نحو منزلهما وقال لزوجته مندهشاً :

– هذا الرجل الوثيق الصلة بمالك المدينة يدعى أنه لم يره ، هل هذا معقول ؟ لقد بدأت أشك فى وجود مالك هذه المدينة .

فقالت الزوجة غاضبة :

– إنه لا يكذب ، وما دام قال إنه لم ير مالك المدينة ، فينبغى أن نصدقه ، وعدم رؤية الشىء لا يدل على عدم وجوده . المدينة لا وجود لها بالنسبة لشخص أعمى وأطرش وفاقد لجميع الحواس ، ولكن هذا لا يعنى أنها غير موجودة .

قال (ميم) :

– ولكنه قال لى عند زيارتى له أول مرة إنه يقضى مع مالك المدينة أمسيات طويلة .

– إنه يقضى مع مالك المدينة أمسيات عديدة ، ولكنه ما دام قد قال إنه لم يره فيجب أن نصدقه فهو لا يكذب أبداً .

– أنا لا أفهم هذا ، كيف يقضى معه أمسيات عديدة ولا يراه ؟ هل يجلس خلف حجاب ؟

ضحكت وقالت :

– لست أدرى ! لم أكن معهما !

ظل (ميم) يسير بجوار زوجته وهذه الأفكار تدور فى ذهنه ثم التفت إلى زوجته وقال :

– لمْ تنطق بكلمة واحدة طوال الزيارة .

فقالت الزوجة :

– لا تنسَ أن هذه أول مرة أزوره فى منزله كضيفة بعد أن كنت خادمته . وعلاوة على ذلك فلقد كنت طوال مدة الزيارة أفكر فى طفلينا ، ترى ماذا حدث لهما وقد تركناهما وحدهما بالمنزل ؟

فشعر (ميم) بجسده يرتجف خوفاً وقلقاً على الطفلين وأسرعا الخطى نحو المنزل .

١٦

بحثا فى جميع أنحاء المنزل فلم يجدا الطفلين ، فجلست الزوجة تبكى وتقول :

– لقد أضعناهما ، لن نراهما بعد اليوم .

شعر (ميم) بالحزن يعتصر قلبه ، وفكر فى الخروج للبحث عنهما فى جميع أنحاء المدينة . وفى هذه اللحظة فتح الباب ودخل الخادم فسأله (ميم) بلهفة :

– هل تعرف أين ذهب الطفلان ؟

فجلس الخادم على إحدى درجات السلم المؤدى إلى الدور العلوى وقال :

– رأيتهما يتسللان إلى الجزء الخلفى من المدينة .

فاندفع (ميم) نحو الباب المؤدى إلى الجزء الخلفى للمدينة ، ولكن الخادم استوقفه قائلاً :

– منذ فترة قصيرة وصلت هذه الرسالة .

وأخرج من جيبه ورقة حمراء اختطفها (ميم) منه بلهفة وقد وقفت زوجته خلفه محاولة معرفة ما فيها ، وما كاد يقرؤها حتى شعر بدوار وترنح وأوشك أن يسقط ، فأسرعت زوجه واحتضنته قائلة :

– مالك يا حبيبى ؟ ماذا قرأت فى هذه الورقة ؟

فقال (ميم) والدموع تسيل من عينيه :

– إنذار بتنفيذ حكم الإعدام فى الطفل ابننا .

فصرخت الزوجة كمن فقد عقله قائلة :

– ابنى ، حبيبى ، سينفذ فيه حكم الإعدام ! هيا نبحث عن الطفلين فى الجزء الخلفى . أريد أن أرى الطفلين .

خرجت كالمجنونة من الباب الخلفى وميم فى إثرها وانطلقا يبحثان عن الطفلين ، كان الضوء خافتاً فى الجزء الخلفى ، وكان أول ما صادفهما تلك الروائح الكريهة التى تزكم الأنوف والتى لا يعرف أحد مصدرها . وما كادا يسيران بضع خطوات حتى شاهدا رجلين لا يستر جسد أى منهما سوى قطعة صغيرة من قماش قذر تخفى عورته ! كان الرجلان يتشاجران . أحدهما فى نحو السبعين هزيل الجسم يحمل خنجراً ، والآخر فى نحو الثلاثين قوى البنية مفتول العضلات . فأشفق ميم على الرجل العجوز . ولكن دهشته كانت عظيمة عندما رأى ذلك الرجل الذى فى نحو السبعين يسدّد نحو الشاب المفتول العضلات

ضربة قوية جعلت الدم يتدفق من أنفه وفمه ، ثم يجثم فوقه ويغمد فى صدره خنجراً ، وترك جثة الرجل غارقة فى الدماء ، وسار متجهاً نحو حانة قريبة من المكان ورجل الشرطة واقف يبتسم دون أن يفعل شيئاً ! وأقبلت سيارة سوداء حملت الجثة وانطلقت مبتعدة عنهم ، فصاح ميم قائلاً للعسكرى الذى يبدو شبه عار ويعلق فى عنقه قلادة تحمل شارة الشرطة :

– لماذا لا تتحرك ؟ لماذا لا تفعل شيئاً ؟ لقد ارتكبت أمام عينيك جريمة قتل وأنت واقف تبتسم :

نظر إليه الشرطى وقال مندهشاً :

– اسكت . أنت لا تفهم شيئاً فى هذه المدينة .

قالت الزوجة للشرطى :

– ألم تشاهد طفلاً وطفلة هنا ؟

فقال رجل الشرطة :

– شاهدت عديداً من الأطفال .

ثم انقض رجل الشرطة على زوجة (ميم) وقبلها وقال لميم :

– تعجبنى زوجتك ! لقد أحسنت الاختيار !

وابتسمت الزوجة لرجل الشرطة ثم طوقته بذراعيها وقالت :

– وأنت تعجبنى . أنت وسيم . أجمل من زوجى !

صفعها (ميم) على وجهها فانفجرت تبكى وارتمت فى أحضان رجل الشرطة الذى أخذ يتحسس جسدها ويقبلها قائلاً :

– لا تبكى يا عزيزتى ، إنه زوج متوحش ، لقد أسأت الاختيار !

فجذبها (ميم) من يدها وأخذ يجرها معه وهو يعدو وهى تتلفت من آن لآخر نحو رجل الشرطة وترسل له قبلة فى الهواء ، وتلوح له بيدها مودعة وهو يلوّح لها . قال لها (ميم) غاضباً :

– أنسيت أننا جئنا هنا لنبحث عن طفلينا ، وأن ابننا تلقى إنذاراً بتنفيذ حكم الإعدام فيه ؟

فجلست الزوجة على الأرض وأخذت تبكى وتلطم خدها وتقول :

– ابنى ، حبيبى ، أين أنت الآن يا حبيبى ؟ وأين أنت الآن يا ابنتى ؟

جذبها (ميم) من ذراعها ، فقامت وأخذ يعدو باحثاً عن طفليه وهى تعدو خلفه تبكى وتولول ، فأمسك بيدها وسارا معاً فى حارة ضيقة وسمع (ميم) صفيراً منبعثاً من أعلى ، فالتفت إلى مصدر الصوت فوجد العملاق الذى قابله عند زيارته للرجل الذى كانت زوجته خادمة عنده ، ونظرت زوجته فرأت العملاق وسمعته يقول لها :

– أنا أحبك ! أحببتك عندما رأيتك فى الزيارة . تعالىْ عندى لنسعد معاً فترة من الوقت . أنا لا أحب زوجتى ! أحبك أنت !

كان (ميم) لا يزال قابضاً على يد زوجته فجذبت يدها بشدة ، وأفلتت منه قائلة :

– سأذهب لأرى ماذا يريد منى هذا الرجل ؟ فلقد أعجبنى عندما رأيته فى الزيارة !

وجرت مندفعة نحو باب منزل ذلك الرجل . فجرى (ميم) خلفها ليمنعها من الدخول ، ولكنها سبقته وأسرعت بدخول المنزل ، وأغلقت الباب خلفها فى

وجه (ميم) الذى نظر إلى الشرفة فرأى العملاق قد اختفى داخل منزله . وقف (ميم) فترة من الزمن حائراً لا يدرى ماذا يفعل ؟ فترك زوجته فى منزل ذلك الرجل وأسرع الخطى باحثاً عن طفليه والعرق يتصبب منه ! كان يسير على غير هدى فى أزقة مظلمة تمزق النفس متلهفاً على لقاء طفليه ومتألماً من سلوك زوجته التى نسيت طفليها ، وارتمت فى أحضان ذلك العملاق ، ووجد نفسه فى ميدان به ما يشبه مدينة للملاهى . فتوقع أن يرى طفليه فى هذا المكان ، ولكنه لم يجدهما ، بل وجد فتاة ترقص مرتدية قميص نوم قصيراً شفافاً وحولها من الرجال ما لا يقل سن أحدهم عن ستين عاماً يصفقون لها ! ووجد عجلة شاهقة الارتفاع معلقاً بها عدد من الأراجيح . كل أرجوحة ذات كرسيين متقابلين . وقد شغل جميع الكراسى عدد هائل من النساء العجائز والرجال الكبار السن يصرخون ويصيحون ويهللون كما يفعل الأطفال والعجلة تدور بأقصى سرعتها .

ترك ميم هذا الميدان وأخذ يعدو على غير هدى فى شارع لم يسبق له السير فيه . تمنى أن تكون معه زوجته التى تعرف جميع خبايا هذا الجزء الخلفى من المدينة ، لترشده إلى محل لعب الأطفال الذى سبق أن وجد فيه طفليه . وفى أثناء سيره فى هذا الشارع كان يطل عليه من الشرفات ومن أبواب المنازل فتيات شبه عاريات مرتديات قمصان النوم القصيرة يغازلنه ويدعونه لممارسة الحب ! ورأى من بينهن فتيات ونساء سبق أن رآهن فى الشارع الرئيسى الذى يسكن فيه ولم يكن يجرؤ على مجرد النظر إليهن ! ولم يكن يتصور أن يراهن شبه عاريات فى هذا الجزء الخلفى من المدينة . تعرف من بينهن على فتاة مكتب الاستعلامات كما رأى زوجة العملاق التى كانت تبدو فى أثناء الزيارة خجولاً لا تكاد ترفع

عينيها عن الأرض ، ولكنها هنا تبتسم له وتدعوه ليصعد إليها . وشعر بالكتاب عندما تذكر أن زوجته لابد أن تكون الآن فى أحضان ذلك العملاق زوج هذه السيدة . لم يبرهن ميم أى اهتمام ومضى فى طريقه يبحث عن طفليه .

ظل يعدو فى شوارع ذلك الجزء من المدينة وقد انهكه التعب وفكر فى أن يستريح ويلتقط أنفاسه فى أحد المقاهى ، ولكنه فى هذه اللحظة سمع بكاء طفلة فانقبض قلبه واتجه نحو مصدر الصوت فوجد ابنته جالسة تبكى وقد تمدد أمامها أخوها فى شبه غيبوبة والدم يسيل من ساقه المجروحة ، وما إن رأت الطفلة أباها حتى ارتمت فى أحضانه وهى تنتحب وقالت :

– لقد صدمته سيارة مسرعة فجرحته وألقته على الأرض .

حمل ميم ولده الجريح على كتفه وسحب ابنته من يدها وانطلق بهما عائداً إلى منزله . وعندما دخل المنزل أسرع بوضع ولده على السرير وأخذ يضمد جراحه ويناجيه بصوت مرتعش متهدج والطفل لا ينطق ولا يتحرك . أحضر كمية من الماء رشها على وجه الطفل ففتح عينيه وبدأ يبكى . وفى هذه اللحظة أقبلت زوجته التى عادت تواً من الجزء الخلفى للمدينة . ولما رأت طفلها بهذه الحال صرخت قائلة :

– ابنى حبيبى ، ماذا حل بك يا فلذة كبدى ؟ ماذا جرى لك يا قرة عينى ؟

فدفعها ميم دفعة قوية ألقت بها على الأرض . فقامت تترنح وتصرخ حتى خارت قواها ، فارتمت على حافة السرير والدمع يبلل خديها . جذبها ميم من يدها جذبة قوية فاعتدلت فى جلستها وقال لها :

– ماذا نفعل الآن ؟ لابد أن نفعل شيئاً ، لن نتركه حتى يفقد فيه

حكم الإعدام . فقالت الزوجة بصوت ضعيف :

– اذهب إلى الرجل الذى كنت أعمل عنده ، والتمس منه السعى لدى مالك المدينة لتأجيل حكم الإعدام .

فخرج ميم من المنزل وانطلق يعدو نحو منزل ذلك الرجل وشعر بإرهاق شديد ودوار ، وأحس بساقيه تنهاران تحته ، فسقط على الأرض خائر القوى . وحاول أن ينهض من كبوته ، ولكن ساقيه لم تتمكنا من حمله ، ومرت بجواره سيارة يقودها شاب فى نحو العشرين ، ولما رأى (ميم) ملقى على الأرض أوقف السيارة وأسرع إليه وسأله :

– إلى أين أنت ذاهب أيها الأخ الكريم ؟

فنظر إليه ميم بعينين يبللها الدمع وقال :

– وصلنى إنذار بتنفيذ حكم الإعدام فى ولدى الصغير ، وكنت فى طريقى إلى رجل أعرفه ، ليتوسط لى لدى مالك المدينة لإلغاء حكم الإعدام وفى الطريق خارت قواى .

فقال له الشاب :

– تنفيذ حكم الإعدام لا يلغى ، ولكنه يؤجل . فكل أهل المدينة محكوم عليهم بالإعدام . ألا تعلم ذلك ؟

ومد يده ، فساعده على الوقوف ، وحمله إلى السيارة ، وجلس الشاب خلف عجلة القيادة ، وانطلقت السيارة بأقصى سرعتها نحو العنوان الذى ذكره (ميم) .

استقبله الرجل بحفاوة ، وفزع عندما رآه فى هذه الحالة من الحزن والقلق والإرهاق وسأله :

– ماذا حدث ؟

فقال ميم بصوت مضطرب :

– وصلنا إنذار بتنفيذ حكم الإعدام فى طفلى .

فقال الرجل :

– سأبذل كل جهدى لتأجيل تنفيذ الحكم .

وخرج من الصالون وترك (ميم) وحده فترة من الزمن ، ثم عاد متهلل الوجه مبتسماً وقال :

– لقد نجح مسعاى وتقرر تأجيل تنفيذ حكم الإعدام فى ولدك . ولكن على شرط .

فقال ميم فى لهفة :

– أنا أقبل جميع الشروط مهما كانت .

فاستمر الرجل فى حديثه قائلاً :

– على شرط أن تدور فى الطاحونة مائة دورة ، ويلهب ظهرك بمائة سوط !

فقال ميم على الفور :

– أقبل كل هذا فى سبيل تأجيل حكم إعدام ابنى .

وانحنى يقبل يد الرجل ثم هوى على قدميه يقبلها ، وخرج من المنزل منطلقاً نحو الطاحونة وعندما دخل الطاحونة وجد الحارس الأول البدين الذى استقبله بوجه عبوس وقال :

– كانت زوجتك سبباً فى عقابى وإبعادى عن الطاحونة بعض الوقت وهأنذا قد عدت من جديد لأسومك العذاب !

وبدأ ميم يدور فى الطاحونة والحارس يلهب ظهره بالسوط بقوة ووحشية لم يعهدها من قبل . ولكن (ميم) احتمل كل هذا فى سبيل تأجيل حكم الإعدام فى ابنه ، وأتم الدورات المائة وعاد متجهاً نحو منزله بأقصى سرعته .

وعندما دخل المنزل وجد الخادم جالساً على إحدى درجات السلم المؤدى إلى الدور العلوى فسأله بلهفة :

– أين زوجتى وطفلاى ؟

فقال الخادم وهو مطرق للأرض دون أن ينظر إليه !

– لقد شفى ابنك الجريح ، وأخذ يعدو ويقفز فى جميع أنحاء المنزل فأخذته زوجتك هو وأخته وذهب الجميع إلى الجزء الخلفى من المدينة .

فصاح ميم فى غضب :

– إلى الجزء الخلفى مرة أخرى فى هذا الظلام ! ولماذا ذهبوا إلى الجزء الخلفى ؟

فقال الخادم بدون اكتراث :

– هذا السؤال يوجه لزوجتك .

وقام الخادم وهبط باقى درجات السلم ودخل غرفته وأغلق بابها .

فكر ميم فى الذهاب إلى الجزء الخلفى للبحث عن عائلته ، ولكنه شعر بإرهاق شديد ، فصعد السلم وألقى بجسده فوق السرير . وبعد نحو ساعة

سمع صوت أقدام تصعد السلم ورأى ابنه وابنته يقتحمان الغرفة ، فقفز ميم من السرير واحتضن ابنه وسأله :

– كيف حالك الآن ؟

فقال الطفل :

– لقد شفى الجرح وأصبحت أستطيع الجرى كما كنت .

وقال ميم :

– أين أمكما ؟

فقالت الطفلة :

– طلبنا منها الحضور معنا ولكنها فضلت أن تبقى مع الرجل الطويل العريض !

فضرب ميم كفاً بكف وقال :

– مع الرجل الطويل العريض مرة أخرى وتترككما تأتيان وحدكما ؟

فقالت الطفلة :

– أنا لا أحب هذا الرجل ، إنه يخيفنى !

أطرق ميم إلى الأرض حزيناً ، ثم قام ووضع الطفلين فى سريرهما وبعد لحظات كانا فى سبات عميق . وظل ميم ينتظر عودة زوجته ولكنه شعر برغبة شديدة فى النوم ، فلم يستطع المقاومة وتمدد على السرير ولم يلبث أن استغرق فى النوم .

فى الصباح استيقظ من نومه ، وفتح عينيه ولكن زوجته لم تكن بجواره . وتعجب كيف تقضى الليل بطوله فى الجزء الخلفى من المدينة . ونظر إلى

سرير الطفلين فلم يجدهما . فقام مسرعاً وهبط السلم فرأى الطفلين فى البهو يلهوان باللعب التى أحضرها من محل اللعب وأخذا يتشاجران ، كلٌ يريد أخذ لعب الآخر ، ففض المشاجرة التى نشبت بينهما ، وجلس على أحد الكراسى ووضع رأسه بين كفيه وأخذ يفكر فى زوجته . ثم سمع وقع أقدام على السلم فرفع رأسه ورأى طفليه يتزلقان على درابزين السلم ، فنهرهما وطلب منهما ألا يفعلا هذا مرة أخرى . فانسحبا نحو ركن البهو وبدأ الشجار بينهما مرة أخرى . فقام ليفض المشاجرة من جديد ، ولكن الطفل ظل يصرخ مطالباً بدميته التى استولت عليها الطفلة واحتضنتها بقوة . فحاول ميم أن يأخذ منها الدمية ويعيدها للطفل ، ولكن الطفلة ظلت قابضة عليها بكل قوتها ، وأخذت تصرخ هى الأخرى . وفى أثناء هذه الزوبعة فتح الباب الخلفى ودخلت الزوجة وهى تترنم بأغنية ذات لحن جميل . فكف الطفلان عن الصراخ ، ووقفا فى ركن البهو وقد لزما الصمت ، ولما رأت الزوجة (ميم) أقبلت نحوه وسألته فى لهفة :

– ماذا صنعت يا حبيبى ؟ لقد شوفى ابننا والتأمت جراحه .

فقام ميم وهو مطرق الأرض متحاشياً النظر إليها :

– درت فى الطاحونة مائة دورة وألهب ظهرى بمائة سوط كشرط لتأجيل حكم الإعدام .

فاحتضنته زوجته وأخذت تقبله قائلة :

– أنت حبيبى ، أنت سيد الرجال !

فقال ميم ساخراً وهو لا يزال ناظراً نحو الأرض :

– سيد الرجال ! أمن أجل هذا تركتنى وتسربت إلى الجزء الخلفى لمقابلة

الرجل العملاق فى الوقت الذى كنت أشق فيه كل هذا الشقاء؟

فاختنقت بالبكاء وقالت :

– أنت تعلم يا حبيبى أن الذهاب إلى الجزء الخلفى للمدينة يتم بدون إرادتنا ولا يمكننا السيطرة عليه ! أنت حبيبى ولا أحب سواك ! أنت نور عينى وبهجة فؤادى ! هل فكرت يا حبيبى فى تكاليف المدارس؟ الطفلان سيلحقان بالمدارس غداً ولم نحضر لهما الملابس اللازمة ولم ندفع لهما المصروفات .

فنظر إليها ميم لحظة ، ثم أطرق للأرض وقال :

– لم تعد معى نقود ، لقد درت فى الطاحونة فى هذه المرة بلا أجر .

فنظرت إليه وقد اتسعت عيناها دهشة وقالت :

– ولكنك رب الأسرة وأنت المسئول عن تدبير كل ما تحتاج إليه الأسرة من مال .

فقال غاضباً :

– وماذا تريدين منى أن أفعل الآن؟

فطوقت عنقه بيدها وقبلته وقالت :

– تدور فى الطاحونة يا حبيبى . فى هذه المرة سيعطونك أجراً وسأجمع من المتفرجين عليك بعض النقود .

فقال غاضباً :

– لقد درت ليلة أمس مائة دورة ، وضربت مائة سوط ولا يزال ظهرى دامياً ملتهباً فهل تنتظرين منى أن أذهب الآن وأدور من جديد؟

فنفرت الزوجة وجلست على فخذيه وقالت بدلال :

– هيا يا حبيبى لا تكن كسولاً . أنت سيد الرجال !

فقام ميم والدم ما زال ينزف من ظهره وسار متجهاً نحو الطاحونة وخلفه زوجته وقد أمسكت بيدى الطفلين ، وأخذت تغنى أغنية مرحة ، وتجمع خلفهم فى أثناء سيرهم عدد هائل من الأطفال يصيحون ويهللون ويصفقون ، فقالت الزوجة لميم وفى عينيها بريق الفرح :

– انظر يا حبيبى إلى هذا الموكب الهائل من الأطفال الذين سيتفرجون عليك وأنت تدور فى الطاحونة وتضرب بالسوط ! سيكون الإيراد كبيراً فى هذا اليوم المتدرج ، ألا يسعدك هذا؟

ظل ميم يدور فى الطاحونة من الصباح حتى اضيئت مصابيح الشارع فى المساء وكانت زوجته تحثه على إطالة مدة الدوران لكى تضمن تجمع أكبر عدد من المتفرجين . ولما انتهى من الدوران أعطاه الحارس عشرين قرشاً كالمعتاد ، ولم يضع فى الاعتبار المدة الطويلة التى قضاها ميم فى الدوران فى هذه المرة ، وعندما خرج من باب الطاحونة وجد زوجته تكاد تطير فرحاً وفى يدها النقود التى جمعتها من الأطفال تعدها بلهفة . ثم نظرت إلى زوجها المنهوك القوى وقالت ووجهها متهلل من الفرحة :

– لقد جمعت اليوم من المتفرجين ستة جنيهات وثلاثين قرشاً !

وسار ميم نحو منزله يجر ساقيه والدم ينزف من ظهره وبجواره زوجته وابنه وابنته وخلفهم موكب من الأطفال يصيحون ، ومروا بجوار محل لبيع الملابس الجاهزة فقالت الزوجة :

– هيا نشترى ملابس المدرسة للطفلين من هذا المحل؟

فقال ميم وقد بدأ يفقد توازنه :

– أشعر بدوار وإعياء شديد .

فجذبته زوجته نحو باب المحل قائلة :

– من العار أن يشكو الرجل ، الرجال لا يشكون يا سيد الرجال ، هيا هيا .. ثم دفعته دفعة قوية ، فوجد نفسه داخل المحل وخلفه زوجته وقد أمسكت بيد الطفلين . وظل موكب الأطفال مرابطاً أمام باب المحل يشرئبون بأعناقهم ويضحكون لمشاهدة ميم وهو يسير مترنحاً كالسكران من شدة الإعياء .

أخذت الزوجة تنتقي ملابس الطفلين ، ثم سألت عن الأسعار فأخبرها البائع أن ثمن الثوبين سبعة جنيهات ، فنظرت إلى زوجها وقالت :

– النقود غير كافية يا حبيبي ، يلزمنا خمسون قرشاً أخرى .

فقال ميم وقد شعر بيأس قاتل :

– وماذا نفعل ؟

– تدور في الطاحونة بضع دورات أخرى .

– لا أستطيع الدوران . أكاد أسقط إعياء .!

فقالت الزوجة غاضبة .

– أنت المسئول عن تكاليف الأطفال ومصروف المنزل ، هل تنتظر مني أن أذهب أنا وأدور في الطاحونة ؟ ! لماذا تزوجت إذا كنت لا تستطيع الإنفاق على أسرتك ؟

ثم قالت آمرة :

– هيا إلى الطاحونة ولا تجعلني أخجل من زواجي منك ، وألعن اليوم الذي رأيتك فيه !

فخرج ميم من المحل وسار يجر ساقيه وهو في شبه غيبوبة وجذبته زوجته من يده فكاد يسقط على الأرض ، وحملت طفلها على كتفها وأمسكت يد الطفل وخلفهم الأطفال صائحين مهللين ، واتجه الموكب نحو الطاحونة ، ظل ميم يدور في الطاحونة ويضرب حتى دخلت زوجته ، وهمست في أذنه قائلة :

– كفى دوراناً لقد جمعت من المتفرجين ثلاثة جنيهات أخرى .

فتوقف ميم عن الدوران وأعطاه الحارس خمسة قروش أجراً على دورانه ، وسار الموكب متجهاً نحو متجر الملابس وقد أصبح معهم نحو تسعة جنيهات .

قالت الزوجة للبائع وهي متهللة الوجه :

– لقد أحضرنا النقود المطلوبة ، الجنيهات السبعة ، ونريد شراء الملابس .

فقال البائع :

– لقد ارتفع السعر في هذه الفترة وأصبح ثمن الملابس ثمانية جنيهات .

فصاحت الزوجة غاضبة :

– هل ترتفع الأسعار من سبعة جنيهات إلى ثمانية جنيهات في ساعة واحدة ؟

فقال البائع غاضباً :

– ولماذا تصيحين في وجهي ؟ لست أنا المسئول عن ارتفاع الأسعار !

فقالت الزوجة ملوحة بيدها أمام وجهه وقد أوشكت أن تضربه :

– ومن المسئول ؟ أريد أن أرى هذا المسئول ! لقد دار زوجي في الطاحونة طوال النهار والليل ليحصل على هذا القدر من المال من الطاحونة

ومن المتفرجين عليه ، ولم يعد فى استطاعته الدوران دورة واحدة أخرى .

فى هذه الأثناء جاء صبى وسلم البائع ورقة صغيرة صفراء وعندما قرأها أطرق للأرض فى حزن وقال :

– لقد ارتفعت الأسعار مرة أخرى فى هذه اللحظة ، أصبح ثمن الملابس تسعة جنيهات . لو كنتم أسرعتم بشرائها بدلاً من هذا الصراخ لوفرتم لأنفسكم جنيهاً !

فاختطفت الزوجة الملابس وأسرعت بدفع الجنيهات التسعة وخرجت من المحل وهى تجر معها طفليها وزوجها الذى أصبح يتعثر فى خطاه من شدة الإعياء ، وساروا نحو المنزل فى زفة من الأطفال ! وما كادوا يخطون بضع خطوات حتى انهار (ميم) وسقط على الأرض . وفى هذه اللحظة توقفت بجوارهم سيارة حمراء وهبط منها رجل يرتدى بدلة حمراء وسلم على الزوجة ورقة حمراء . سألها ميم بصوت ضعيف :

– ماذا فى هذه الورقة ؟

قالت الزوجة فى هدوء وكأن الأمر لا يعنيها :

– إنذار بتنفيذ حكم الإعدام فيك يا حبيبى .

وسحبت الزوجة طفليها ، واتجهت مهرولة نحو المنزل تاركة (ميم) ملقى على الأرض لا يقوى على القيام وحوله حشد هائل من الأطفال يرقصون ويغنون .

١٧

بعد دقائق توقفت سيارة بيضاء تقودها فتاة جميلة فى نحو العشرين ذات عينين زرقاوين واسعتين وشعر كستنائى ناعم غزير ، هبطت الفتاة من السيارة وشقت طريقها بين الأطفال وساعدت (ميم) على النهوض وأسندته حتى أوصلته إلى السيارة وعاونته حتى جلس فى المقعد الخلفى وانطلقت بالسيارة .

عندما وقفت السيارة أمام أحد المبانى كان (ميم) قد استرد بعض قوته ، قفزت الفتاة من السيارة برشاقة وفتحت له الباب الخلفى وأمسكت بيده حتى هبط من السيارة ، وظلت ممسكة بيده وهما يجتازان حديقة تسبح فى الأضواء الساطعة . كان (ميم) يسير مع الفتاة وكأنه فى حلم ، ظل صامتاً ونظر إلى المبنى فوجده قصراً رائع البناء أخضر اللون ذا نوافذ زرقاء . صعدا معاً الدرجات المؤدية إلى باب المنزل ، وأخرجت الفتاة من حقيبة يدها مفتاحاً وفتحت الباب ، فوجد (ميم) البهو ممتلئاً بالفتيات والشبان والرجال يرقصون على أنغام موسيقى هادئة شجية تعزفها فرقة موسيقية . ولأول مرة التفت (ميم) إلى الفتاة وسألها :

– أين نحن ؟

قالت الفتاة مبتسمة :

– فى بيتى .

أخذ (ميم) يدير عينيه فى أنحاء البهو مندهشاً ، وقال للفتاة :

– ماهذه الضجة ؟

قالت الفتاة :

– موسيقى ورقص وعشاء .

قال (ميم) :

– وما المناسبة السعيدة ؟

فنظرت إليه بعينيها الزرقاوين الساحرتين وقالت :

– لا شيء ! أنت تعلم أن جميع أهل المدينة محكوم عليهم بالإعدام ، ولذا فمن الضرورى أن نرفه عن أنفسنا من آن لآخر ، لننسى ذلك المصير الرهيب الذى ينتظرنا حتى لا نظل فى غم ورعب طوال فترة حياتنا القصيرة .

فأطرق (ميم) للأرض ودمعت عيناه وقال :

– وصلنى اليوم إنذار بتنفيذ حكم الإعدام .

فقالت الفتاة فى فزع جعل عيناها تزدادان اتساعاً وجمالاً :

– تنفيذ حكم الإعدام فيك أنت ؟

– أجل .

فسحبته من يده وسارا يشقان طريقهما بين المدعوين والمدعوات وصعدا معاً درجات السلم المؤدى إلى الدور العلوى . ودخلا غرفة نوم ذات جدران فستقية اللون وستائر صفراء وطلبت منه أن يستلق على السرير ، وغادرت الغرفة . ثم عادت بعد دقائق وفى يدها إناء به سائل ولفافة كبيرة من القطن ، وفى حرص شديد خلعت سترته الممزقة وقميصه المهلهل الملوث بالدماء ، وغمست قطعة

من القطن فى السائل وأخذت تضمد جراحه . ولاحظت هزاله الشديد حيث كانت ضلوعه يمكن عدها ضلعاً ضلعاً وكأنه هيكل عظمى . فترقرقت الدموع فى عينيها وقالت :

– أنت شديد الهزال مثخن بالجراح ، ما الذى فعل بك هذا ؟

فقال ميم وقد أسبل جفنيه على عينيه :

– الدوران فى الطاحونة والضرب بالسياط وضيق ذات اليد !

فقالت الفتاة فى شفقة ودهشة :

– لأى غرض أتيت إلى هذه المدينة ؟

فقال (ميم) :

– البحث عن الحقيقة .

فانسابت الدموع من عينى الفتاة ، وحنت على رأسه تقبلها ، وأسرعت بالخروج من الغرفة ، وسمع (ميم) وقع خطواتها وهى تقفز هابطة درجات السلم وهو فى دهشة لا يعرف تفسيراً لهذا السلوك ! توقف عزف الموسيقى ، وبعد لحظات سمع وقع أقدام عديدة تصعد السلم ودخلت الفتاة الغرفة ، ووقفت بجواره ، ونظر فوجد حشداً من الناس يقفون بالباب ، انحنت الفتاة وقبلت رأسه وتبعتها فتاة أخرى ثم شاب ثم رجل وهكذا أخذ الجميع يقبلون رأسه واحداً بعد الآخر ، ثم خرجوا من الغرفة وسمع خطواتهم وهم يهبطون السلم فى بطء ، وظلت الفتاة واقفة بجواره فقال لها :

– لماذا يقبلون رأسى ؟

فجلست الفتاة على حافة السرير ، ووضعت يدها على جبينه وقالت

وكأنها تحدث نفسها ودموعها تنساب على خديها :

— حملك ثقيل وحظك قليل وهمومك تنوء بحملها الجبال !

تعجب (ميم) من تأثر الفتاة وبكائها من أجله وهى التى لم يرها فى حياته قبل اليوم ، فى حين أن زوجته التى يشقى من أجلها لم تذرف من أجله دمعة وهى تراه يدور فى الطاحونة ويلهب جسده بالسوط ، بل كانت تضحك كلما سمعته يذكر الطاحونة ، وتركته ملقى على أرض الشارع منذ لحظات وتذكر (ميم) أن ظل ابتسامة خفيفة كان قد لاح على شفتيها وهى تخبره عن الإنذار بحكم الإعدام الذى قرأته فى الورقة الحمراء . تمنى فى أعماق نفسه لو أن الظروف كانت قد أتاحت له فرصة رؤية هذه الفتاة الرقيقة التى ضمدت جراحه وبكت من أجله ليتزوجها بدلاً من زوجته الحالية إذا كان لابد من الزواج ! وفى هذه اللحظة انتفضت الفتاة واقفة فى فزع وقالت :

— نسيت أنك تلقيت إنذاراً بتنفيذ حكم الإعدام فيك . ينبغى أن أفعل شيئاً لتأجيل تنفيذ الحكم .

فقال (ميم) وفى صوته رنة يأس :

— لم يعد الأمر يهمنى . لم تعد لى رغبة فى الحياة !

فأطرقت الفتاة نحو الأرض لحظة وبدت وكأنها تفكر تفكيراً عميقاً ثم قالت :

— أعرف رجلاً وثيق الصلة بمالك المدينة ، سأتصل به تليفونياً وألتمس منه التوسط لتأجيل تنفيذ حكم الإعدام .

وانطلقت تعدو خارج الغرفة ، وبعد قليل عادت متهللة الوجه وقالت :

— لقد قبل مالك المدينة تأجيل تنفيذ حكم الإعدام فيك .

وجلست بجواره على حافة السرير ناظرة إليه مبتسمة . وخطرت (لميم) فكرة غريبة . أن تلك الفترة التى أضيفت إلى عمره لم تعد من حق زوجته التى تركته ملقى فى الطريق وهو منذر بتنفيذ حكم الإعدام فيه ولاذت بالفرار ، بل رأى أن من واجبه أن يكرس ما امتد من عمره لإسعاد تلك الفتاة صاحبة الفضل فى تأجيل تنفيذ حكم الإعدام ، ولكن كيف يسعدها ؟ هل يتزوجها لتحل محل زوجته الحالية ؟ ولكن هل يسعدها زواجها منه ؟ كلا ، بل سوف يشقيها ، من الأفضل لها أن يظل بعيداً عنها ، إنه لا يجب أن تشقى معه . كانت هذه الأفكار تدور فى رأس (ميم) وشعر بأنه أسترد قوته ، فقفز من السرير ، فنظرت إليه الفتاة مندهشة وقالت :

إلى أين أنت ذاهب ؟

فقال :

سأذهب إلى منزلى ، إلى زوجتى وأولادى .

فازدادت دهشة الفتاة وقالت :

— زوجتك ؟ هل أنت متزوج ؟

— نعم ، ولى طفل وطفلة .

— مسكينة زوجتك ! إنها لا تعلم أنك سقطت فى الطريق من شدة الإعياء ، وأن حكم الإعدام على وشك أن ينفذ فيك !

فقال (ميم) بمرارة :

— كانت زوجتى معى عندما سقطت إعياء فى الطريق !

رفعت الفتاة حاجبيها دهشة وقالت :

- كانت معك ! مسكينة ! وماذا فعلت ؟

تركتني ملقى فى الطريق ولاذت بالفرار !

- أنا لا أصدق .

فقال (ميم) محاولاً التماس العذر لزوجته :

- ربما تكون قد ذهبت للسعى لتأجيل حكم الإعدام .

فأطرقت الفتاة للأرض لحظة ثم نظرت إليه وقالت :

- كلا ، لم تفعل ذلك ، عندما اتصل الرجل بمالك المدينة ملتمساً تأجيل حكم الإعدام فيك عرف أن أحداً لم يتصل بمالك المدينة من قبل بشأن هذا الموضوع .

أطرق (ميم) للأرض فى حزن ، واتجه نحو باب الغرفة فاعترضت الفتاة طريقه قائلة :

- لا تذهب قبل تناول الطعام ، هيا معى .

سار معها (ميم) مستسلماً وهبطا معاً السلم نحو الدور الأرضى ، كان جميع المدعوين قد انصرفوا وساد الصمت فى جميع أنحاء المنزل وعلى أحد الكراسى بالبهو رأى (ميم) رجلاً كهلاً ضامر الجسم مرتدياً روباً منزلياً أزرق اللون يضع على حافة أنفه نظارة مستغرقاً فى مطالعة إحدى الصحف وبجواره امرأة فى نحو الأربعين يدل مظهرها على أنها كانت ذات حسن وبهاء فى شبابها . كانت منهمكة فى تطريز قطعة من القماش ، قالت الفتاة (لميم) مشيرة نحو الرجل :

- هذا أبى .

فنظر الأب إلى (ميم) مبتسماً وقام بصعوبة وصافحه ، ثم جلس واستأنف قراءة الصحيفة ، ثم قالت الفتاة مشيرة نحو السيدة :

- وهذه أمى .

رفعت الأم رأسها وابتسمت ومدت يدها (لميم) وصافحته ، ثم استأنفت التطريز ، وقالت الفتاة :

- وجدته ملقى فى الطريق منهوك القوى وقد وصله إنذار بتنفيذ حكم الإعدام فيه .

فنظر كل من الأب والأم إليه وقالت الأم :

- مسكين !

فقال الأب :

- كلنا مساكين ! جميع أهل المدينة محكوم عليهم بالإعدام .

فأطرقت الفتاة للأرض لحظة ثم رفعت رأسها وقالت وفى صوتها رنة حزن :

- إنه يدور فى الطاحونة ويلهب جسده بالسياط .

ثم توقفت عن الحديث لحظة وقالت وقد أسبلت جفنيها على عينيها

- لقد أتى إلى المدينة ليبحث عن الحقيقة .

فأسرع الأب بإلقاء الصحيفة التى كانت فى يده ، وتركت الأم القماش الذى كانت تطرزه وقام الأب واقترب منه وقبل رأسه ، ثم حذت الأم حذوه ، وجلس الأب مطرقاً للأرض وخبأت الأم وجهها بيديها وبدت كما لو كانت تبكى ، وقالت الفتاة لميم :

- هيا معى لتناول الطعام .

وقادته إلى غرفة طعام فاخرة ، ازدحمت مائدتها بشتى أنواع الغذاء الشهى والحلوى والفاكهة . جلس (ميم) وجلست الفتاة أمامه فى الجهة المقابلة ، استندت بمرفقيها على المائدة ووضعت كفيها على خديها . ونظرت إلى (ميم) وقالت :

– اعتبر نفسك فى منزلك .

فأقبل (ميم) على الطعام بنهمه والفتاة لا تحول نظرها عنه ، وعندما انتهى من تناول الطعام قال للفتاة :

– أشعر الآن بالحياة تدب فى جسدى . أشكرك من أعماق قلبى .

فنظرت إليه الفتاة بعينين مبتسمتين ولزمت الصمت ، فقال لها (ميم) :

– ما اسمك .

– اسمى « لام » ، واسمك ؟

– اسمى (ميم) .

قالت الفتاة وعيناها لا تزالان تبتسمان :

– اسمان متقاربان ، الميم فى الحروف الهجائية تجلس دائماً بجوار اللأم !

فقال (ميم) وكأنه يحدث نفسه :

– ليتنا نفعل كما تفعل حروفنا الهجائية !

فضحكت الفتاة ضحكة رقيقة ، واستولى على (ميم) إحساس جديد لم يكن له عهد به من قبل ، إنه لا يستطيع الحياة بعيداً عن هذه الفتاة ، فأطرق للأرض وقال دون أن ينظر إليها :

– غريبة تلك المدينة .

– كيف ؟

– الإنسان لا يعثر على الفتاة التى صنعها مالك المدينة لتعيش معه ويسعدا معاً إلا بعد أن يكون قد تورط فى الزواج من فتاة أخرى لا تصلح له !

فأسبلت جفنيها وقالت :

– ألا تحب زوجتك ؟

– لا أحبها ولاتحبنى .

فقالت وقد اتجه نظرها بعيداً عنه :

– ولماذا تزوجتها ؟

فقص عليها ظروف زواجه منها ، فنظرت إليه وقد تلاشت ابتسامتها وظلت تحدق فى وجهه نحو دقيقة وقالت :

– آه ! لقد تذكرت . . تذكرت الآن كل شىء !

فقال (ميم) مندهشاً :

– تذكرت ماذا ؟

قالت وهى تسترجع فى ذاكرتها ذلك المشهد :

– لقد رأيتك فى القاعة فى تلك الليلة .

فنظر إليها بدهشة وقال :

– هل كنت فى تلك القاعة فى ذلك اليوم ؟

– كنت أجلس بجوار الفتاة التى تزوجتها ، وابتسمت لك كما ابتسمت هى . ولكنك لم ترنى ولم تر ابتسامتى . فاتت ابتسامتى على شفتىّ ، كانت الفتاة التى تزوجتها تبتسم لكل شاب تراه ! ولكنى فى تلك الليلة لم أبتسم لأحد

سواك ، ولكنك لم تر إنسانى !

فلمعت الدموع فى عينى (ميم) وقال :

– هذا من سوء طالعى .

فقالت الفتاة فى تأثر واضح :

– أنا أعرف زوجتك معرفة جيدة ، كما أعرف نقائصها .

فقال (ميم) وقد شعر بالألم يعتصر قلبه :

– إنه قدرى ! ولا يد لنا فى كل ما يحدث ، مانحن سوى دمى يحركها مالك المدينة .

نظرت الفتاة إليه بعينيها النجلاوين وقالت :

– كلا ، أنت الذى تصنع قدرك ، مالك المدينة يصنعنا ويمدنا بالقدرة على الحركة والتفكير ويترك لنا حرية الاختيار ، إنه لايجبرنا على حركة معينة أو اختيار شىء بالذات !

فقال (ميم) :

– ولكنى سمعت أننا دمى لاتتحرك إلاَّ بأمر مالك المدينة ، كما تتحرك العرائس عندما تحرك الخيوط المتصلة بها !

– كلا هذه العرائس نحركها بأيدينا لأنها لا قدرة لها على الحركة من تلقاء أنفسها ولم يضع لها صانعها عقلاً فى رأسها ! ولكن مالك المدينة وضع فى رءوسنا عقلاً وزودنا بالقدرة على الحركة والتفكير وتركنا نصنع بأنفسنا ما نشاء ، نحن دمى من نوع آخر .

– هل تعتقدين ذلك ؟

– بل أنا واثقة من ذلك كل الثقة . كل فرد من أفراد هذه المدينة هو الذى يصنع قدره فى حدود معينة .

– وماذا تقصدين بتلك الحدود المعيَّنة ؟

فلزمت الصمت فترة غير قصيرة ، وبدت وكأنها مترددة فى الكلام ثم قالت :

– أنت مثلاً : لقد أخبرك مكتب الاستعلامات أنك أتيت إلى المدينة للبحث عن الحقيقة ، هذا هو قدرك الذى لا يمكن تغييره ، ولكن لك تمام الحرية فى اختيار زوجتك أو فى البقاء بلا زواج لو أردت ، وأنا مثلاً : عندما رأيتك ملقى فى الطريق كانت لى مطلق الحرية فى أن أتركك فى مكانك وأمضى فى سبيلى أو أحضرك معى إلى منزل . لم يحركنى مالك المدينة ويجبرنى على اتخاذ سلوك معين فى هذا المجال ! إن مالك المدينة يشعر بمتعة وهو يراقبنا من خلال أجهزة التليفزيون الخاصة به ، ليعرف كيف نتصرف ؟ إنه لن يشعر بأية متعة لو حركنا وأملى علينا جميع تصرفاتنا .

فى هذه اللحظة أطل الأب من باب غرفة المائدة والصحيفة لا تزال فى يده وأشار لابنته فأسرعت إليه وأسرّ فى أذنها بضع كلمات ، ثم عاد إلى مكانه بالبهو ، فانشغلت الفتاة (ميم) فى الغياب عنه بضع لحظات ، وخرجت من الغرفة تعدو وسمع (ميم) وقع خطواتها على درجات السلم ، ثم عادت وفى إحدى يديها مشجب يحمل بذلة وفى اليد الأخرى قميص جديد ، وقالت (لميم) :

– أنى متأثر جداً وأمى بكت كثيراً لارتدائك هذه الملابس البالية ،

ونرجوك أن تستبدلها بهذه البدلة وهذا القميص.

شعر (ميم) بخجل شديد ، هل بلغت به الفاقة هذه الدرجة فأصبح مظهره يدعو للرثاء ويتصدق عليه الناس بالطعام والكساء؟ ومن الذى يتصدق عليه؟ الفتاة التى ابتسمت له ليتزوجها ولم ير ابتسامتها . لو رأى ابتسامتها وابتسم لها فى ذلك اليوم لأصبحت الآن زوجته . ولكنه فى مسيس الحاجة لهذه البدلة وهذا القميص . ومهما دار فى الطاحونة فلن يتمكن من توفير مبلغ من المال يكفى شراء بدلة وقميص . دارت هذه الأفكار فى ذهن (ميم) ، ثم مد يده وأخذ البدلة والقميص وهو مطرق للأرض وقد احمر وجهه خجلاً ودمعت عيناه ، وقالت الفتاة :

– سأتركك لحظة ريثما ترتدى هذه الملابس.

وغادرت الغرفة وأغلقت الباب خلفها ، خلع (ميم) ملابسه الرثة البالية وارتدى الملابس الجديدة ونظر فى المرآة التى تعلو البوفيه فرأى نفسه وقد بدا وسيماً أنيقاً . فتحت الفتاة الباب فتحة صغيرة أطلت منها فوجدت (ميم) مازال ناظراً لصورته فى المرآة ، فدخلت الغرفة مبتسمة وقالت :

– أرأيت كيف تغير مظهرك؟ كل فتاة فى المدينة تتمنى أن تتزوجك.

فقال (ميم) وكأنه يحدث نفسه :

– ولكننى لم أتغير، ملابسى هى التى تغيرت.

فقالت الفتاة :

– الغلاف الجميل يسترعى الأنظار إلى الكتاب القيم.

وتذكر (ميم) فى هذه اللحظة ابنه وابنته وأمهما فى حاجة إلى طعام ،

ولن يستطيع توفير المال اللازم لطعامها ، واشتاق لرؤية طفليه ، فقال للفتاة :

– لقد اشتقت لرؤية ابنى وابنتى ولابد أن أسرع الآن بالعودة إلى منزلى.

فأطرقت الفتاة للأرض فى حزن وقالت :

– كنت أحب أن يطول بقاؤك بيننا !

فصافحها وخرج من غرفة المائدة والفتاة خلفه ، كان الأب والأم لا يزالان جالسين فى مكانيهما بالبهو. مد يده إلى الأب فقام وصافحه بحرارة ، وصافح الأم واتجه نحو باب المنزل والفتاة بجواره فصافحها مرة أخرى فضغطت على يده وقالت :

– أحب أن أراك كثيراً.

فقال (ميم) والدموع تلمع فى عينيه :

– يسعدنى أن أراك . سأحضر لزيارتكم كلما سمحت ظروفى بذلك.

شيعته الفتاة حتى باب الحديقة وأسرع الخطى نحو منزله.

كان نور الصباح قد بدأ يغمر المدينة . وفى منتصف الطريق وضع (ميم) يده فى جيب البدلة الجديدة التى يرتديها فوجد نقوداً . أخرجها وعدها فوجدها خمسين جنيهاً ، فتعجب ، إذ لم يكن فى جيوب بدلته القديمة مليم واحد فاعتقد أن الفتاة لم تفتش جيوب البدلة قبل إهدائها إليه وأنه لاحق له فى هذا المبلغ الذى تركوه سهواً فى أحد جيوبها . فعاد إلى بيت الفتاة مرة أخرى ، وعندما فتحت الباب ورأت (ميم) بدت على وجهها الدهشة المشوبة بالفرح وقالت :

– أنا سعيدة لرؤيتك مرة أخرى ، تفضل.

فظل (ميم) واقفاً عند عتبة الباب وأخرج من جيبه مبلغ الخمسين جنيهاً وناولها الفتاة قائلاً :

– وجدت هذه النقود فى أحد جيوب البدلة .

فلم تمد الفتاة يدها لتأخذها وقالت وفى صوتها رنة حزن :

– أمن أجل هذا عدت ؟

فقال (ميم) :

– كان لابد أن أعود لأسلم لكم هذه النقود التى لاحق لى فيها .

فقالت الفتاة مبتسمة :

– أنا التى وضعتها فى جيب البدلة ، لأريحك من عناء الدوران فى الطاحونة بعض الوقت ريثما تندمل جراحك !

فالتقط (ميم) يد الفتاة وقبلها وقال :

– أنت أرق وأنبل من رأيت فى حياتى .

وأسرع بالخروج من حديقة المنزل وهو مطرق للأرض والفتاة تشيعه بنظراتها إلى أن اختفى وقد اغرورقت عيناها بالدموع .

١٨

ما كاد (ميم) يبتعد بضع خطوات عن منزل تلك الفتاة حتى رأى شيئاً عجيباً . رأى على أحد جانبى الشارع عدداً من العمال يرتدون سراويل زرقاء وعلى رءوسهم خوذات معدنية رمادية اللون لامعة منهمكين فى إقامة مبنى وقد ارتفع ارتفاعاً شاهقاً مستعينين بآلات عجيبة مذهلة ترفع الأحجار وترصها وتلصقها معاً فى مثل لمح البصر ! وقف (ميم) على الجانب الآخر من الطريق محملقاً يتابع هذا المشهد الغريب . مر عليه شاب وقد وضع يديه فى جيبى سرواله وأخذ يصفر بفمه أنغاماً مرحة . سأله (ميم) عن هذا المبنى الذى يرتفع بسرعة البرق حتى أصبح الواقف على الرصيف لا يستطيع رؤية قمته إلا إذا نظر إليه وهو منبطح على ظهره على الأرض . فظهرت الدهشة على وجه الشاب ، وأخرج يديه من سرواله وقال :

– ألا تعرف ؟ ! إنه البرج .

فلم يفهم شيئاً وعاد يسأل الشاب :

– وما الغرض من إقامة مثل هذا البرج الشاهق بهذه السرعة ؟

فقال الشاب وقد ازدادت دهشته :

– هذا البرج يقام من أجلك أنت ، من العجيب أن كل من فى المدينة يعلم ذلك ما عداك . ألست (ميم نون) ؟

فقال (ميم) مبتسماً ابتسامة بلهاء غير مصدق لما تسمعه أذناه :

– نعم أنا (ميم نون) ، ولكن لماذا يقيمون برجاً من أجلى ؟ هل أسكن فيه ؟

ضحك الشاب ذو الشعر الأحمر والوجه النحيل ، ووضع يديه فى جيبى سرواله ، واستأنف صفيره المرح ثم توقف عن الصفير فجأة وتلاشت من وجهه الملامح المرحة ، وتجهم وجهه ولمعت الدموع فى عينيه واحتضن (ميم) وقبله ، ثم اختطف يده وقبلها ! تعجب ميم من هذا التصرف العجيب وأراد أن يستفسر من الشاب عن سببه ، ولكن الشاب سار فى طريقه مطرقاً للأرض وعينا (ميم) تشيعانه فى ذهول . ثم حانت منه التفاتة نحو اليمين فوجد طابوراً من البشر قد تكون على بعد خطوات منه يضم رجالاً ونساء وفتيات وأطفالاً ، كانت جميع وجوههم حزينة وكان البعض منهم يجفف دموعه وكان أول من فى الطابور رجلاً قصير القامة ممتلئ الجسم أزرق العينين أصلع الرأس ، تقدم هذا الرجل من (ميم) والتقط يده وقبلها ثم مضى فى طريقه ثم تقدمت المرأة التى كانت تقف خلفه فى الطابور ، وهى سيدة فى نحو الستين نحيلة الجسم ، جففت دموعها بمنديلها ثم أمسكت يد (ميم) وقبلتها ومضت فى سبيلها وتتابع كل من الطابور يقبل يد (ميم) ويمضى فى سبيله و (ميم) فى ذهول ، شعر بجسمه يرتجف فصاح :

– ما معنى هذا ! لماذا تقبلون يدى ؟ لماذا تبكون ؟

ولكن الجميع لزموا الصمت وكأنهم لم يسمعوا شيئاً واستمروا يقبلون يده واحداً بعد الآخر وواحدة بعد الأخرى فى صمت ثم يسيرون فى طريقهم . كان البعض من فرط التأثر يركع ويقبل قدم (ميم) . ولمح (ميم) من بين

الواقفين فى الطابور الفتاة (لام) التى كان يحبها مطرقة للأرض فى حزن ، كما لاحظ أن الطابور بدلاً من أن يقصر فإنه يطول حتى أصبح كسرب من النمل لانهاية له ! وتذكر (ميم) فى هذه اللحظة زوجته وطفليه وشعر بشوق شديد إليهم ، فترك الطابور واقفاً وانطلق يعدو نحو منزله . ولكنه بعد خطات وجد الشارع وقد امتلأ فجأة بجموع هائلة من البشر وكأنهم كتلة واحدة من الأجساد تسد الطريق !

أخذ ميم يشق طريقه بصعوبة بالغة بين هذه الأجساد المتلاصقة ثم عجز بعد ذلك عن التقدم خطوة واحدة ، وشعر بضغط البشر على جسده من جميع الجهات فأخذ يتحرك على غير إرادته ، ثم شعر بأن قدميه قد ارتفعتا عن الأرض ، فصار يدور مع الأجساد الضاغطة عليه وأوشكت أن تتحطم ضلوعه ، وأحس باختناق وصعوبة فى التنفس ، وخشى أن يصاب بإغماء ، فيغوص ويضيع فى هذا البحر المتلاطم الأمواج من الأجساد البشرية . وفى هذه اللحظة سمع صوت آلة تنبيه سيارة على هيئة صفير . أخذ الصوت يرتفع . ثم ظهرت سيارة صفراء منطلقة فى الشارع بأقصى سرعتها تحصد مئات البشر . شعر (ميم) برعب شديد . ولكن ضغط الأجساد البشرية عليه تلاشى ، فارتكزت قدماه على الأرض وبدأ يتنفس تنفساً طبيعياً . وأخذ من تبقى على قيد الحياة يجرى محاولاً الابتعاد عن السيارة الصفراء ، ولكن تلك السيارة بعد أن ابتعدت وتلاشى صوت صفيرها عادت من جديد فى الاتجاه المضاد ، لتحصد مزيداً من البشر ! وخلا الشارع من جميع المارة ، ووجد (ميم) نفسه وحيداً فى الشارع الذى تناثرت وتبعثرت على أرضه مئات الجثث البشرية ، وأقبلت عربات سوداء

عابدة التقطت هذه الأجساد ، وانطلقت بها نحو البالوعة التي يلقون فيها جثث المحكوم عليهم بالإعدام .

انطلق (ميم) يعدو نحو منزله ، وشعر كأن خطواته على الرصيف تحدث دوياً هائلاً وسط هذا السكون المطبق . وعندما اقترب من منزله سمع صوت موسيقى صاخبة مختلطاً بضحكات مرتفعة تنبعث منه أخرج من جيبه المفتاح وفتح الباب فشعر كأنه أخطأ ودخل منزلاً غير منزله . ولكنه تيقن رقم المنزل فوجده رقم منزله . كان البهو مختلطاً بالشبان والفتيات وقد تناثر فى أنحائه أثاث فاخر لا عهد له به . وكل فتى يراقص أنثى على أنغام الموسيقى الصاخبة ، فشق طريقه بينهم دون أن يعيره أحد أى اهتمام ! وصعد السلم المؤدى للطابق العلوى فوجد زوجته تراقص شاباً وسيماً وحولها حشد هائل من الشبان والفتيات يصفقون لها تصفيقاً إيقاعياً .

عندما رأته زوجته تسمرت فى مكانها وشحب لونها وتوقف التصفيق وهجم (ميم) على زوجته وأمسكها من ذراعها وهزها هزاً عنيفاً قائلاً :

– ما معنى هذا ؟

فنظرت إليه زوجته وقد اتسعت عيناها من الدهشة وكأنها ترى شبحاً ، وبدت رائعة الجمال وقالت :

– ألا تزال على قيد الحياة يا حبيى ؟ ظننت أن مالك المدينة قد نفذ فيك حكم الإعدام . لقد تركتك ملقى على الأرض فاقد الوعى وتسلمت ورقة حمراء تنذر بتنفيذ حكم الإعدام فيك ، أليس كذلك يا حبيى ؟

فقال (ميم) والغضب يعصف به ويكاد يفجر رأسه :

– وهل هذا سلوك زوجة تعتقد أن زوجها قد نفذ فيه حكم الإعدام ؟

فأطرقت الزوجة للأرض ولزمت الصمت . وبدأ الزوار ينسربون واحداً بعد الآخر تاركين (ميم) وزوجته وحدهما ، فقال (ميم) وقد استعاد بعض هدوئه ، ذلك الهدوء الذى يشعر به الإنسان عندما ينحدر إلى أسفل درجات اليأس ويفقد الأمل فى كل شىء !

– لم ينفذ فى حكم الإعدام . بعد أن تركتنى ملقى على الأرض ! أنقذتنى فتاة نبيلة رفيقة الشاعر ، وحملتنى فى سيارتها إلى منزلها حيث وجدت العناية والإكرام ؟

ونظر ميم فى أنحاء الغرفة فوجدها مليئة بكبايات ضخمة من شتى أنواع الطعام ، فقال لزوجته :

– عندما دخلت البهو وجدت تلالاً من الطعام وألواناً من الشراب مثل الذى أراه الآن فى هذه الغرفة من أين حصلت على المال الذى اشتريت به كل هذه الأشياء ؟ هل عثرت على كنز ؟

ظلت الزوجة مطرقة للأرض فى صمت . فصاح (ميم) غاضباً :

– أريد أن أعرف من أين حصلت على هذا المال ؟ تكلمى .

قالت الزوجة وهى لا تزال مطرقة للأرض وكأنها تخجل من أن تلتقى عيناها وعيناه :

– حصلت على قرض من الطاحونة !

فقال (ميم) مندهشاً

– قرض من الطاحونة ! وكيف ستسددين هذا القرض ؟

– تعهدت لهم بأنك ستدور فى الطاحونة عاماً بلا أجر !

– أنا أدور فى الطاحونة عاماً بدون أجر ! وكيف تعهدت لهم بذلك على حين كنت تظنين أنى قد نفذ فىّ حكم الإعدام ؟ كيف تتعهدين بأن يدور فى الطاحونة زوج تعتقدين أن حياته قد انتهت ؟

فنظرت إليه بعينين تطل منها القسوة وصاحت وهى تنتفض من الغضب :

– لا تسألنى من أين حصلت على المال ، إنك تجبرنى على الكذب !

– ولماذا لا تقولين الحقيقة ؟ لماذا تكذبين ؟

– أنا مضطرة لذلك .

– لماذا ؟

– قوانين المدينة وتقاليدها تحرم علىّ أن أخبرك بالحقيقة ، لقد جئت أنت للمدينة للبحث عن الحقيقة فابحث عنها ، وتوصل إلى معرفتها بنفسك . كل أهل المدينة ينتظرون نتيجة بحثك هذا وهم فى قلق وشوق لمعرفته وأنت المسئول عن هذا القلق الذى يستبد بسكان هذه المدينة .

تذكر (ميم) فى هذه اللحظة أنه جاء إلى هذه المدينة للبحث عن الحقيقة ، ولكنه لا يدرى أى حقيقة هذه التى جاء ليتوصل إلى معرفتها . إنه لم يفعل شيئاً ولم يبذل مجهوداً حتى الآن لأداء الرسالة التى من أجلها جاء إلى المدينة . إنه لم يجد منذ قدومه لحظة فراغ أو لحظة راحة يلتقط فيها أنفاسه اللاهثة ، فكيف يبحث عن الحقيقة ؟ شعر بالكآبة والضياع فقال لزوجته :

– منذ وجدت نفسى فى هذه المدينة وأنا مشغول بالدوران فى الطاحونة للحصول على لقمة العيش والبحث عنك فى الجزء الخلفى للمدينة ، ولم

أجد لحظة فراغ أتمكن فى خلالها من البحث عن الحقيقة .

فوضعت الزوجة يديها فى خصرها ، ونظرت إليه غاضبة وقالت :

– لا عذر لك فى التقاعس عن أداء رسالتك ، من الذى تصدق عليك بهذه البدلة ؟

فتجاهل سؤالها ، وجلس على حافة السرير وقال :

– أين ابنى وابنتى ؟ أين ذهبا ؟

فقالت الزوجة دون أن يبدو على وجهها أى تعبير

– لقد نفذ حكم الإعدام فى ابننا فى أثناء غيابك ولم يبق سوى البنت .

فانتفض (ميم) واقفاً كمن لدغته عقرب وقال وقد تحشرج صوته :

– ابنى نفذ فيه حكم الإعدام ؟ كيف حدث هذا ؟

فقالت الزوجة بهدوء :

عندما ذهب إلى المدرسة بصحبة أخته ، كان على جميع التلاميذ والتلميذات أن يعبروا بئراً كبيرة الحجم للوصول إلى باب المدرسة ، ولم يكن هناك سوى خشبة ضيقة فوق البئر يتحتم على التلاميذ والتلميذات السير عليها لعبور البئر . تمكنت الطفلة من العبور ، ولكن الطفل عندما وصل إلى منتصف الخشبة ترنح وفقد توازنه ، فوقع فى البئر ونفذ فيه حكم الإعدام على الفور !

فجلس (ميم) على حافة السرير من جديد وقد شعر بدوار ووضع رأسه بين يديه وأجهش بالبكاء ، وظلت الزوجة واقفة ناظرة إليه ، ثم رفع رأسه وقال لزوجته :

– وأين ابنتنا ؟

جلست الزوجة على حافة السرير ، ووضعت ساقاً فوق ساق وقالت :

– ظلت الطفلة تبكي حزناً على أخيها فنصحتها بعدم البكاء ، وأفهمتها أن جميع سكان المدينة محكوم عليهم بالإعدام وكلنا سنلاقي المصير نفسه في يوم من الأيام . فلما أدركت هذه الحقيقة البشعة أصابتها لوثة وأخذت تبكي وتصرخ وتحطم كل ما يقع تحت يدها وفقدت عقلها تماماً فأخذت تهذي . ولما نفد صبري حملتها ووضعتها هناك بعيداً ، في الغرفة السوداء . وتركتها وهي تصرخ وتبكي !

شعر (ميم) بدوار ، فألقى بجسده على السرير ، ولم يشعر بنفسه بعد ذلك . وعندما صحا من نومه رأى ضوء الفجر ينفذ من خلال النافذة فأدرك أنه ظل نائماً مدة طويلة وأن يوماً جديداً قد بدأ . ورأى زوجته واقفة بجواره مرتدية قميص النوم وهي تتثاءب وفي هذه اللحظة دق جرس التليفون . فالتقطت الزوجة السماعة ، وبعد فترة ناولت زوجها السماعة قائلة :

– شخص يطلب التحدث إليك .

فأخذ (ميم) سماعة التليفون من زوجته وقد شعر بخدر في ذراعه ، فلم يستطع رفع السماعة نحو أذنه ، فوضعها بجواره على السرير وقال لزوجته :

– من هذا الشخص ؟

فقالت الزوجة بدون اكتراث وهي تهم بمغادرة الغرفة :

– لست أدري لا تسألني أنا ، اسأله هو .

فرفع (ميم) السماعة نحو أذنه بصعوبة وقال :

– من الذي يتكلم .

فسمع شخصاً يقول :

– أريد إخطارك بأن أهل المدينة متلهفون ومشتاقون لمعرفة الحقيقة التي أتيت إلى المدينة للبحث عنها وأنت حتى هذه اللحظة لم ترو ظمأهم لهذه المعرفة ولم تفعل شيئاً ! ورغبة في مساعدتك للتوصل إلى معرفة الحقيقة تعاون أهل المدينة وبنوا لك برجاً هائلاً رائعاً زودوه بكل وسائل المعرفة . والمطلوب منك الآن أن تذهب فوراً إلى هذا البرج وتبذل كل ما في طاقتك للتوصل إلى معرفة الحقيقة .

فقال (ميم) :

– وكيف أبحث عن الحقيقة في هذا البرج ؟

فسمع الرجل يقول :

– كل من في البرج في انتظارك ، ستجد هناك أكثر من ثلاثة آلاف موظف جميعهم تحت أمرك ورهن إشارتك ، وسيبذلون كل جهدهم لمساعدتك ، هيا أسرع ولا تضيع دقيقة واحدة .

وانتهت المحادثة .. ، فوضع (ميم) سماعة التليفون في مكانها ، وتذكر البرج الذي رآه يقام بسرعة مذهلة في أثناء رجوعه إلى المنزل ، فترك زوجته وقلبه مفعم بالحزن لإعدام ولده وجنون ابنته ، وأسرع بالخروج من المنزل ، وانطلق يعدو في الشارع نحو البرج .

فوجئ (ميم) برؤية جموع هائلة من أهل المدينة مصطفين على جانبي الشارع يلوحون له بالأعلام ويهتفون له كلما مر بهم . وفي الشرفات فتيات يعزفن على الجيتار والكمان ، ووجد أمامه سرباً من السيارات الزرقاء المكشوفة بها

عدد من علية القوم بالمدينة ، وفى السيارة الخلفية فرقة موسيقية تعزف أنغاماً شجية ، فتوقف ميم عن الجرى ورأى فتاة فى نحو التاسعة عشرة تبتسم له فسألها :

– ماهذا ؟ هل اليوم عيد من أعياد المدينة ؟

فاعتت له الفتاة احتراماً وقالت والابتسامة لا تزال على شفتيها :

– كل هذا من أجلك ألا تعرف ذلك ؟ ألست فى طريقك إلى البرج لتبحث عن الحقيقة التى يتوق لمعرفتها جميع سكان المدينة ؟ ألا تعرف أن البحث عن الحقيقة هو الرسالة التى من أجلها أتيت إلى هذه المدينة ؟

وفى أثناء توقفه مع هذه الفتاة لاحظ أن موكب السيارات قد توقف كما توقف عزف الموسيقى ، وعندما ترك الفتاة وسار فى طريقه واصلت السيارات سيرها واستأنفت الفرقة الموسيقية عزفها وظل (ميم) سائراً خلف سرب السيارات ، وشعر بإعياء شديد جعله يجر ساقيه بصعوبة وتمنى لو يستطيع ركوب إحدى هذه السيارات التى تسير فى هذا الموكب فأسرع الخطى ليسأل سائق إحدى السيارات هل من الممكن أن يركب معهم ما داموا متجهين نحو البرج ؟ ولكن السائق نظر إليه مبتسماً وقال :

– كان بودى أن أريحك من عناء السير على قدميك ، فكل هذا الاحتفال وكل هذه الموسيقى من أجلك ، ولكن التعليمات التى صدرت إلينا لم تشر إلى اشتراكك معنا فى ركوب السيارات أو تخصيص سيارة لك . ويبدو أن هذا حدث بسبب السهو أو الخطأ ، ولذا فعليك أن تظل سائراً على قدميك خلف السيارات التى تحتفى بك حتى تصل إلى البرج ، وما باليد حيلة !

استمر (ميم) سائراً خلف السيارات وهو على وشك الإعياء من فرط

الإرهاق ، والموسيقى تعزف له الألحان وتُلقَى عليه الورود والأزهار من الشرفات . وفى هذه اللحظة تذكر ابنه الذى نفذ فيه حكم الإعدام ، فسالت قطرات من الدمع على خديه ، وتوقفت أذناه عن التقاط أنغام الموسيقى ورن فى أذنيه صوت ابنته وهى تبكى وتصرخ وقد فقدت عقلها . وسار شارد اللب والموسيقى تواصل عزفها والأزهار تنثر فوقه . وتعجب (ميم) من مظاهر البهجة التى تبدو على جميع الوجوه .

لم يكن فى ذلك الموكب الضخم شخص حزين سواه ، وتعجب : كيف يفرحون ويهللون وهم يعلمون أن كل من فى هذه المدينة محكوم عليهم بالإعدام ؟ لقد فقدت ابنته عقلها عندما ذكرت لها أمها هذه الحقيقة المؤلمة . وقفز فى مخيلته منظر زوجته عندما عاد إلى المنزل ، فوجدها ترقص مع شاب لا يعرفه وقد ملأت المنزل بالشبان والطعام الشهى . واستمر يفكر ، كيف حصلت زوجته على كل هذا الطعام فى الوقت الذى كان يتضور فيه جوعاً ويدور فى الطاحونة ليحصل على عشرين قرشاً ؟ من أين حصلت على كل هذا المال فى تلك الفترة القصيرة ؟ وكيف تلهو وترقص ويلذ لها الطعام والشراب وهى تعتقد أن زوجها الذى تركته ملقى على الأرض قد نفذ فيه حكم الإعدام كما نفذ حكم الإعدام فى ابنها وفقدت ابنتها عقلها ؟ إن الطالع العاثر هو الذى جعله يربط حياته بفتاة من هذا النوع ! كانت الموسيقى تواصل عزفها ثم توقفت العزف ووجد (ميم) نفسه أمام البرج ، واختفت السيارات التى كانت تسير أمامه ، وتفرقت الكتل البشرية التى كانت مصطفة على جانبى الطريق وكأن الأرض قد ابتلعتهم وخلت الشرفات من الفتيات العازفات على الآلات الموسيقية ، وأطبق السكون

على المكان . ووجد (ميم) نفسه وحيداً أمام باب البرج وقد وقف عند الباب رجل يرتدى بدلة زرقاء ذات أزرار ذهبية ، وعلى رأسه قلنسوة زرقاء يحمل فى يده بندقية ، فشعر (ميم) برجفة . وعندما حاول دخول باب البرج اعترض طريقه ذلك الحارس وصوب نحوه البندقية قائلاً :

– إلى أين أنت ذاهب ؟

فقال (ميم) متلعثماً مرتجفاً :

– علمت أن هذا البرج أقيم من أجلى لكى أبحث عن الحقيقة . وحدثنى فى التليفون شخص لا أعرفه طلب منى الذهاب فوراً إلى البرج لأؤدى رسالتى .

فقال الحارس وهو لا يزال مصوباً بندقيته نحو قلب (ميم) :

– لا يدخل هذا البرج كل من هب ودب ! هل معك ما يثبت شخصيتك ؟

لم يخطر على بال (ميم) مثل هذا السؤال ، فنظر إلى الحارس مندهشاً وقال :

– ألا تعرفنى ؟ إن جميع أهل المدينة كانوا مصطفين على جانبى الطريق ليحيونى ، والفتيات يعزفن لى الموسيقى فى الشرفات ويلقين علىّ الأزهار !

فقال الحارس وهو لا يزال مصوباً بندقيته نحو (ميم) :

– ولكنى لا أعرفك ، إذهب وأحضر ما يثبت شخصيتك .

شعر (ميم) باليأس وفكر فى الرجوع إلى منزله . ولكنه عدل عن هذه الفكرة وقال للحارس :

– ومن أين أحضر ما يثبت شخصيتى ؟

قال الحارس :

– ليس هذا من شأنى ، لقد صدرت لى الأوامر بألا أسمح بالدخول إلا للشخص المسمى (ميم نون) الذى بُنى البرج من أجله ، ولموظفى البرج الذين تحت أمره ورهن إشارته .

فقال ميم وقد بدأ يتنفس بصعوبة من شدة الإرهاق :

– أنا (ميم نون) .

فقال الحارس بدون اكتراث :

– لن أسمح لك بالدخول إلا إذا اطلعنى على ما يثبت شخصيتك . من يدرينى أنك (ميم نون) ؟

– أليس فى داخل البرج من الموظفين من يعرف شخصيتى ؟

– لست أدرى ! ليس هذا من اختصاصى .

فظل (ميم) فترة من الزمن مطرقاً للأرض لا يدرى ماذا يفعل ؟ ونظر حوله عسى أن يجد من يعرفه من بين الجموع التى كانت محتشدة لتحيته ، ولكنه لم يجد أحداً ، لقد أصبح الطريق قفراً وكأنه فى مدينة مهجورة ، ولما لم يجد حلاً لهذه المشكلة ترك البرج وسار مطرقاً للأرض عائداً لمنزله .

وما كاد يخطو بضع خطوات حتى رأى السيارات الزرقاء وقد عادت فجأة تسير أمامه والفرقة الموسيقية فى السيارة الخلفية تعزف الألحان التى كانت تعزفها نفسها ، واحتشدت الجماهير من جديد على جانبى الشارع يلوحون له بالأعلام وينحنون له ، وامتلأت الشرفات بالفتيات الجميلات يعزفن له ألحاناً شجية ، وينثرن عليه الورود والأزهار !

وقف (ميم) ينظر حوله فى ذهول غير مصدق ما تراه عيناه ، كيف يعرفه

جميع أهل المدينة ويحتفون به كل هذا الاحتفاء ولا يعرفه حارس البرج ويطلب منه إثبات شخصيته ؟ وخطرت له فكرة : رأى بالقرب منه شاباً يلوّح له مبتسماً فتقدم منه وسأله :

– هل تعرفني ؟

فتوقف سير الموكب وتوقف عزف الموسيقى وقال الشاب :

– وهل في المدينة من يجهلك ؟ أنت (ميم نون) . أتيت إلى المدينة لتبحث عن الحقيقة .

فقال (ميم) للشاب :

– هل من الممكن أن تصحبني إلى البرج ؟

فقال الشاب وقد اتسعت عيناه دهشة :

– أنا أصحبك إلى البرج ؟ إنه شرف عظيم . . ولكن لماذا ؟

– حارس البرج منعني من الدخول ، لقد طلب مني إثبات شخصيتي .

فقال الشاب وقد ازدادت دهشته :

– حارس البرج لا يعرف شخصيتك ! إنه برجك ! بنيناه من أجلك ! وكل من في المدينة يعرفك ، هيا معي إلى هذا الحارس الغبي .

لاحظ (ميم) أن الطريق قد خلا فجأة من الجموع المحتشدة ، واختفت السيارات ، ووجد (ميم) نفسه يسير مع الشاب متجهين نحو البرج ولا أحد غيرهما في الشارع ، قال الشاب للحارس :

– كيف (تمنع ميم) من دخول البرج الذي أقامته المدينة من أجله ؟

فقال الحارس دون أن ينظر إليهما وكأنه تمثال :

– لقد صدرت لي الأوامر بعدم السماح بدخول البرج إلا لموظفيه وللشخص الباحث عن الحقيقة السيد/ميم نون العظيم !

فقال الشاب :

– إنه هو ذلك الرجل ، إنه (ميم نون) ، كيف لا تعرفه ؟

فقال الحارس وهو لا يزال واقفاً كالتمثال :

– لم يقدم لي ما يثبت شخصيته .

فقال الشاب :

– لقد أخبرتك عن شخصيته ، فهل تسمح له الآن بالدخول ؟

فصوب الحارس فوهة بندقيته نحو (ميم) وقال للشاب :

– ومن أنت ؟ أنا لا أعرف شخصيتك ، كيف يثبت شخص لا أعرفه شخصية شخص آخر ؟ أنا لا أعرفكما أنتما الاثنين .

فقال الشاب في انفعال وقد نفرت شرايين رقبته :

– إنك بعنادك هذا تقترف جناية . أنت تمنع (ميم) من أداء رسالته البحث عن الحقيقة وسوف تدفع ثمن ذلك غالياً !

فقال الحارس :

– أنا أؤدي واجبي ، يجب أن يقدم لي ما يثبت شخصيته .

أوشك الشاب أن يعتدي على الحارس ، فأسرع الحارس بتصويب بندقيته نحوه ، ولكن (ميم) جذب الشاب من ذراعه قائلاً له :

– لا داعي للعنف ، وما دام يمنعني من الدخول فسأعود لمنزلي أو أذهب إلى الطاحونة لأحصل على قوت يومي .

وفي هذه اللحظة سمع (ميم) صوتاً منبعثاً من مكبر صوت صغير الحجم عند باب البرج يقول :

– اسمح له بالدخول . إنه (ميم نون) العظيم !

فرفع الحارس يده مؤدياً لميم تحية عسكرية قائلاً :

– تفضل بالدخول يا سيدي ! أرجو أن تغفر لي جهلي وغبائي !

فدخل (ميم) البرج ونظر خلفه فوجد الشاب ناظراً إليه يلوّح له بيده مبتهجاً ، فرد (ميم) تحيته ، وخطا بضع خطوات داخل بهو البرج . إنه بهو رائع ذو أعمدة من رخام وردي اللون يكسو أرضه بلاط متعدد الألوان وعلى الصفين أبواب مغلقة . حار (ميم) ولم يدر ماذا يفعل بعد دخوله البرج ؟ وإلى أين يذهب ؟ . فتح أحد الأبواب العديدة فوجد غرفة فسيحة ذات أثاث فاخر ومكتب كبير يجلس خلفه رجل ضخم الجثة أحمر الوجه ، فتقدم (ميم) نحوه بخطى مضطربة وقال :

– أنا (ميم نون) .

فانتفض الرجل واقفاً ومد له يده مصافحاً وقد انحنى حتى كاد أنفه الضخم يلمس المكتب وقال :

– أهلاً وسهلاً ... كنا في انتظار تشريفك ، تفضل بالجلوس .

فجلس (ميم) على أحد الكراسي الفاخرة التي أمام المكتب ، وظل الرجل واقفاً خلف مكتبه منحنياً وقال وقد أطرق للأرض دون أن يجرؤ على النظر إلى (ميم) :

– يتكون هذا البرج يا سيدي من أربعين طابقاً ، ويضم ثلاثة آلاف

وأربعمائة موظف كلهم في خدمتك ورهن إشارتك ! وينبغي قبل أن تذهب إلى غرفتك أن تتعرف على كل هؤلاء الموظفين !

ثم ضغط على أحد الأزرار ففُتح باب الغرفة ودخل شاب وسيم يرتدي بدلة زرقاء مطرزة بخيوط من الذهب وعلى رأسه قلنسوة معدنية لامعة صفراء اللون ووقف أمام المكتب صامتاً . فقال الرجل الضخم الجثة موجهاً حديثه (لميم) :

– هذا أحد خدم البرج يا سيدي . وكلنا نُعتبر خدماً لك ، ثم التفت إلى الخادم وقال :

– خذ السيد (ميم) واصحبه إلى جميع موظفي البرج للتعرف عليهم .

فقام (ميم) وخرج من الغرفة بصحبة ذلك الخادم ، والرجل الضخم الجثة يسير خلفه مطأطئ الرأس حتى الباب ، وقال الخادم (لميم) :

– إنها مهمة شاقة يا سيدي أن تصعد على قدميك أربعين طابقاً للتعرف على جميع موظفي البرج .

فقال (ميم) :

– أليس في هذا المبنى الضخم مصعد ؟

فقال الخادم :

– يوجد عدد كبير من المصاعد ، أربعون مصعداً .

– ولماذا أصعد على قدمي مادام في البرج كل هذا العدد الهائل من المصاعد ؟

فأطرق الخادم نحو الأرض وقد احمر وجهه خجلاً وقال :

– لائحة البرج تنص على أن المصاعد يستخدمها موظفو البرج ،

وأنت ياسيدى أعلى مقاماً من جميع الموظفين ولا تُعتبر موظفاً بالبرج !

– ولكن البرج أقيم من أجلى ، وكل من فيه من موظفين تم تعيينهم لمساعدتى على القيام بمهمتى وأداء رسالتى فى البحث عن الحقيقة !

فقال الخادم وهو لا يزال مطرقاً للأرض :

– بكل أسف ياسيدى لم يذكر احدك ضمن من يستخدمون المصعد ، وربما يكون بسبب السهو أو الخطأ ونحن هنا مقيدون بلوائح البرج ولا نملك مخالفتها !

فقال (ميم) :

– وأين غرفتى ؟

قال الخادم :

– عند قمة البرج فوق الطابق الأربعين ! إنها أعلى غرفة فى المبنى ، وهذا يدل على علو قدرك وارتفاع شأنك . أنت فوق الجميع . هيا معى للتعرف على موظفيك وخدمك .

صحبه الخادم وقدمه إلى عدد هائل من موظفى البرج ، ولاحظ (ميم) أن كل من رآهم يحتلون غرفاً فسيحة مكيفة الهواء فاخرة الأثاث ! كان الخادم الذى يصحبه يصعد بالمصعد وينتظر (ميم) حتى يصعد عن طريق السلم ، وعندما وصلا إلى الدور العاشر أوشك (ميم) أن ينهار من فرط الإعياء ، واصفر وجهه وتفصد العرق من جبينه فقال له الخادم فى لهفة وفزع :

– مالك ياسيدى ؟ هل تشعر بتعب ؟

فقال (ميم) بصوت متقطع وهو يلهث :

– أرهقنى صعود السلم ، ولم أعد قادراً على المرور على باقى الموظفين للتعرف بهم .

فقال الخادم ولا تزال فى عينيه نظرة فزع :

– أنت أهم شخص فى هذا البرج . وكل ما فى البرج ومن فى البرج من أجلك ولا قيمة له بدونك ، ولوائح البرج تحتم علينا جميعاً أن نحافظ عليك ونعتنى بك ونجنبك أى إرهاق لكى تؤدى رسالتك فى جو من الهدوء والراحة والطمأنينة ، إن البحث عن الحقيقة ليس بالأمر الهين ياسيدى ، فإذا لم يعد فى استطاعتك الآن المرور على باقى الموظفين فلترجئ هذا إلى الغد ، ولكن لابد من مواصلة صعود السلم ثلاثين طابقاً أخرى للوصول إلى غرفتك ، لكى تباشر عملك فى راحة وهدوء .

فى هذه اللحظة توقف المصعد أمامهما ولفظ من جوفه نحو عشرة أفراد ، وعندما رأوا (ميم) واقفاً هزتهم المفاجأة وأخذوا ينحنون له ويقبلون يده واحداً بعد الآخر ، وطلب الخادم من عامل المصعد أن يترك باب المصعد مفتوحاً حتى ينتهى الجميع من تقبيل يد (ميم) . وكان عامل المصعد فتى وسيماً فى نحو الخامسة عشرة ذا بشرة بيضاء وعينين زرقاوين يرتدى سروالاً أزرق به شريط أخضر وقميصاً أصفر ، ويضع على رأسه قلنسوة تشبه تلك التى على رأس الخادم . ترك الفتى باب المصعد مفتوحاً ووقف بجوار الباب . ولما انتهى الجميع من تقديم فروض الاحترام (لميم) تقدم (ميم) نحو المصعد محاولاً الدخول ، ولكن عامل المصعد انحنى له وقبل يده وقال :

– بكل أسف ياسيدى غير مسموح لمقامك العالى باستخدام المصعد ،

لوائح البرج تنص على أنه لا استبدال الموظفين وأنت لعدم قدرتك لا تعتبر موظفاً بالبرج ، ولو أننا جميعاً نعلم أن البرج بنى من أجلك ولا قيمة له بدونك .

ثم دخل الخادم المصعد وتبعه الفتى وقال الخادم (لميم) :

– سأنتظرك يا سيدى أمام باب غرفتك بأعلى البرج .

وأقفل باب المصعد وتحرك صاعداً وظل (ميم) ناظراً نحوه مشدوهاً فترة من الوقت لا يدرى ماذا يصنع ؟ وحاول الاستمرار فى صعود السلم ، ولكنه شعر بأن ساقيه لا تقويان على حمله من شدة الإرهاق . ففكر فى أن يهبط السلم ويعتذر عن عدم قدرته على أداء تلك المهمة ، وقال لنفسه :

– كيف أصعد للبحث عن الحقيقة وأنا على هذه الحال من الإعياء؟ وأى حقيقة تلك التى سأبحث عنها ؟ لقد تقطعت أنفاسى وأرهق جسدى لصعود عشرة طوابق فكيف أستمر فى الصعود على السلم ثلاثين طابقاً أخرى ؟ كلا ! لن أصعد ، لن أبحث عن الحقيقة فى هذه المدينة المرعبة !

١٩

استدار (ميم) وبدأ يهبط السلم ، وإذا به يسمع دقات أجراس تكاد تصم الآذان . وفتحت أبواب جميع الحجرات فى ذلك الطابق ، وخرج منها عدد كبير من الموظفين وقد اشتد بهم الفزع وأسرعوا نحو (ميم) وأقاموا من أجسادهم سداً يمنعه من هبوط السلم وقال أحدهم (لميم) :

– ماذا تحاول أن تفعل يا سيدى (ميم) ؟ هل تفكر فى ترك البرج والتخلى عن مهمتك بعد أن كابدنا كل هذا العناء وأنفقنا كل هذه الأموال لبناء هذا البرج وإعداده لك ؟ لقد أتيت للبحث عن الحقيقة فى هذه المدينة ، ولن يسمح لك أحد من أهلها بالتخلى عن مهمتك والتقاعس عن أداء رسالتك . هل يرضيك أن يتشرد فى الشارع ثلاثة آلاف وأربعمائة موظف يعملون فى هذا البرج ؟

واصطفوا طابوراً وتقدموا نحو (ميم) واحداً بعد الآخر ينحنون ويقبلون قدمه ! وعندما انتهوا من هذه المهمة قال له أحدهم :

– هيا يا سيدى (ميم) إصعد السلم لتصل إلى غرفتك ، الخادم ينتظرك هناك منذ فترة طويلة وليس من سمات الرحمة والإنسانية أن تتركه واقفاً على قدميه فى انتظارك طوال هذه المدة .

فأخذ (ميم) يصعد السلم وهو يجر ساقيه بصعوبة ، فتوقف رنين الأجراس ودخل الموظفون حجراتهم وساد السكون ، وعندما اقترب (ميم) من الطابق الأربعين التقطت أذناه صوت شخير أحد يعلو شيئاً فشيئاً فى أثناء صعود السلم . وعندما وصل إلى غرفته عند قمة البرج وجد الخادم جالساً مستنداً بظهره على الجدار بجوار باب غرفة (ميم) مادّاً ساقيه وقد مال برأسه إلى الأمام مستسلماً لنوم عميق .

كانت أنفاس (ميم) متقطعة فلم يستطع الكلام ، وما لبث أن ترنّح وسقط مغشياً عليه ! استيقظ الخادم على صوت سقوط (ميم) فانتفض مذعوراً وأخذ يربّت على خدّى (ميم) محاولاً إفاقته ، ولكن (ميم) ظل غائباً عن وعيه .

فأسرع الخادم يفتح غرفة (ميم) وحمله على ذراعيه وأدخله الغرفة وتركه ممدداً على أرض الحجرة وهرول خارجاً . وبعد فترة قصيرة عاد وفى يده حقيبة صغيرة فوجد (ميم) لا يزال مغمى عليه . أخرج من الحقيبة زجاجة صغيرة بها محلول سكب بعضه على قطنة ووضعها أمام أنف (ميم) .

وبعد نحو خمس دقائق بدأ (ميم) يفتح عينيه ونظر إلى الخادم المنهمك فى إنعاشه وقال :

– أين أنا ؟

فقال له الخادم :

– فى غرفتك ياسيدى .

فقال (ميم) :

– هل وصلت إلى غرفتى ؟

قال الخادم :

– نعم ، أخيراً وصلت إلى غرفتك ياسيدى .

فقال (ميم) غير مصدق .

– حقيقة ؟

وأغمى عليه من جديد ، فأسرع الخادم وصب قدراً آخر من السائل فوق القطنة ، وأخذ يمررها أمام أنف (ميم) ، ولكنه لم يتحرك ، فاصفر وجه الخادم ، وارتعشت يداه ، ولم يدر ماذا يفعل ؟ وضع الخادم ركبتيه على الأرض وانحنى فوق (ميم) وأخذ يعمل له تنفساً صناعياً ، وبعد نحو عشر دقائق بدأ (ميم) يفيق لثانى مرة ، وأخذ يدير عينيه فى أنحاء الغرفة ، فانتفض الخادم

واقفاً ثم انحنى ورفع الجزء الأعلى من جسد (ميم) وأسنده لجدار الغرفة .

نظر (ميم) إلى الخادم وقال مرة أخرى :

– أين أنا ؟

فتردد الخادم فى الإجابة عن سؤاله وخشى أن يقول له : إنه فى غرفته ، فيغمى عليه من جديد . وبعد فترة قصيرة من التفكير قال الخادم :

– أنت فى غرفتك ياسيدى .

فقال (ميم) شارد الذهن .

– غرفتى ؟ غرفتى بالمنزل ؟

– كلا ياسيدى . إنها غرفتك بالبرج . عند قمة البرج .

فقال (ميم) وعيناه تدوران فى أنحاء الغرفة فى ذهول وقد عاوده الإحساس الذى شعر به عندما وجد نفسه فى الكابينة فى أول يوم :

– البرج ؟ عند قمة البرج ؟ أى برج هذا ؟

– البرج الذى بنيناه من أجلك .

– ولماذا بنيتم برجاً من أجلى ؟

فاشتد الفزع بالخادم ، وبدأ يرتجف من جديد وقال :

– بنينا البرج من أجلك ياسيدى لتبحث عن الحقيقة . أنت تعلم ذلك جيداً ياسيدى ، لابد أنك تعلم ذلك .

فقال (ميم) ونظره مثبت فى سقف الغرفة :

– وأين هى الحقيقة ؟

فقال الخادم وهو لا يزال يرتجف :

– لست أدرى يا سيدى ! عليك أنت أن تبحث عنها ، لتتوصل لمعرفتها ، هذه هى مهمتك . لقد حضرت إلى هذه المدينة لهذا الغرض وكل موظفى البرج ، بل كل أهل المدينة تحت أمرك ورهن إشارتك .

– بدأ (ميم) يملك شعوره ، وأدرك أنه صعد أربعين طابقاً على قدميه ليصل إلى هذه الحجرة فنظر إلى الخادم وقال :

– وهل أحضر كل يوم إلى هذه الغرفة ؟

قال الخادم :

– هذا بطبيعة الحال يا سيدى . كل شخص لابد أن يذهب إلى مقر عمله ، ستحضر إلى غرفتك كل يوم ، لتبحث عن الحقيقة حتى تجدها يا سيدى .

فقال (ميم) وقد شعر بيأس قاتل :

– وإذا لم أجدها !

فقال الخادم بدون اكتراث :

– لايهم ، المهم أن تبحث عنها .

أخذ (ميم) يدير بصره فى أنحاء الغرفة لأول مرة بعد أن تملك شعوره . فهاله أن رآها جرداء غير مطلية من الداخل بأى طلاء ، وليس بها سوى كرسى واحد من الخشب وآلة تليفون مثبتة فى الجدار . أرضها عارية غير مغطاة بالخشب الفاخر والسجاجيد الثمينة كما هى الحال فى جميع غرف الموظفين التى شاهدها فى البرج ، لايكسو أرضها سوى بلاط ردىء الصنع قذر وفى أحد أركانها مجموعة كبيرة من الكتب ملقاة بعضها فوق بعض بلا ترتيب ، وللحجرة

نافذتان عريضتان متقابلتان بلا مصاريع . وتعجب (ميم) عندما رأى سحابة تدخل من إحدى النافذتين وتتحرك لتخرج من النافذة المقابلة . لم يصدق (ميم) أن هذه الغرفة الحقيرة هى غرفته ! هل من المعقول أن يكون هو أهم شخص فى البرج الذى بنى من أجله وتكون غرفته أحقر غرفة بالمبنى ؟ إن موظفى البرج الذين هم رهن إشارته وطوع أمره والذين ما وجدوا فى البرج إلا لخدمته يجلسون خلف مكاتب ضخمة رائعة على كراسى مريحة متحركة فى غرف فاخرة الأثاث ، أرضها وجدرانها مغطاة بالخشب الفاخر اللامع وتكسو أرضها السجاجيد الغالية الثمن !

شعر (ميم) بدوار ، فجلس على الكرسى الوحيد الذى بالغرفة ، ولكنه أدرك أن الوقوف أكثر راحة من الجلوس على مثل هذا الكرسى فقام . نظر إلى الخادم وقال :

– هل أنت متيقن أن هذه هى غرفتى التى سأباشر فيها مهام عملى البحث عن الحقيقة ؟

فنظر إليه الخادم فى دهشة وقال :

– غرفتك طبعاً يا سيدى ! هل من المعقول أن أدلك على غرفة غير غرفتك ؟ إنها أعلى غرفة فى المبنى فوق قمة الطابق الأربعين ، لأنك يا سيدى أعلى قدراً من كل من فى البرج وأرفعهم مقاماً !

فقال ميم وهو لايزال غير مصدق :

– إن وجودها فى قمة المبنى لا يعتبر مصدراً لراحتى ، بل هو مصدر إرهاق لى ، إذ يتحتم علىّ صعود السلم أربعين طابقاً كل يوم لأصل إليها !

فقال الخادم :

– لقد شرحت لك يا سيدى سبب عدم استخدامك المصعد وضرورة صعودك من طريق السلم . وثق يا سيدى أن هذا أمر غير مقصود ، كان من المفروض طبعاً أن تصل إلى غرفتك من طريق المصعد ، وأن يكون لك مصعد خاص . ولكن لم يذكر ذلك فى لائحة البرج . ربما يكون بسبب السهو أو الخطأ . أو بسبب علو قدرك وارتفاع مقامك فوق مقام جميع الموظفين فلم يعتبروك موظفاً . وبكل أسف ، كما ذكرت لك يا سيدى ، نصت اللائحة على أن المصاعد يستخدمها الموظفون ! لقد ورد فى المادة الرابعة من اللائحة ما نصه : « يعتبر (ميم نون) أعلى قدراً من جميع الموظفين ، فلقد أقيم البرج من أجله وكل ما فى البرج ومن فى البرج مسخَّر لخدمته ومساعدته فى أداء مهمته السامية وهى البحث عن الحقيقة ! » .

لقد حفظت هذا النص يا سيدى عن ظهر قلب ! وحفظى له جاء نتيجة قراءتى له مئات المرات . ولقد فسروا تلك الجملة التى تقول : « يعتبر (ميم نون) أعلى قدراً من جميع الموظفين » فسروها على أنها لا تنص بصراحة على أنك أحد الموظفين ، إذ كيف تكون أعلى قدراً من جميع الموظفين وتكون فى الوقت نفسه موظفاً مثلهم ؟ وفى البند العاشر من بنود اللائحة نص يقول « يستخدم الموظفون المصاعد لصعودهم وهبوطهم فى أنحاء البرج » .

وهكذا ترى يا سيدى أن الأمر غير مقصود . إذ لا أحد فى المدينة يرغب فى إرهاقك ، بل الجميع يتمنون لك من أعماق قلوبهم الراحة والهدوء ، إنهم يعلمون جيداً أن البحث عن الحقيقة أمر هام يتطلب راحة الجسم وهدوء

البال . وثق يا سيدى أننى أكثر الناس حزناً لرؤيتك تصعد السلم على حين أستخدم أنا المصعد لصعودى وهبوطى وأنا الخادم البسيط المنوط بى أمر الصعود معك إلى غرفتك يومياً وأنت السيد العظيم الذى ليس فى البرج من هو أعلى منك مقاماً ، وهذا بطبيعة الحال يسبب لى إحراجاً شديداً . إن جميع من .....

فصاح (ميم) مقاطعاً :

– كفى ثرثرة ! كيف تكون غرفتى وأنا أهم شخص فى البرج وأعلاهم قدراً ، كما تقول ، بهذه الحقارة على حين أن جميع غرف الموظفين اللذين شاهدت حجراتهم مزودة بأجهزة تكييف الهواء ومفروشة بأفخر الأثاث والسجاد ، وتضم كل وسائل الراحة ؟

قال الخادم وقد احمر وجهه خجلاً ورفع حاجبيه وأطرق للأرض :

– أنت تعلم يا سيدى أن أى مبنى يُبنى من أسفل إلى أعلى ، ولا يبنى من أعلى إلى أسفل !

فقال (ميم) :

– وما علاقة البناء من أسفل إلى أعلى بحقارة هذه الغرفة ؟

قال الخادم وهو لا يزال مطرقاً للأرض رافعاً حاجبيه :

– لقد تكلف المبنى ملايين الجنيهات ، وفى أثناء البناء عندما وصلوا إلى غرفتك كانت الميزانية قد استهلكت ، ولم يبق من المال المخصص لبناء البرج سوى دراهم قليلة فاضطروا ، وأؤكد لك يا سيدى أن هذا شىء غير مقصود مطلقاً ، اضطروا اضطراراً إلى بناء غرفتك فى حدود المبلغ الضئيل الذى تبقى . هذا هو السبب ولا سبب سواه !

قال (ميم) :

– وهذه الكتب المكدسة بعضها فوق بعض بلا نظام ولا ترتيب ، هل المفروض أن أقرأها ؟

قال الخادم مبتسماً :

– وهل من الممكن أن تبحث عن الحقيقة يا سيدى بدون قراءة الكتب ؟ كان من المفروض أن تكون الكتب أكثر من ذلك بكثير ، ولكن ما تبق من المال لم يسمح إلا بهذا القدر .

قال (ميم) :

– ولم يسمح المبلغ بشراء خزانة ترص فيها هذه الكتب بدلاً من تكويمها بعضها فوق بعض هكذا بلا ترتيب ! كيف أعثر على كتاب أحتاج إليه من بين هذه الكتب الملقاة بعضها فوق بعض بلا نظام ؟

قال الخادم وقد احمر وجهه خجلاً :

– لقد شرحت لك يا سيدى كل الظروف ورجوتك أن تتيقن أن هذا أمر غير مقصود مطلقاً ، فكل من فى البرج وما فى البرج مسخّر لخدمتك .

فقال (ميم) :

– ولكنى لاحظت عند زيارتى لبعض موظفى البرج أن حجراتهم الفاخرة تحتوى على خزائن للكتب رائعة ، ولكنها خالية من الكتب ، لماذا لا تحضرون لى بعضها هنا أرتب فيها هذه الكتب ؟

فاتسعت عينا الخادم دهشة ورفع حاجبيه وقال :

– هذا غير ممكن يا سيدى ، إن هذا الأثاث صنع لهذه الغرف فكيف نقله إلى حجرتك ؟ لائحة البرج تمنع هذا ، أى أثاث فى غرفة من الغرف لا يسمح بنقله إلى غرفة أخرى ، حتى لو كانت غرفتك ! ومع ذلك فكل صغير وكبير هنا يعلم جيداً أنك أهم شخص فى هذا البرج وأرفعهم قدراً ، البرج من أوله إلى آخره أقيم من أجلك ، ولولاك ما أقيم ، ولا فائدة من وجوده بدونك ، ولكنها اللائحة ! هل ترضى يا سيدى أن يدار البرج بلا لوائح ولا قوانين ؟ هل تقر الفوضى يا سيدى ؟

شعر (ميم) بالدم يغلى فى عروقه ، وود لو ينقض على هذا الخادم ، يحمله ويلقى به من النافذة ، ولكن فى هذه اللحظة سمع صوت طفلة تبكى وتصرخ صرخات هستيرية ، فتعجب وشعر برعب شديد فقال للخادم :

– هل فى هذا البرج أطفال ؟ أين هذه (الطفلة) التى تصرخ وتولول ؟

قال الخادم وصراخ الطفلة لا يزال مستمرا :

– هذه الطفلة فى الغرفة الصغيرة الملحقة بغرفتك ، كان من المفروض إعداد هذه الغرفة لتكون استراحة خاصة بك تحتوى على سرير مريح وكراسى فاخرة ويلحق بها حمام من أرقى طراز ، ولكن كما ذكرت لك يا سيدى العظيم ، إن ما تبق من الميزانية لم يسمح بذلك ، فبقيت غرفتك جرداء كئيبة خالية من الأثاث غير مطلية من الداخل أو الخارج ، حتى الباب ، اضطروا لعمله من خشب الأبلاكاش الرخيص ، ولم تسمح الميزانية بتركيب مزلاج له !

فقال (ميم) وصراخ (الطفلة) يكاد يخترق طبلة أذنه :

– وكيف أستطيع البحث عن الحقيقة وصراخ هذه الطفلة يزعجنى ، ألهذا علاقة بالميزانية أيضا ؟

فقال الخادم :

– لا حيلة لنا فى هذا يا سيدى ، وعليك أن تعوّد نفسك وتتأقلم لسماع هذا الصراخ والعويل المستمر .

فصاح (ميم) قائلاً :

– الغرفة الحقيرة لا حيلة لكم فيها ، وعدم وجود الأثاث لا حيلة لكم فيه ، وصعود أربعين طابقاً عن طريق السلم بدلاً من المصعد لا حيلة لكم فيه ! ووجود طفلة تبكى وتصرخ بجوارى لا حيلة لكم فيه أيضا ! إذا كان كل من فى البرج فى خدمتى ورهن إشارتى كما تقول فأنا آمرك بنقل هذه الطفلة فوراً بعيداً عنى . إذا احتملت جميع أنواع العذاب فإنى لا أستطيع احتمال هذا الصراخ المستمر !

فقال الخادم بهدوء وقد أسبل جفنيه ناظراً نحو الأرض :

– يؤسفنى يا سيدى أننا لا نستطيع تنفيذ هذا الأمر .

فصاح (ميم) فى غضب :

– ولماذا لا تستطيعون تنفيذ هذا الأمر ؟

قال الخادم فى هدوء :

– الشخص الذى أحضر هذه الطفلة وطلب بقاءها هنا لا يمكننا أن نرد له طلباً إكراماً لك !

فقال (ميم) وقد شعر بالدم يضغط على خلايا دماغه :

– ما معنى هذا ؟ من هذا الشخص الذى لا تردون له طلباً إكراماً لى ؟

قال الخادم مطرقاً للأرض :

– السيدة التى أحضرت هذه الطفلة وتركتها هنا . . . هى السيدة زوجتك !

فانهار (ميم) وجلس على الكرسى الوحيد الذى بالغرفة ولزم الصمت ، كان قد نسى زوجته ونسى منزله ، فأخذ يسترجع تلك الذكريات الحزينة . تذكر أن ابنه فقد فيه حكم الإعدام فى أثناء غيابه عن المنزل ، وأن ابنته أصيبت بالجنون عندما أخبرتها أمها أن كل من فى هذه المدينة محكوم عليهم بالإعدام ، فنظر إلى الخادم بعينين تلمع فيهما الدموع وقال :

– هل هذه الطفلة التى تصرخ . . . ابنتى ؟

فقال الخادم :

– وهل تظن يا سيدى أننا نجرؤ على إحضار (طفلة) غريبة عنك تصرخ وتبكى ونضعها فى الغرفة (الوحيدة) المجاورة لغرفتك ؟

شعر (ميم) باكتئاب شديد وتعجب من سلوك زوجته . كيف تحضر ابنتها التى فقدت عقلها وتتركها هنا تهذى وتصرخ وهى تعلم أن زوجها مشغول بأداء رسالة ضخمة ؟ إنه يبحث عن الحقيقة ، وأين ذهبت زوجته ؟ لابد أنها أرادت التخلص من هذه الطفلة ليصفوا لها الجو لإقامة الحفلات . ومن يدرى ؟ ربما تكون الآن فى الجزء الخلفى من المدينة تفعل ما تشاء . وبينما تدور هذه الأفكار فى رأس (ميم) اندفعت ابنته إلى غرفته كالسهم وهى تطلق صرخاتها الهيستيرية ، وطوقت عنق (ميم) بذراعيها ، واستمرت فى بكائها وصراخها ، وقالت والدموع تبلل خديها :

– لا ، يا بابا . . لا ، يا بابا . . لا يمكن أبداً .

انحنى الخادم لميم فى هذه اللحظة وانصرف ، وبقى ميم مع ابنته بمفردهما ، واستمرت (الطفلة) تبكى وتقول :

– لا يا بابا .. لا ، يا بابا .. لن أتركهم ينفذون فيك حكم الإعدام ، أنا أحبك ، أنا أحبك .. لن يأخذوك منى .. وأنا أريد أن أعيش .. لا أريد أن يلقى بى فى البالوعة كما فعلوا بأخى .. لن يعدمونا .. لن يعدمونا .. الدموع تملأ البئر .. أنا لا أحب الظلام .

فاحتضنها (ميم) ، وأخذ يقبلها وقد ترقرقت الدموع فى عينيه ، وشعر برغبة فى البكاء وقال لابنته :

– لا تخافى يا حبيبتى .. لن يعدمونى ولن يعدموك .. !

قالت (الطفلة) وهى تجهش بالبكاء :

– لا ، يا بابا .. لا ، يا بابا .. ماما أخبرتنى أن جميع سكان المدينة محكوم عليهم بالإعدام . أنا لا أحب الظلام .. أخى أعدموه .. حملوه فى السيارة السوداء وألقوه فى البالوعة .. ماما لم تبك .. ولكنى بكيت .. بكيت كثيراً . دموعى ملأت البئر .. سيعدموننا جميعاً كما أعدموا أخى .. أنا خائفة .. أنا خائفة من الظلام .. لا تتركونى وحدى .. أخى وحده فى الظلام .

واستمرت تبكى وتلطم خديها فلم يستطع (ميم) السيطرة على مشاعره ، فأخذ يبكى فى صمت وهو يربت على ظهر ابنته ويقبلها ، ولكنها تركت حضن أبيها ، وتوقفت عن البكاء فجأة ، وأخذت تدور فى أنحاء الغرفة مطرقة للأرض وتقول :

– فى الصباح أعدموا أخى ، فى المساء سيعدموننى .. فى الفجر سيعدمونك يا بابا . كان الناس يلقون الأزهار على أخى .. هل تريد زهرة يا بابا ؟ .. سأحضر لك كل الأزهار .. سيلقون علىّ الأزهار .. سيلقون عليك الأزهار يا بابا .. أنا أحبك .. لا تتركنى وحدى .. أخى وقع فى البئر أمام المدرسة .. جميع الأطفال بكوا من أجله .. ولكنهم هم أيضاً سيعدمون وانفجرت تبكى وتصرخ من جديد قائلة :

– أنا خائفة من البئر .. أعدموا أخى فى البئر .. أقفل النوافذ يا بابا .. لماذا تفتح النوافذ ؟ .. أنا خائفة .. كلنا ستحملنا السيارة السوداء ويلقون بنا فى البالوعة .. هيا يا بابا أقفل البالوعة .. هيا نذهب إلى البالوعة لنرى أخى .. أخى هناك يبكى من أجلنا .. إنه وحده فى الظلام يا بابا .. أخى يخاف الظلام .. ! ضعوا كثيرا من الأزهار على جثتى عندما أعدم حتى لا أشعر بالبرد .

وفى هذه اللحظة دخلت من النافذة سحابة صغيرة مخترقة الغرفة ، وخرجت من النافذة المقابلة ، وما إن رأت الطفلة هذه السحابة حتى تقلص وجهها ، وجحظت عيناها والتصقت (بميم) ، وطوقته بذراعيها وجسدها يرتجف رعباً وصاحت :

– الذبابة .. الذبابة دخلت الغرفة .. أمى أخبرتنى أننا ينفذ فينا حكم الإعدام إذا لمستنا ذبابة .. سينفذ فينا حكم الإعدام !

فاحتضنها (ميم) بقوة وغمرها بالقبلات وقال :

– لا تخافى يا حبيبتى إنها سحابة ، وليست ذبابة .

وخطرت على بال (ميم) فكرة فى هذه اللحظة : لماذا لا يتصل بزوجته

تليفونياً ويطلب منها الحضور إلى البرج ، لتأخذ الطفلة وتعتنى بها ، لكى يتفرغ للبحث عن الحقيقة ؟ ولكنه لم يتذكر رقم تليفون منزله ، أدار بصره فى الغرفة ، فوجد دفتر تليفون ملقى فوق كوم الكتب ، وبينما هو يمد يده نحو دفتر التليفون صرخت إبنته صرخة هستيرية جعلته ينتفض ، والتفت فوجدها واقفة على حافة النافذة ناظرة فى فزع نحو سحابة عابرة ، فأسرع نحوها واختطفها من فوق حافة النافذة وهى تصرخ وتتلوى بين يديه ، ودق جرس التليفون ، فالتقط السماعة بإحدى يديه ، وظل محتضناً ابنته باليد الأخرى وسمع صوتاً يقول :

– هل نسيت الطاحونة ؟ لقد حان موعد دورانك فيها !

حاول (ميم) أن يتكلم ، ولكن المتكلم عند الطرف الآخر من الخط وضع السماعة ، فوضع (ميم) السماعة فى مكانها محتضناً ابنته التى ما زالت تصرخ ، ووقف حائراً لا يدرى ماذا يفعل ؟ وأخذ يفكر : هل يترك ابنته ويذهب إلى الطاحونة بمفرده ؟ ولكن ذلك مستحيل ، إذ لو تركها لحظة فستصعد إلى حافة النافذة الخالية من المصاريع وتلقى بنفسها من فوق قمة الطابق الأربعين ، فينفذ فيها حكم الإعدام فوراً . هل يأخذها معه ؟ لم يجد أمامه سوى هذا الحل . وفى هذه اللحظة تذكر شيئاً كان قد نسيه : تذكر أن الفتاة التى استضافته فى منزلها كانت قد دست فى جيبه خمسين جنيهاً لتجنيبه عذاب الدوران فى الطاحونة ريثما تلتئم جراحه ، فشعر بشىء من الراحة ، ووضع يده فى جيبه يتحسس تلك النقود ، ولكنه لم يجدها ! لم يصدق أنه فقدها ، فأخذ يفتش فى جيوبه ويعيد التفتيش ، ولكن بلا جدوى ! واستولت عليه الدهشة ، أين ذهبت هذه النقود؟ واستمرت الأفكار تدور فى ذهنه ،

لا شك أن زوجته فتشت جيوبه فى أثناء نومه بالمنزل ، وعثرت على هذه النقود فاستولت عليها !

فكر فى الذهاب إلى منزله لرؤية زوجته ومصارحتها بهذا ، ولكن جرس التليفون عاد يرن من جديد ، فالتقط السماعة وسمع الصوت نفسه يقول :

– ألا تزال فى البرج ؟ هيا إلى الطاحونة ، ولا تضيع الوقت !

فاحتضن ابنته وخرج من غرفته واتجه نحو السلم ، وبدأ يهبط درجاته وابنته تتلوى بين يديه صارخة مولولة ، وعندما وصل إلى الطابق الثلاثين رأى شيئاً لم يكن قد لاحظ وجوده فى أثناء صعوده ، وجد مطعماً فاخراً يشغل الطابق بأسره ، ووجد عدداً من موظفى البرج يتناولون طعامهم فيه ، وقد تناثر فى أنحاء المطعم عدد من الفتيات الجميلات يرتدين زياً موحداً : بلوزة بيضاء وجونلة قصيرة زرقاء تصل إلى منتصف الفخذ ، وعلى رؤوسهن قلنسوات زرقاء تشبه قلنسوة مضيفات الطائرات : تحمل بعضهن الطعام وتضعه على بعض الموائد التى جلس حولها بعض موظفى البرج ، والبعض الأخريات واقفات فى انتظار أية إشارة من الموظفين ، استنشق (ميم) على الرغم منه رائحة الطعام الشهى ، ورأى على جانبى باب المطعم خادمين يرتديان الزى الرسمى ، فتقدم نحوهما محتضناً ابنته التى مازالت تصرخ وسأل أحد الخادمين :

– كم ثمن وجبة الطعام هنا ؟

فسأله الخادم :

– هل أنت من موظفى البرج يا سيدى ؟

فقال ميم وقد هدأ صراخ ابنته :

– أنا (ميم نون) .

فركع الخادمان وقبلا قدمى (ميم) ، وعندما رأت فتيات المطعم هذا المشهد أدركن أن هذا الشاب لابد أن يكون (ميم نون) الذى أقيم البرج من أجله ، فهرعن إليه وأخذن يركعن واحدة بعد الأخرى ويقبلن قدمى (ميم) ! ثم اصطفت الفتيات ووقفن بلا حراك وتوقف عن تناول الطعام كل من بالمطعم ، وأسرع الجميع نحو (ميم) ينحنون له ويقبلون يده ، فشعر ميم بحرج شديد وأعاد سؤاله :

– كم ثمن الوجبة فى هذا المطعم :

فقال أحد الخدم :

– الطعام هنا بالمجان يا سيدى (ميم) العظيم .

فشعر (ميم) بقبس من السعادة يخترق ظلام الحزن الذى يملأ قلبه وقال :

– هل من الممكن أن تتناول ابنتى وزوجتى الطعام معى هنا ؟

فأطرق الخادمان للأرض ، ولزما الصمت ، فأعاد ميم السؤال :

– قلت : هل من الممكن أن تتناول ابنتى المسكينة هذه وزوجتى الطعام معى هنا ؟

فقال أحد الخدم وقد توردت وجنتاه خجلاً :

– يؤسفنى يا سيدى أن أخبرك أن هذا المطعم مخصص لموظفى البرج اللذين فى خدمتك ، ولكنك يا سيدى لعلو قدرك ورفعة مقامك لا تعتبر من الموظفين ! أنت فوق الجميع ! ولذا فغير مسموح لمقامكم العالى ولا لأى فرد من أفراد عائلتك الموقرة بتناول الطعام هنا !

كانت ابنته تنظر حولها بعينين زائغتين تسيل منهما الدموع ، ولاتدرك شيئاً مما يدور حولها ، فحملها (ميم) على كتفه وسار مطرقاً للأرض مواصلاً هبوط السلم ، وعندما وصل إلى الطابق الأرضى شعر بألم شديد فى كتفه الذى يحمل ابنته فوقه ، وأحس ، بدوار فخشى أن تسقط ابنته ، فأنزلها من فوق كتفه ، وقبض على يدها بقوة ، واستند على الجدار بالقرب من باب البرج ، وأغمض عينيه . ولما فتح عينيه وجد عدداً هائلاً من الحرس مرتدين ملابسهم المزركشة وقد اصطفوا على الجانبين رافعين أيديهم له بالتحية !

عندما خرج (ميم) من باب البرج استرعى نظره وجود عدد هائل من السيارات الفاخرة مصطفة أمام البرج ، وخلف عجلة قيادة كل سيارة يجلس سائق يرتدى معطفاً أبيض أطراف أكمامه وياقته زرقاء ، ويضع على رأسه قلنسوة صفراء ذات حافة أمامية زرقاء ، فاقترب (ميم) من السيارة الواقفة أمام الباب مباشرة وهو لا يزال قابضاً على يد ابنته التى تحاول التخلص منه وقال للسائق .

– أنا (ميم نون) .

فانتفض السائق وهبط من السيارة ووقف بجوارها رافعاً يده لتحية (ميم) ، وظل على هذا الوضع ساكناً لا يتحرك فصرخت (الطفلة) صرخات هستيرية وأطل من عينيها فزع شديد . احتضنها (ميم) ، ووضعها على كتفه فتشبثت بعنقه ، وقال ميم مخاطباً السائق :

– أشعر بإعياء شديد ودوار وابنتى مسكينة فقدت عقلها وأنا الآن ذاهب لأدور فى الطاحونة فهل من الممكن أن تحملنى السيارة ؟

– يؤسفنى يا سيدى العظيم أنى لا أستطيع أن أحظى بشرف نقلك بهذه السيارة إلى الطاحونة .

فقال (ميم) مندهشاً :

– ولماذا ؟ أنا فى أشد حالات الإرهاق ، ولا أستطيع السير حاملاً ابنتى على كتفى طوال الطريق ؟

فقال السائق وهو لا يزال واقفاً رافعاً يده بالتحية :

– جميع هذه السيارات معدة لنقل موظفى البرج الذين هم فى خدمتك ورهن إشارتك ، وأنت يا سيدى أعلى من فى البرج قدراً ، والأوامر التى صدرت تنص على ركوب الموظفين ، وأنت يا سيدى العظيم لا تعتبر موظفاً بالبرج لأنك أرفع من ذلك مقاماً !

فأطرق (ميم) للأرض ، وسار متجهاً نحو الطاحونة وابنته على كتفيه محتضنة عنقه فى فزع وقد تدلت ساقاها على صدره ، وما كاد يسير بضع خطوات حتى شعر بأن ساقيه لا تقويان على حمله ورأى منظراً عجيباً : لقد ازدحمت الطريق بالآف البشر يلوحون له بأيديهم وينحنون له ، وأخذ كل من فى الشرفات يلقون عليه الورود والأزهار ، وينشدون له أناشيد عذبة الألحان ، والدموع تسيل من عينيه ومن عينى ابنته . . !

٢٠

عندما وصل (ميم) إلى الطاحونة كان على وشك الانهيار يجر ساقيه بصعوبة وابنته فوق كتفيه تهز ساقيها هزات عصبية فتصدمان صدره بعنف . أنزل ابنته من فوق كتفيه ، وضغط على زر جرس الطاحونة ففتح الباب ، وأطل منه الحارس الذى حيا (ميم) بابتسامة عريضة وقال فى سخرية :

– أين كنت ؟ لقد انتظرتك طويلاً حتى كدت أيئس من حضورك ، هل تنوى أن تحتفى عاطلا بلا عمل ؟

فلزم (ميم) الصمت ، وأخذت ابنته تدير بصرها فى أنحاء الطاحونة فاتحة فمها فى ذهول . ثم استولى عليها رعب شديد فجلست القرفصاء فى أحد أركان الطاحونة لا تحرك بصرها عن أبيها الذى وضعه الحارس داخل الحلقة وبدأ يدور فى الطاحونة ! التقط الحارس السوط الذى كان مركوناً على الجدار ، وأخذ يهوى به على جسد (ميم) ، كما تقضى تقاليد الطاحونة . وما كادت الطفلة ترى أباها يضرب بالسوط حتى انفجرت تبكى وتصرخ وتشد شعرها وتلطم خديها ، واندفعت نحو أبيها تحتضنه وتتشبث به ، فهوى الحارس على جسدها بالسوط ، وجذبها من يدها ، وألقى بها فى الركن الذى كانت قابعة فيه !

فتوقفت عن البكاء من هول الصدمة ، وأخذت تدور فى أنحاء الطاحونة تهذى قائلة :

- فى الصباح أعدموا أخى . فى المساء سيعدموننى . . فى الفجر سيعدمون أبى . . . عطونى بالأزهار عندما أعدم حتى لا أشعر بالبرد . . . أريد أزهاراً كثيرة مثل التى ينثرونها من الشرفات فوق أبى . . . والتى نثروها فوق أخى . . .

ثم انتابتها نوبة بكاء عنيف ، فانسحبت إلى الركن الذى كانت فيه ، وجلست القرفصاء وقد دفنت رأسها فى حجرها وجسدها ينتفض دون أن يسمع لبكائها صوت .

انتهى (ميم) من الدوران فى الطاحونة فأعطاه الحارس عشرين قرشاً . كانت ابنته مازالت جالسة القرفصاء فى ركن الطاحونة تبكى . ذهب إليها وجذبها من يدها برفق ، ولكنها انتفضت واقفة فى ذعر ، وأخذت تبكى وتصرخ صرخات هستيرية وتلطم وجهها بيدها حتى توردت وجنتاها الشاحبتان ، فاحتضنها (ميم) بقوة ، وأخذ يربت على ظهرها ويقبلها ، فهدأت قليلاً وأخذت تقبل يد أبيها ، ثم ركعت على الأرض واحتضنت ساق أبيها ، وأخذت تقبل قدمه ، وحارس الطاحونة واقف ينظر إليهما بصبر نافد منتظراً خروجهما ليقفل باب الطاحونة . سحب (ميم) ابنته من يدها وخرجا معاً إلى الشارع .

ذهل (ميم) عندما رأى الأجساد البشرية المتلاصقة نساء ورجالا وأطفالا تملأ الشارع حتى إن حركة أى فرد أصبحت مستحيلة . وحاول بعضهم الانحناء لهم عندما رأوه خارجاً من الطاحونة ساحباً ابنته فلم يتمكنوا من شدة الزحام ، وحاول (ميم) شق طريقه فلم يتمكن .

أخذت ابنته تصرخ وتولول ، وفى مثل لمح البصر تخلصت من قبضة يد أبيها واختفت بين الأجساد البشرية وكأنها عصفورة صغيرة ابتلعتها مياه

المحيط . وقف (ميم) حائراً لايدرى كيف يبحث عن ابنته ؟ وأين اختفت ، إذ لم يستطع أن يخطو خطوة واحدة فى أى اتجاه بسبب ضغط الأجساد البشرية عليه . وبعد فترة قصيرة سمع صراخ ابنته وبكاءها على بُعد نحو عشرة أمتار . ولكنه لم يستطع الوصول إليها ، فأخذ يناديها ، ولكنها استمرت فى صراخها وبكائها .

بدأ العرق ينفصد من جبينه ، وبدأ جسده يرتجف خوفاً على ابنته ، وحاول بكل قوته أن يشق طريقه نحوها ، ولكن صراخها توقف ولم يعد يَسمع لها صوتاً ، فأسرعت دقات قلبه وخشى أن تكون قد نفذ فيها حكم الإعدام ! وحانت منه التفاتة نحو شرفات المنازل ، فوجدها مكتظة بالأجساد البشرية المتلاحمة . ورأى عدداً من الشرفات ينوء بما يحمله فيسقط فوق رءوس الجماهير المحتشدة فى الشارع ، وارتفع الصراخ والعويل . وعلى الرغم من هذه الضوضاء وهذا الصياح الذى أخذ ينبعث من أماكن متفرقة عقب سقوط الشرفات بمن فيها فقد التقطت أذن (ميم) صراخ ابنته ، ذلك الصراخ الهستيرى ، ولكن صوتها فى هذه المرة كان منبعثاً من مكان أبعد من المكان السابق . اندفع شاب نحو باب الطاحونة ، وأخذ يضغط على زر الجرس . كان الشاب ملتصقاً بالجدار بجوار باب الطاحونة والجماهير تضغط على صدره حتى كاد يختنق وينفذ فيه حكم الإعدام . وفتح باب الطاحونة وأطل منه الحارس ، ونظر فى بلاهة وكأنه لا يدرى شيئا مما يحدث خارج الطاحونة ، فأسرع الشاب نحو آلة التليفون التى بالطاحونة قائلاً :

- سأطلب الإسعاف .

واندفع خلفه إلى الطاحونة عدد من الجماهير هرباً من الزحام حتى ازدحمت الطاحونة وتلاصقت فيها الأجساد . ودون أن ينتظر الشاب الإذن له باستخدام التليفون التقط السماعة وأدار رقم الإسعاف ، وطلب النجدة وسمعه (ميم) يقول مخاطباً الطرف الآخر على خط التليفون :

– لقد ازداد عدد السكان زيادة رهيبة ، وأصبحوا يسدون الطريق ، وتعذرت الحركة . . لا أحد يستطيع أن يتحرك .

وبعد فترة سمعه (ميم) يقول :

– لا أستطيع الانتظار أكثر من دقيقتين . . إننا نختنق . هل صدرت أوامر مالك المدينة بتنفيذ حكم الإعدام فينا اختناقاً ؟

ولما أنهى الشاب مكالمته ووضع سماعة التليفون فى مكانها هاله أن رأى الطاحونة وقد امتلأت بالأجساد البشرية التى بدأت تئن وتتوجع ، فبقى فى مكانه عاجزاً عن الحركة فى أى اتجاه .

وظل (ميم) بجوار باب الطاحونة لكى يتسنى له سماع صراخ ابنته التى غرقت فى وسط هذا البحر المائج من الجماهير ، ولكن صوتها انقطع مرة أخرى ، وبعد نحو ثلاث دقائق وصل إلى أذنه صراخ ابنته ضعيفاً وكأنه آت من مكان بعيد ، وصار الصوت يبتعد شيئاً فشيئاً حتى أصبحت أذن (ميم) عاجزة عن التقاطه .

فى هذه اللحظة سمع (ميم) صوت صفارات وأخذ الصوت يقترب ويعلو ، أدرك أن هذا الصوت ينبعث من خمس سيارات صفراء اندفعت فى الشارع بأقصى سرعتها منفذة حكم الإعدام فى آلاف من البشر المتلاحمين . فسقط

على الأرض عدد كبير منهم . ثم أخذ صوت صفارات السيارات يتلاشى تدريجياً حتى اختفى ، ثم عاد يعلو ويقترب من جديد ، واندفعت السيارات تنفذ حكم الإعدام فى عدد آخر من الجماهير ، وسقطت على الأرض جثث أخرى .

بدأ الزحام يقل وأصبحت حركة من بقى على قيد الحياة ممكنة ، وأقبل عدد من السيارات السوداء هبط منها رجال يرتدون ملابس السهرة السوداء ، ورفعوا جثث الموتى ، ووضعوها فى السيارات التى انطلقت نحو البالوعة لإلقاء الجثث فيها .

نظر (ميم) إلى الشارع الذى بدا له وكأنه لا يزال مزدحماً ولو أن الحركة فيه أصبحت ممكنة ، فانطلق يعدو باحثاً عن ابنته . إنه لم يسمع صراخها منذ فترة طويلة ، ترى هل تم تنفيذ حكم الإعدام فيها تحت عجلات السيارات الصفراء وألقوا بجثتها فى البالوعة مع الآف الجثث ؟

لم يستطع (ميم) السيطرة على مشاعره حينما تذكر ابنته عندما كانت تهاتفه وتقول : « ضعوا كثيراً من الأزهار على جثتى عندما أعدم حتى لا أشعر بالبرد ! » فانسابت الدموع من عينيه وسار متجهاً نحو البرج . والتقطت أذناه صوت بكاء ضعيف خيل إليه أنه صوت ابنته ولكنه لم يستطع تحديد المكان الصادر منه ، فأخذ يجرى على غير هدى ، ويدور فى جميع الاتجاهات منادياً ابنته . وأخذ صوت البكاء يعلو ويقترب ، فتوقف ليحدد الاتجاه المنبعث منه الصوت . ورأى ابنته . كانت واقفة على إفريز الشارع بجوار الجدار تبكى وتلطم خديها ، نظر إليها (ميم) وكأنه يراها لأول مرة ، لقد هاله شحوب وجهها وهزالها الشديد حتى أصبحت ساقاها وكأنهما عظمتان دقيقتان لا يكسوهما لحم ! وخيل إليه أن

رقبتها قد استطالت لشدة نحولها ورأى ثوبها ممزقاً مهلهلاً ، فاندفع نحوها واحتضنها بقوة وأمطرها بالقبلات ، ولكن الطفلة ظلت تبكى وتصرخ فى فزع شديد ، فحملها على كتفه واحتضنت عنقه حتى كادت تزهق روحه .

وقف ميم حائراً لايدرى ماذا يفعل ، هل يذهب إلى البرج أو إلى المنزل ؟ وتذكر أنه لم يتناول طعاماً لاهو ولا ابنته منذ فترة طويلة ، ففكر فى الذهاب إلى مطعم متواضع . وتحسس العشرين قرشاً التى أخذها من حارس الطاحونة فوجدها فى مكانها بجيب سترته الأيمن ، ففكر فى شراء طعام رخيص لابنته يقيم أودها ويصبر هو على الجوع فترة أخرى ، وواصل السير . فرأى مطعماً ليس به سوى أربع مناضد تفوح منه رائحة الشواء . وعندما استنشقت ابنته رائحة الطعام توقفت عن الصراخ ، كان أمام هذا المطعم طابور طويل ، فوقف (ميم) عند نهاية الطابور حاملاً ابنته على كتفه وظل الطابور يتقدم نحو باب المطعم فى بطء شديد . وبعد نحو ساعة وجد (ميم) نفسه فى مقدمة الطابور وجهاً لوجه أمام صاحب المطعم .

كان صاحب المطعم قصيراً ضامر الجسم يرتدى بذلة رمادية أنيقة ، اقترب منه (ميم) وقال :

– أريد طعاماً لابنتى لا يزيد ثمنه على عشرين قرشاً ، فهذا المبلغ هو كل ما أملك . .

فانحنى له الرجل احتراماً ثم ركع على الأرض يقبل قدمى (ميم) ثم اعتدل وقال :

– يؤسفنى ياسيدى ميم . .

فقاطعه ميم قائلاً :

– هل تعرف اسمى ؟ لم أكن أتصور أنك تعرف اسمى .

فقال الرجل :

– وهل بالمدينة من لايعرف السيد (ميم) ؟ إنك أشرف من فى هذه المدينة وأعلاهم قدراً . إنك تبحث عن الحقيقة وجميع أهل المدينة فى انتظار ما ستصل إليه من نتائج !

إننا جميعاً نريد أن نعلم الحقيقة ، وهل يوجد أشرف ممن يبحث عن الحقيقة ؟ ولكن يؤسفنى ياسيدى العظيم القدر الرفيع الشأن أن أخبرك أن العشرين قرشاً لم تعد كافية لشراء رغيف واحد بعد أن ارتفعت الأسعار ! ولذا سوف أعطيك بالعشرين قرشاً ربع رغيف تمسك به رمق ابنتك التى أراها هزيلة شاحبة الوجه ، وأتمنى لك من صميم قلبى النجاح والتوفيق فى مهمتك الصعبة النبيلة .

فأخرج (ميم) العشرين قرشاً من جيبه وأعطاها للرجل الذى سلم له ربع رغيف اختطفته ابنته قبل أن يتمكن (ميم) من لمسه والتهمته فى مثل لمح البصر ! كانت الطفلة لا تزال فوق كتفى (ميم) الذى قرر الذهاب إلى منزله لرؤية زوجته ، وليترك الطفلة عندها لرعايتها حتى يتسنى له التفرغ للبحث عن الحقيقة .

واصل (ميم) السير نحو منزله وعلى جانبى الشارع استرعى انتباهه وجود طوابير طويلة أمام جميع المطاعم والمحال التجارية ، بعضها يبدو وكأنه ممتد إلى مالا نهاية ، ووصل إلى المنزل فأخذ يبحث عن مفتاح الباب فى جيوبه ،

وسمع ضجة منبعثة من داخل المنزل فقال لنفسه :

– يالها من زوجة ! إنها غارقة حتى أذنيها فى إقامة الحفلات والولائم وابنتها المسكينة تتضور جوعاً !

أدار (ميم) المفتاح فى ثقب الباب ، وفتح الباب ، ووقف مذهولاً . رأى البهو وقد امتلأ بالرجال والنساء والأطفال . وما كاد يدخل حاملاً ابنته على كتفيه حتى أحاط به عدد من الأطفال والرجال وسأله رجل مفرط فى الطول نحيل مقوس الظهر :

– من أنت ؟

فأنزل (ميم) ابنته من فوق كتفه وقال :

– هذا منزلى ، أسكن هنا مع زوجتى وطفلتى .

فقالت امرأة عجفاء ذات رأس صغير ورقبة طويلة وأنف مدبب يبدو رأسها أشبه برأس الأوزة :

– آه ! لابد أنك السيد (ميم نون) :

فقال ميم :

– نعم .. أنا (ميم نون) .. أنا الذى ينبغى أن أسألكم . من أنتم ؟

فتقدم نحوه رجل قصير فى نحو السبعين ذو نظارة غليظة العدسات وقال :

– منذ خروجك من منزلك آخر مرة ازداد عدد سكان المدينة زيادة رهيبة ، ولم تعد المساكن كافية لإيوائهم جميعاً فأمر مالك المدينة بوضع كل خمس عائلات فى مسكن واحد . ومما زاد الأزمة تفاقماً أن كل عائلة أصبح لها بيتان ، واحد يطل على الواجهة وآخر فى الجزء الخلفى من المدينة !

فقال (ميم) وقد شعر باكتئاب شديد ويأس قاتل :

– وأين زوجتى ؟

فقالت امرأة بدينة جاحظة العينين وقد ارتسمت ابتسامة خبيثة على شفتيها الغليظتين :

– آه ! . زوجتك ! . لقد فضّلت أن تعيش فى الجزء الخلفى للمدينة . لم تعد تراها هنا !

ثم ضحكت وأطرقت للأرض قائلة :

– ألم ترها من مدة طويلة ؟

فقال (ميم) :

– رأيتها أمس . كانت قد أقامت حفلاً راقصاً احتفالاً بتنفيذ حكم الإعدام فى وفى طفلتنا .

فتجمع حوله عدد من الرجال والنساء ناظرين إليه فى دهشة ، وقال الرجل القصير :

– تقيم حفلاً راقصاً بمناسبة تنفيذ حكم الإعدام فيك !

وقالت المرأة التى يشبه رأسها رأس الأوزة :

– ولكنك مازلت على قيد الحياة !

فقال (ميم) :

– لقد تأجل تنفيذ حكم الإعدام فى ولم تكن زوجتى تعلم ذلك ، فروّعها ظهورى المفاجئ .

وبدأت الطفلة تصرخ وتهذي فاحتضنها (ميم) محاولاً تهدئتها ، وقال الرجل الطويل :

– لماذا تصرخ هذه الطفلة ؟ إن صراخها يفتت الأكباد !

فقال (ميم) :

– لقد نفذ حكم الإعدام في أمها ، وعندما ألقوا بجثته في البالوعة وعلمت أن كل من في المدينة محكوم عليهم بالإعدام فقدت عقلها . فهي تصرخ وتبكي منذ تلك اللحظة ، ولقد أرسلتها زوجتي إلى البرج ، ووضعتها في غرفة مجاورة لغرفتي .

فضحكت المرأة البدينة الجاحظة العينين وقالت :

– وجود ابنتها معها سيعكِّر عليها صفو الحياة التي تنعم بها في الجزء الخلفي للمدينة !

فجلس (ميم) على أحد الكراسي وأطرق للأرض متفكراً ، وقفزت ابنته فجلست على فخذه ، وبدأ يهبط من الطابق العلوي عدد آخر من الأفراد تجمعوا حوله في شبه حلقة على حين كان عدد من الأطفال يتزلقون على درابزين السلم مطلقين ضحكات عالية ، فشعر (ميم) أنه يكاد يختنق ، فقال وهو مطرق للأرض محتضناً ابنته :

– هل من الممكن أن أجد مكاناً هنا في منزل لأنام فيه أنا وابنتي ؟

فقالت فتاة في نحو السابعة عشرة ذات وجه جميل وساقين معوجتين :

– لا أماكن ثابتة للنوم ، نحن ننام حيثما اتفق ، ومن ينم مبكراً يظفر بمكان ، أما من يتأخر في النوم فقد يضطر للنوم واقفاً على قدميه !

وضحكت ضحكة عالية ، وضحك معها عدد من النساء والرجال .

فقال (ميم) وقد ازداد شعوره باليأس :

– هل من الممكن أن أترك ابنتي هنا معكم ، حتى أتمكن من الاستمرار في أداء رسالتي في البحث عن الحقيقة ؟

وجم (ميم) في هذه اللحظة همهمة وهمساً ، وانحنى الرجل الطويل هامساً في أذن الرجل القصير البدين قائلاً :

– لقد أقيم البرج من أجله . في البرج أكثر من أربعة آلاف موظف ليساعدوه على أداء مهمته . كلهم تحت أمره ورهن إشارته .

وقالت الفتاة ذات الوجه الجميل والساقين المعوجتين موجهة حديثها للمرأة البدينة :

– إنه أهم شخص في البرج . كل من في البرج في خدمته .

فقالت المرأة البدينة :

– بل هو أهم شخص في المدينة ، لقد نشروا صورته في صفحة كاملة في صحيفة « أخبار المدينة » وكتبوا عنه مقالاً طويلاً .

فقالت الفتاة وقد تجهم وجهها :

– من المؤكد أنه لم يقرأ هذا المقال ، فهو فقير لا يملك ثمن الصحيفة !

ولما لم يتلق (ميم) إجابة عن سؤاله أعاد السؤال قائلاً :

– كنت أقول : هل من الممكن أن أترك ابنتي هنا ، لأتمكن من التفرغ لأداء مهمتي في البحث عن الحقيقة ؟

وفي هذه اللحظة قفزت ابنته من فوق فخذه ، وأخذت تصرخ تلك

الصرخات الهستيرية وتبكي ، وتلطم خديها ، فقال الرجل الطويل :

– يخيل إليّ أن ابنتك لا تستطيع البقاء بعيدة عنك .

وقالت المرأة البدينة :

– ولا يمكننا أن نحتمل صراخها وعويلها هنا طوال اليوم ! كل منا لديه ما يشغله ولا يسمح وقتنا بالعناية بابنتك المسكينة هذه والعناية بأبنائنا في الوقت نفسه !

وقالت المرأة التي يشبه رأسها رأس الأوزة :

– كان من الواجب أن تتحمل أمها مسئولية رعايتها ، إنها ابنتها وليست ابنتنا .

واستمرت الطفلة في صراخها وهي تدور في أنحاء البهو على غير هدى وقد أخذ الأطفال يشدونها من ثوبها ويعبثون بشعرها ويقرصونها في ذراعيها فيزداد صراخها . وجذبها طفل من ساقها فانكفأت على وجهها ، وانخرطت في بكاء عنيف ، وبينما يهم (ميم) ليحتضن ابنته دق جرس التليفون الذي نقل من الطابق العلوي وألقي به في أحد أركان البهو ، فحدث هرج وتسابق عدد من الأطفال والفتيان لالتقاط السماعة حتى كادت تنشب بينهم معركة ، وأخيراً انتزعت الفتاة ذات الساقين المموجتين السماعة منهم وقالت :

– من المتكلم ؟

ثم قالت :

– أجل .. إنه هنا .. حضر منذ دقائق .

وقدمت السماعة (لميم) قائلة :

– المكالمة لك يا سيد ميم .

كانت الطفلة مازالت تصرخ وتهذي ، فأخذ ميم السماعة من الفتاة وقال :

– أنا (ميم نون) .

كانت الفتاة ذات الوجه الجميل والساقين المموجتين قد أسرعت وحملت الطفلة على كتفها باذلة أقصى جهدها لتهدئتها ولكنها ظلت تصرخ ، وكاد صراخها يطغى على صوت المتكلم عند الطرف الآخر من الخط . ولكن أذن (ميم) الملتصقة بالسماعة تمكنت بصعوبة من التقاط صوت المتكلم يقول :

– لماذا لم تحضر إلى البرج ؟ الجميع في انتظارك ، لقد حان وقت استئناف العمل .

فقال ميم :

– سأحضر على الفور .

ووضع سماعة التليفون في مكانها .

كانت ابنته لا تزال تهذي وتبكي فاحتضنها ، وغادر المنزل متجهاً نحو البرج وهي تتلوى بين يديه وتئن أنيناً خافتاً .

وفي طريقه إلى البرج اصطف الناس على جانبي الطريق يحيونه ويعزفون له الموسيقى من الشرفات . وأخلدت ابنته التي حملها على كتفيه تبكي وتطرق حتى أنينها في فرع (وميم) قابض على خصرها النحيل بكلتا يديه . وفوجئ (ميم) في أثناء سيره بتظاهرة تمر بجواره في صمت وفي مقدمتها شابان يحملان لافتة مكتوباً عليها «لا تذكروا الذين أعدموا» ، فلم يفهم شيئاً وسار خلف المتظاهرين .

بدأ الظلام يهبط وأضيئت مصابيح الشارع وواجهات المحال التجارية .

وواصل (ميم) سيره خلف المتظاهرين ، وقبيل الوصول إلى البرج رأى ناراً مشتعلة فى الشارع ، فكفت ابنته عن البكاء، وظلت محملقة فى النار فى رعب . وتعجب ميم لوجود هذه النار التى ترتفع ألسنتها ارتفاعاً شاهقاً ، وتضفى على الشارع لوناً عجيباً من الضياء غير مألوف . رأى ميم فتاة فى نحو الخامسة عشرة تبتسم وتنحنى له وتلوح له بعلم صغير ، فسألها :

– ماالذى يحدث هنا ؟

فانحنت الفتاة لميم انحناءة أخرى احتراماً له وقالت :

– إنهم يحرقون الكتب التى نُفذ حكم الإعدام فى مؤلفيها !

فقال ميم مندهشاً :

– ولماذا يفعلون ذلك ؟

– لقد ازداد عدد سكان المدينة زيادة رهيبة ، وكثُر المؤلفون ، وشعر المؤلفون الأحياء بأن المؤلفين الذين أُعدموا بأنفسهم ، والناس تقبل على شراء كتب الذين أُعدموا أكثر من إقبالهم على شراء كتب الأحياء ، ولذا فقد نظم المؤلفون الأحياء هذه المظاهرة ، وجمعوا كتب جميع الذين أُعدموا من المؤلفين وأضرموا فيها النار ؟

قال ميم وقد تجهم وجهه ، وشعر باليأس يسرى فى جميع خلايا جسده :

– ولكن المؤلفين الأحياء لن يحسنوا الكتابة إلا إذا قرءوا كتب الذين نفذ فيهم حكم الإعدام .

فابتسمت الفتاة وانحنت لميم تحية وسارت فى طريقها ، وقال ميم محدثاً نفسه وقد استبد به الاكتئاب ، وود لو يذهب إلى البالوعة ويلقى بنفسه فيها :

– المدينة التى تحرق كتب الذين نفذ فيهم حكم الإعدام لا تستحق أن يعيش فيها الأحياء !

وواصل سيره نحو البرج . وعندما وصله عزفت الموسيقى واصطف الحرس على الجانبين ، وقد رفعوا أيديهم له بالتحية . فسار بين صفى الحرس وبدأ يصعد السلم محتضناً ابنته التى صارت تطلق من حين لآخر صرخة يتردد صداها فى أنحاء البرج . وعندما وصل إلى الطابق الذى به المطعم شاهد عدداً من الموظفين يتناولون عشاءهم وقد انبعثت من المطعم رائحة الشواء ، فازداد صراخ ابنته ، وانحنى له جميع الخدم الذين كانوا أمام باب المطعم ، واستمر صاعداً السلم محاولاً تهدئة ابنته بلا جدوى .

وعندما وصل إلى غرفته عند قمة البرج لم يجد بها سوى مصباح واحد خافت الضوء ، ونظر من خلال النافذة العريضة المفتوحة دائماً بلا مصاريع التى تطل على الشارع فوجده جميلاً سابحاً فى ذلك الضوء القوى المتعدد الألوان على حين أن الجزء الخلفى من المدينة الذى يراه من النافذة المقابلة بدا مظلماً كئيباً ، وتذكر زوجته ، ترى فى أى مكان فى الجزء الخلفى قد استقر بها المقام ؟ وماذا تفعل فى هذه اللحظة ؟ لابد أنها الآن بين أحضان الشاب العملاق مطلقة العنان لشهواتها غير عابئة به ولا بابنتها المسكينة المحتاجة لرعايتها ! والتفت فلم يجد ابنته فى الغرفة ، فانطلق يعدو نحو الغرفة المجاورة فوجد ابنته تطل من النافذة وقد ارتفعت ساقاها عن أرض الغرفة ، وتدلى نصفها العلوى فى الفضاء ، فسار على أطراف أصابعه حتى لا تفزع فتهوى من قمة البرج إلى الشارع واحتضنها ، فأطلقت صرخة رعب ، ثم تشبثت به وهى مستمرة فى صراخها . أخذها معه

إلى غرفته . وبعد لحظات دق جرس التليفون ، فالتقط السماعة بيده اليمنى وبيده اليسرى يحتضن ابنته وقال :

– من المتكلم ؟

فسمع صوتاً يقول :

– هل ترغب في الاستفسار عن أي شيء ؟ إنني . . . .

فحال صراخ ابنته دون سماع باقي الحديث ، فأعاد سؤاله قائلاً :

– من المتكلم ؟

– لا شأن لك بالمتكلم فعرفتي لن تقدم ولن تؤخر فأنا شخص لا تعرفه ، هل ترغب في الاستفسار عن شيء ؟ إنني على استعداد لتزويدك ببعض المعلومات .

فقال (ميم) وهو لا يزال محتضناً ابنته بقوة حتى لا تفلت منه وقد هدأ صراخها :

– نعم ، أود الاستفسار عن أمر يحيرني .

– ما هو ؟

– لماذا حُكم على سكان المدينة بالإعدام ؟ لماذا جعلهم مالك المدينة يواجهون هذا المصير الرهيب ؟

– لأن مالك المدينة غير راضٍ تمام الرضا عن نوعية هذه الدمى التي صنعها ، ويرغب في صنع أنواع أرقى منها ، ولذا فلابد أن يدمرها ، ليصنع غيرها .

– والدمى الجديدة التي سيصنعها هل سيحميها من تنفيذ حكم الإعدام ؟

– لا أحد يدري ! هذا يتوقف على مبلغ رضائه عن نوعيتها ، إذا لم يرض عن نوعيتها فسوف يحطمها هي الأخرى ، ليصنع دمى جديدة قد تكون أفضل منها ، هل تعلم أن جميع سكان المدينة ما هم سوى دمى صنعها مالك المدينة ؟

– نعم ، أعلم ذلك .

– أنصتْ جيداً لما سأقوله لك . يوجد شيء هام ينبغي أن تعرفه لتستفيد منه في البحث عن الحقيقة ، هل تنصت لي جيداً ؟

– نعم ، أنا منصت بكل جوارحي .

– إذن اسمع . . .

وفي هذه اللحظة أفلتت الطفلة من يد (ميم) ، وأخذت تصرخ صرخاتها الهستيرية وتلطم خديها ، فلم يستطع (ميم) سماع كلمة واحدة من المتحدث ، وترك سماعة التليفون مدلاة تتأرجح كبندول الساعة والحديث لا يزال منبعثاً منها (وميم) في شوق ولهفة لسماعه ، وانشغل بتهدئة ابنته ، ولكنها ظلت وكأنها لا تريد أن تهدأ ، فشعر (ميم) برغبة في البكاء وتمنى أن ينفذ فيه حكم الإعدام في هذه اللحظة . شعر بعطف شديد على ابنته وود لو يفعل أي شيء ليخفف عنها هذا البلاء . نظر إلى وجهها الشاحب وجسمها الهزيل ورأى عينيها وقد اتسعتا وأطل منهما رعب شديد ، فطوقت أباها بذراعيها وأخذت تغمره بالقبلات قائلة :

– أنا أحبك . . . أحبك . . . أنا خائفة . . . أنا خائفة .

وضغطت بيديها على عنق أبيها من شدة الفزع حتى كاد يختنق وقالت :

– أنا خائفة . . أنا أحبك يا بابا . . لا تتركني وحدي . . أنا خائفة . . .

فأخذ يهدئ من روعها قائلاً :

– لا تخافى يا حبيبتى . . لن أتركك أبداً

فقالت وقد بدا فى عينيها بريق غريب :

– ولكنهم سيعدمونك . . وسيعدموننى . . كلنا محكوم علينا بالإعدام .

وانخرطت فى بكاء عنيف ، وتمنى (ميم) أن ينفذ فيهما حكم الإعدام معاً فى هذه اللحظة ويرتاحا من هذا العذاب القاسى . لم يستطع السيطرة على مشاعره فاحتضن ابنته الخائفة المعذبة وأخذ يبكى بصوت غير مسموع ولكن جسده كان يرتجف . وحانت منه التفاتة إلى ركن الغرفة الذى كانت الكتب مكدسة فيه فوجد شيئاً لم يكن قد لاحظه منذ دخوله الغرفة هذا المساء . لقد اختفت معظم الكتب ، ولم يعد باقياً بهذا الركن سوى عشرة كتب ، وسمع (ميم) طرقاً على باب الغرفة ونظر فوجد الخادم واقفاً منتصب القامة مرقش الثياب ، فسأله (ميم) : ماذا يريد ؟ فانحنى له الخادم باحترام زائد وقال :

– هل تسمح لى يا سيدى أن أضع سماعة التليفون فى موضعها ؟ إنها مدلاة منذ فترة طويلة ، وحاول عديد من الأفراد الاتصال بك فى هذه الأثناء ، ولم يتمكنوا من ذلك .

فقال (ميم) والدموع ما زالت تترقرق فى عينيه :

– افعل ما تريد .

فدخل الخادم ووضع السماعة فى موضعها ، وانحنى (لميم) حتى كاد رأسه يلمس أرض الغرفة ، ثم انتصب واقفاً ورفع يده بالتحية ، وظل يتقهقر بظهره حتى خرج من باب الغرفة . فناداه (ميم) . فأسرع الخادم وانحنى مرة أخرى

ووقف منتصباً عند باب الغرفة قائلاً :

– سمعاً وطاعة يا سيدى .

فقال (ميم) :

– أين باقى الكتب التى كانت فى هذا الركن ؟ كانت هنا عشرات الكتب المكدسة فلم يبق منها سوى عشرة .

– فقال الخادم :

– لقد أحرقوها .

قال (ميم) فى فزع :

– أحرقوها ؟ لماذا ؟

– احرقوا كتب جميع المؤلفين الذين نفذ فيهم حكم الإعدام ، وتركوا كتب الذين لم ينفذ فيهم حكم الإعدام بعد .

فقال (ميم) وكأنه يحدث نفسه :

– ولكن الأحياء سينفذ فيهم حكم الإعدام إن عاجلاً أو آجلاً وتُلقى بهم فى البالوعة . . ! حتى الكتب فى هذه المدينة محكوم عليها بالإعدام ! ما أبشع هذه المدينة !

فقال الخادم :

– أى أوامر أو استشارات أخرى يا سيدى ؟

فقال (ميم) والحزن يملأ قلبه :

– يمكنك أن تنصرف .

فانحنى الخادم محيياً (ميم) وتقهقر بظهره حتى خرج من الغرفة . ودق جرس

التليفون فاحتضن ابنته والتقط السماعة وسمع الصوت نفسه الذي سمعه من قبل يقول :

– لقد ذكرت لك أشياء عديدة كانت ستساعدك كثيراً في بحثك عن الحقيقة ، ولكن يبدو أنك لم تسمع منها شيئاً . كنت في أثناء حديثي أسألك بعض الأسئلة فلم أكن أسمع منك أية إجابة أو استجابة . أين كنت ؟

فقال (ميم) معتذراً :

– كنت مشغولاً بتهدئة ابنتي المسكينة التي فقدت عقلها ، كانت تصرخ صراخاً مستمراً فلم أستطع سماع باقي حديثك .

– لا يمكنني إعادة ما قلت ، فهل لديك أي استفسارات ؟

فقال (ميم) على الفور :

– نعم ، أريد أن أستفسر عن شيء آخر يحيرني .

– ما هو ؟

– كل أهل المدينة تبدو عليهم علامات الثراء ، المحال التجارية والمطاعم مزدحمة والجميع يشترون كل ما يريدون شراءه ، ويأكلون أشهى الأطعمة فمن أين يحصلون على هذا المال في حين أنني أنا وابنتي نتضور جوعاً ، وأدور في الطاحونة في مقابل عشرين قرشاً ، لم يعد في استطاعتي أن اشترى بها أكثر من ربع رغيف ؟

فقال المتحدث :

– كل أهل المدينة يحصلون على المال بالطريقة نفسها التي اتبعتها زوجتك للحصول على المال الوافر الذي أقامت به الحفلات والولائم .

فانقبض قلب (ميم) عند ذكر زوجته وقال :

– وكيف حصلت زوجتي على المال ؟

– فقال الطرف الآخر :

– حصلت على المال بالطريقة نفسها التي بها يحصل عليه كل سكان المدينة .

فقال (ميم) :

– هل في المدينة طواحين أخرى لا أعرفها تعطي أجراً أعلى من الأجر الذي أتناوله من تلك الطاحونة التي أدور فيها ؟

– ليس في المدينة من يدور في الطاحونة سواك !

فشعر (ميم) كأن صاعقة انقضت عليه ، ولزم الصمت فترة من الزمن ، فسمع صوت الطرف الآخر يقول :

– ألو .. ألو .. هل أنت معي على الخط ؟

فقال (ميم) بصوت واهن :

– نعم ، مازلت معك على الخط ، ما معنى هذا الكلام الذي قلته ؟ هل أنا الشخص الوحيد الذي يدور في الطاحونة في هذه المدينة ويُلهب ظهره بالسياط ؟

– أجل ، أنت الشخص الوحيد الذي يدور في الطاحونة ويلهب جسده بالسوط في هذه المدينة !

فقال (ميم) ، وقد بدأ يشعر بدوار :

– ومن أين يحصل باقي أهل المدينة على تلك الأموال الطائلة التي ينفقونها

بلا حساب ؟ إذ لم ألاحظ وجود من يرزح تحت وطأة ارتفاع الأسعار غيرى ؟

قال المتحدث :

– يحصلون على المال من الجزء الخلفى للمدينة .

فصاح (ميم) قائلاً :

– هل يمكن أن تفسر لى كيف يحدث هذا ؟

قال الطرف الآخر فى هدوء :

– فى الجزء الخلفى للمدينة كل شىء مباح . هل تعلم ذلك ؟

– نعم أعلم ذلك ، ولكن كيف يحصلون على المال ؟

– السرقة مباحة فى الجزء الخلفى للمدينة . كل شخص مباح له أن يسرق هناك ويودع مايسرقه « الخزن العام » فى الجزء الخلفى .

فصاح (ميم) مشدوهاً وقد شعر بأن ذهنه أصبح عاجزاً عن التفكير . ولم يعد فى استطاعته فهم أى شىء .

– الخزن ؟ ! أى مخزن هذا ؟

فقال المتحدث فى هدوء وكأنه أستاذ يشرح لتلاميذه إحدى النظريات الاقتصادية الهامة :

– الكل يسرق فى الجزء الخلفى للمدينة . ولكن لا أحد يستولى على ما يسرقه . بل يودعه « الخزن » ومن مجموع هذه السرقات يمتلئ الخزن . وكل شخص فى أية لحظة من لحظات النهار أو الليل له الحق فى أن يذهب إلى الخزن ويأخذ أى مبلغ من المال ، ما عدا أفراداً قلائل . هم المقربون لمالك المدينة .

وهؤلاء يحصلون على أموال طائلة عن طريق التبرعات والهبات .

فشعر ميم بخدر يسرى فى جسده وأوشكت أن تسقط من يده سماعة التليفون وقال كأنه يحدث نفسه :

– إذن فلقد كنت أنا الشخص الوحيد فى المدينة الذى يدور فى الطاحونة ويلهب ظهره بالسياط حتى ينفجر منه الدم فى مقابل عشرين قرشاً لا تشترى سوى ربع رغيف !

فقال الطرف الآخر :

– أجل . هذا صحيح . . أنت أشرف من فى هذه المدينة . هيا واصل الرسالة التى من أجلها أتيت . . هيا ابحث عن الحقيقة فكلنا فى انتظار نتيجة عملك . . هيا ابحث عن الحقيقة . . ابحث عن الحقيقة .

أحس (ميم) كأن هذه الكلمات تلطم أذنه ، وشعر بيده لا تقوى على حمل السماعة فتركها مدلاة تتأرجح ولا يزال يسمع بصوت واضح تلك الجملة المكررة « ابحث عن الحقيقة » منبعثة من السماعة . التقط السماعة بصعوبة وثبتها تحت ذقنه وقال :

– ولماذا لم يخبرنى أحد بتلك الحقيقة وتركنى الجميع أدور فى الطاحونة وأتعذب ؟

فقال المتحدث :

– كيف تطلب من أحد أن يخبرك عن إحدى الحقائق وقد جئت المدينة للبحث عن الحقيقة ؟ كان من المفروض أن تتوصل إلى معرفة تلك الحقيقة بنفسك ، ولا يملك أحد حق اطلاعك على هذه الحقيقة أو غيرها من الحقائق .

فصاح ميم قائلاً :

— من أنت ؟

فقال المتحدث :

— لن تستفيد من معرفة اسمى ، ولكنك قد تستفيد من سماع حقيقى ؟

فقال ميم :

— وما الحقيقة التى جئت للمدينة لأبحث عنها ؟

فسمع الصوت يقول :

— حقائق كثيرة مازلنا نجهلها جميعاً ، حتى أنا أتوق لمعرفتها والتيقن منها ،

قال (ميم) :

— مثل ماذا ؟

— حقائق تتعلق بمالك المدينة . حاول أن تعرف كل شيء عنه ، وعليك أن تثبت وجوده ، وتعرف ماذا يحدث لنا بعد أن ينفذ فينا حكم الإعدام ويلقوا بنا فى البالوعة ؟ هناك أقوال متعارضة ونريد أن نعرف الحقيقة . وهل نحن حقيقة دمى صنعها مالك المدينة ؟ ولماذا صنعنا ؟ وهل هو الذى يحركنا كما يشاء أو ترك لنا حرية الحركة ؟ وما عمر هذه المدينة ؟ وما مستقبلها ؟ وماذا فى داخل أجسامنا ؟ كيف نتحرك ؟ وكيف نفكر ؟ وما الدمى الأخرى التى صنعها مالك المدينة غيرنا ؟ وماذا فى داخل أجسامها ؟ وكيف تضاء المدينة ؟ وكيف يسودها الظلام ؟ وهل توجد مدن أخرى غير هذه المدينة ؟ وماذا فى هذه المدن إن وجدت ؟ وكيف نفرح ؟ وكيف نحزن ؟ وكيف نخاف ؟ وكيف يحدث الزلزال ؟ ولماذا ينفذ حكم الإعدام فى أطفال أبرياء ، ويؤجل حكم الإعدام فى البعض

الآخر حتى يبلغوا من العمر عتياً ؟ كل أهل المدينة فى انتظار معرفة ذلك . . وهناك أشياء أخرى نريد منك معرفتها . . مثل . . .

شعر ميم بإعياء شديد ، فأفلتت السماعة من تحت ثقله ، فتركها متدلاة ، وأطبق على الغرفة صمت رهيب لم يعد يسمع الحديث الذى لا يزال منبعثاً من السماعة . وأدرك أن يده الأخرى لم تعد محتضنة ابنته . أدار بصره فى أنحاء الغرفة فلم يجدها . أسرع نحو الغرفة الصغيرة الملحقة بغرفته ، فوجد ابنته نائمة لأول مرة منذ رآها فى البرج وقد تكور جسدها الصغير فى أحد أركان الغرفة . فوقف ينظر إليها فى حنان ، ثم جلس بجوارها ووضع يده على جبينها ، فانزعج عندما وجد جبينها باردة كالثلج . لم تكن نائمة . لقد نفذ فيها حكم الإعدام .

انحنى عليها يقبلها ودموعه تبلل وجهها ولم يدر كم مضى من الوقت وهو على هذه الحال ؟ وحانت منه التفاتة نحو باب الغرفة ، فوجد الخادم واقفاً وكأنه تمثال من الشمع فصرخ (ميم) قائلاً :

— أين الأزهار ؟

فقال الخادم وقد شحب وجهه :

— أى أزهار ياسيدى ؟

فقال (ميم) صائحاً :

— أريد أزهاراً كثيرة أغطى بها جسدها حتى لا تشعر بالبرد !

فانطلق الخادم يعدو وعاد بعد لحظة وفى يده باقة ضخمة من الأزهار اختطفها منه (ميم) ، ونثرها فوق جثة ابنته ، واختفى الخادم ، ورأى (ميم) عند باب الغرفة رجلين يرتديان لباب السهرة السوداء وعلى رأس كل منهما قبعة

عالية ، تقدم أحد الرجلين نحو جثة الطفلة فصاح (ميم) في رعب :

– ماذا تفعلان بجثتها ؟ ماذا تفعلان ؟

فقال أحد الرجلين بهدوء :

– لقد نفذ في ابنتك حكم الإعدام جوعاً .

فنظر إليهما (ميم) في ذهول والدموع تنساب على خديه ، وحاول أن يتكلم ، ولكنه عجز عن الكلام . حمل أحد الرجلين جثة الطفلة ، فسقطت من فوقها بعض الأزهار ، فالتقطها (ميم) وأعاد وضعها فوق جثتها ، واتجه الرجلان نحو المصعد الذي كان مفتوحاً وبجواره عامل المصعد ، دخل الرجل الذي يحمل جثة الطفلة أولاً ثم دخل خلفه الرجل الآخر ، ووقف (ميم) أمام باب المصعد مطأطئ الرأس يبكي ، فقال عامل المصعد (لميم) :

– يمكنك يا سيد (ميم) أن تهبط بالمصعد مع جثة ابنتك . لقد صدرت الأوامر بالسماح لك باستخدام المصعد في هذه المناسبة فقط .

فدخل (ميم) مصعد البرج لأول مرة ، ودخل خلفه عامل المصعد ، وأقفل الباب . وهبط المصعد حتى وصل إلى الدور الأرضي .

كان جميع موظفي البرج والحرس مرتصين داخل البرج وخارجه . وعندما خرج ميم والرجلان اللذان يحمل أحدهما جثة الطفلة سجد جميع الموظفين والحرس المصطفين حتى لمست جباههم الأرض ، وانبعثت من جميع أنحاء البرج موسيقى حزينة من مكبرات الصوت غير مرئية . واتجه الرجلان نحو سيارة سوداء عند باب البرج . وضعوا الجثة في السيارة ، وجلس أحد الرجلين خلف عجلة القيادة والآخر بجواره ، وانطلقت السيارة وخلفها (ميم) يجري والدموع تبلل

خديه والأزهار تلقى على العربة من جميع الشرفات .

بعد فترة قصيرة بدأت السيارة السوداء تسير ببطء ، وتمكن (ميم) من أن يظل سائراً خلفها حتى وصلت إلى البالوعة ، فهبط الرجلان من السيارة ، واتجه أحدهما إلى غطاء البالوعة فرفعه ، وسمع (ميم) صوت القطار الذي اعتاد سماعه كلما فتحت البالوعة ، وحمل الرجل الآخر جثة الطفلة وألقى بها في البالوعة ، ثم أعاد غطاءها إلى مكانه ، وعاد الرجلان إلى مكانيهما بالسيارة التي انطلقت في الاتجاه المضاد .

ظل (ميم) جالساً بالقرب من غطاء البالوعة لا يقوى على القيام ، ثم انتابته نوبة بكاء ، فظل يبكي في صمت . وسمع صوت سيارة منطلقة بأقصى سرعتها ، ونظر فرآها قادمة نحوه . ووقفت أمامه وهبط منها رجل يرتدي زي سائقي سيارات البرج ، ووقف أمام ميم ورفع يده بالتحية قائلاً :

– تفضل يا سيدي (ميم) إلى البرج ، لقد صدرت الأوامر العليا بالسماح لك بركوب إحدى سيارات البرج في هذه المناسبة فقط .

فقام (ميم) يجر جسده من فرط الإعياء وكأنه يحمل البرج على ظهره ! وساعده السائق حتى جلس في المقعد الخلفي للسيارة التي انطلقت بأقصى سرعتها نحو البرج . لم ير (ميم) شيئاً ولم يسمع شيئاً في أثناء الطريق ، فلقد كان لا يفكر إلا في ابنته . ثم تذكر ابنه الذي نفذ فيه حكم الإعدام أيضاً ، وفي زوجته التي لا يعرف لها مكاناً ! ووقفت السيارة أمام البرج ، فظل (ميم) جالساً في ذهول . فتقدم منه السائق وقال :

– تفضل يا سيدي لقد وصلنا إلى البرج .

فهبط (ميم) من السيارة بصعوبة وهو لا يكاد يرى الحرس الذين اصطفوا لتحيته . وقاده أحد الحرس إلى المصعد قائلاً :

– تفضل ياسيدى ، لقد صدرت الأوامر العليا بالسماح لك بالصعود إلى غرفتك عن طريق المصعد فى هذه المناسبة فقط .

فدخل ميم المصعد وكأنه يسير وهو نائم . ووصل المصعد إلى قمة البرج فوق الطابق الأربعين حيث لا يوجد سوى غرفة (ميم) ، والغرفة الصغيرة الملحقة بها والتى نفذ فيها حكم الإعدام جوعاً فى ابنه . خرج من المصعد واتجه نحو غرفته وهو يترنح ، وما كاد يخطو بضع خطوات داخل الغرفة حتى سمع رنين جرس التليفون ، لم يتمكن من التقاط السماعة ، وظل الجرس يرن فى إصرار ، ولكن (ميم) تركه يرن ولم يحاول الرد على المتكلم . حاول أن يأخذ كتاباً من الكتب القلائل التى بقيت فى غرفته ، ولكنه عدل عن هذه الفكرة . شعر بخدر يسرى فى جسده . لقد تم تنفيذ حكم الإعدام فيه !

فى هذه اللحظة بدأت ترن جميع الأجراس التى فى البرج ، بل وجميع الأجراس التى فى المدينة ، وساد هرج فى جميع أنحاء البرج ، وهرع إلى الغرفة عدد هائل من الموظفين ، فاكتظت بهم الحجرة والمكان الذى أمامها ، وأقبل رجلان يرتديان ملابس السهرة السوداء ، وشقا طريقهما بين جموع الموظفين المحتشدة ، واتجها نحو جثة (ميم) فحملاها ، وصاح أحد موظفى البرج فى غضب موجهاً حديثه للرجلين :

– كيف نفذ فيه حكم الأعدام ؟ وبأى وسيلة قتل ؟

فقال أحد الرجلين :

– لقد نفذ فيه حكم الإعدام حزناً !

فصاح الموظف فى غضب ملوحاً بقبضة يده أمام وجه الرجلين حتى كادت تلمس أنف أحدهما :

– ولماذا يحكم عليه بالإعدام حزناً ؟ إنه أشرف من فى المدينة ! إنه صاحب رسالة نبيلة ، إنه يبحث عن الحقيقة ، وكنا جميعاً ننتظر نتيجة بحثه . لماذا يحكم عليه بالإعدام حزناً !

فقال أحد الرجلين فى هدوء وهما يتجهان بجثته نحو المصعد :

– تلك كانت بعض جوانب الحقيقة التى جاء ليبحث عنها ، كان من ضمن رسالته أن يتوصل إلى الإجابة عن مثل هذه الأسئلة .

وفى هذه اللحظة ظهر رجل فارع الطول عريض المنكبين ذو عنق غليظ ورأس صغير لا يناسب حجم جسمه . لا يدرى أحد من أين أتى ؟ وكان يلهث وكأنه جرى مسافة طويلة قبل وصوله إلى ذلك المكان . وقف أمام المصعد مانعاً الجميع من دخوله . فنظروا إليه فى دهشة وسأله الخادم :

– أنا لم أتشرف برؤيتك من قبل ، فهل أنت من موظفى البرج ؟ وماذا تريد ؟

فقال الرجل وهو لا يزال يلهث :

– أنا مندوب الضرائب . السيد (ميم نون) لم يسدد المستحق عليه من ضرائب وجئت لتحصيلها منه !

فصاح موظف البرج الذى سبق أن لوح بقبضة يده أمام وجهى الرجلين اللذين يحملان جثة ميم قائلاً :

– السيد (ميم نون) نفذ فيه حكم الإعدام ، هل تريد تحصيل الضرائب من جثة ؟ ألا يكفى أنه كان الشخص الوحيد فى المدينة الذى يدور فى الطاحونة ، وتريد الآن أن تجعله الشخص الوحيد فى المدينة الذى تجبى منه ضرائب ؟

فقال مندوب الضرائب وقد بدأت تهدأ أنفاسه :

– أنت تعلم ، والجميع يعلمون أن السيد (ميم نون) هو الوحيد فى المدينة الخاضع للضرائب . فالضرائب لا تجبى إلا ممن يحصل على رزقه من عمل يبذل فى سبيله مجهوداً عنيفاً . فهل من المعقول أن أتغاضى عن أداء واجبى ، وأتخلى عن تحصيل الضرائب من الشخص الوحيد فى المدينة الخاضع لها ؟

وضع الرجلان المتشحان بالسواد جثة (ميم) على الأرض ، ووقفا فى انتظار التوصل إلى حل لتلك المشكلة التى لم تكن فى الحسبان ، وقال الخادم :

– لو فتشت جميع جيوبه لما وجدت معه مليماً واحداً ، لقد عاش طوال حياته يدور فى الطاحونة ، ويضرب بالسياط فى مقابل الحصول على عشرين قرشاً لا تكفى الآن شراء ربع رغيف ، ولقد تم تنفيذ حكم الإعدام فى ابنه جوعاً عندما عجز عن إمساك رمقها .

قال مندوب الضرائب :

– لا شأن لى بذلك ! يجب أن يسدد ما هو مستحق عليه من ضرائب . ومهمتى تحصيلها منه بأية وسيلة !

فقال الموظف الغاضب :

– ألا تفهم ؟ لقد قال لك خادمه : إنه لا يمتلك مليماً واحداً . وكلنا نعلم ذلك .

قال مندوب الضرائب مشيراً نحو جثة (ميم) التى ما زالت على الأرض بجوار المصعد :

– إنه يمتلك هذه البدلة وهذا القميص ، سأستولى عليهما سداداً للضرائب ، ولو أن البدلة رثة والقميص ملوث بالدماء : لن أتركه يفلت منّى .

وفى مثل لمح البصر انقض مندوب الضرائب على جثة (ميم نون) وجرده من سترته وقميصه ، فأصبح نصفه الأعلى عاريا وظهرت الجروح العديدة الدامية ، وبينما هو يحاول خلع سروال ميم دفعه الخادم . فألقاه على ظهره ، وأخذ يركله بقدمه عدة ركلات جعلته يتدحرج على السلم . والتقى الرجلان المتشحان بالسواد ، وحملا جثة (ميم) . ودخلا المصعد . وقد تدلت إحدى يديه . واستقرت اليد الأخرى فوق صدره ، ودخل خلفهما عامل المصعد ، وهبط المصعد . وخرجا منه فى الدور الأرضى . واتجها حاملين الجثة نحو السيارة السوداء الواقفة أمام باب البرج .

كان الشارع وجميع الشرفات قد امتلأت بأعداد هائلة من البشر بعضهم يبكى فى صمت . والبعض ينشج بصوت مرتفع . وضعت جثة (ميم) على منضدة أمام باب البرج . وبدا وجهه وسيماً ينم عن الطيبة وكأنه مستسلم لنوم عميق ، وعلى فمه ابتسامة . لا أحد يدرى هل كانت نتيجة تقلصات فى عضلات الوجه أو هى ابتسامة حقيقية تدل على الرضا والاستسلام ؟ وتقدمت فتاة المطعم التى كانت أول من قدم له الطعام عندما وجد نفسه فى المدينة .

كانت تمسح دموعها من آن لآخر ، وانحنت وطبعت على جبينه قبلة . ثم جاءت بعدها الفتاة التي كانت قد توسطت لتأجيل تنفيذ حكم الإعدام فيه والتي وضعت في جيبه خمسين جنيهاً ، وانحنت بدورها وقبلته في جبينه ، ثم انخرطت في بكاء عنيف . وتوالى بعد ذلك أطفال وفتيات وشبان ونساء ورجال يقبلون جبينه ، وبعضهم يزداد انفعاله ، فيهوى على قدمه أو يديه فيقبلها ! وكان من الممكن أن يمتد هذا المشهد لعدة أيام ، ولكن الرجلين ذوى الملابس السوداء حملا الجثة ووضعاها في السيارة السوداء ، والجماهير في الشارع وفي الشرفات تبكي وتلوح بالمناديل والأعلام مودعة (ميم) وسارت السيارة وخلفها آلاف من أهل المدينة يلقون الأزهار على السيارة ، كما انهالت الأزهار على السيارة من الشرفات . ثم أخذ الجميع يترنمون بأناشيد حزينة شجية الألحان !

وصلت السيارة إلى البالوعة وخلفها معظم أهل المدينة ، فهبط الرجلان من السيارة ، وفتح أحدهما البالوعة ، ثم اتجه نحو السيارة ، وتعاون هو وزميله في حمل جسد (ميم) وألقوه في البالوعة ، وأعادا إليها غطاءها . وارتفع صوت الجماهير ينشدون تلك الأناشيد الحزينة ، ثم بدأ الجميع ينصرفون ، ولم يبق بجوار البالوعة سوى شاب نحيل تبدو عليه الحيرة ينظر حوله بعينين زائغتين مبهوراً بجمال المدينة . فلمحه شيخ في نحو السبعين ، تقدم نحو الشاب وسأله :

– ماذا وقوفك هنا أيها الشاب وقد انصرف الجميع ؟ هل تبحث عن شيء ؟

فقال الشاب وهو ينظر حوله في ذهول :

– لست أدرى ! يخيل إلى أنى أبحث عن شيء لكننى لا أعرف ما هو ؟.

فقال له الشيخ :

– هيا يا بنى أذهب إلى منزلك ، لا داعى للوقوف هنا .

فقال الشاب :

– أنا لا أعرف لى منزلاً . لقد وجدت نفسى في هذه المدينة التى لا أعرف عنها شيئاً ، حتى اسمها لا أعرفه ، ولا أدرى من أى مكان أتيت ؟

فنظر إليه الشيخ وأطال النظر ثم قال :

– يمكنك أن تسأل عن كل هذا في مكتب الاستعلامات . إنه في هذا الشارع قبيل ميدان الشاعر . اذهب في هذا الاتجاه تجد المكتب على اليمين .

وترك الشيخ الشاب واقفاً . ثم سار الشاب في الاتجاه الذى أشار إليه الشيخ . وفى أثناء سيره في الشارع خرجت الفتيات والفتيان إلى الشرفات يحيونه بالعزف على الجيتار ويثرون عليه الورود والأزهار ، ويترنمون بأناشيد عذبة الألحان ترحيباً به . فقال لنفسه : ما أجمل هذه المدينة ! وعندما وصل إلى مكتب الاستعلامات تقدم في خجل نحو الفتاة الجالسة خلف المكتب وسألها :

– لقد وجدت نفسى في هذه المدينة وأريد أن أعرف اسمها ، ومن أين ؟ ولماذا أتيت هنا وكيف أكسب رزقى ؟.

فابتسمت له الفتاة ابتسامة رقيقة وناولته ورقة وقلما قائلة :

– اكتب كل ماتود الاستفهام عنه في هذه الورقة وضعها في الفتحة التى في هذا الجهاز المثبت بالجدار ، ثم اضغط على الزر الأخضر تحصل على الإجابة عن كل أسئلتك .

فكتب الشاب الأسئلة ووضع الورقة فى فتحة الجهاز ، وضغط على الزر الأخضر ، فخرجت ورقة بها الإجابة هكذا :

– اسم المدينة : اسم المدينة لا يدل على شىء . سمها كما تريد !

– من أى مكان أتيت : أتيت من مكان مجهول !

– المهمة التى أتيت من أجلها : البحث عن الحقيقة !

– كيف تكسب رزقك هنا : در فى الطاحونة !

قرأ الشاب هذه الأسطر وسأل الفتاة :

– أين أجد الطاحونة التى سأدور فيها ؟

فقالت الفتاة وعلى شفتيها ابتسامة عذبة :

– على اليمين ، على بعد خطوات من هذا المكتب ، ولكن يبدو أنك جائع . اذهب أولاً إلى المطعم فى المبنى ٦٢٩ ، وتناول طعامك هناك ، ستخبرك فتاة المطعم عن مكان إقامتك . ولك الحق فى السكن والغذاء مجاناً لمدة عام قبل أن تبدأ الدوران فى الطاحونة ، ستحضر ضيفاً على المدينة لمدة عام .

فشكرها الشاب وقد احمر وجهه خجلاً واتجه نحو المطعم .

(انتهت)

رقم الإيداع	١٩٨١/١٧١٤
الترقيم الدولى	٩٧٧-٧٣١١-٥٠٠-٤ ISBN

١/٨٠/٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

هذه الرواية

يجسد المؤلف خلال هذا العمل الروائي قضية الإنسان الفرد المتماسك الذى يجد نفسه وحيداً بحكم قدر وجوده . يحمل على عاتقه أوزار مدينة بأكملها .

لقد تخيل المؤلف شارعاً نظيفاً من كل شيء ، لكنه يخفي وراءه جوهراً مريضاً ، وأنماطاً معقدة ساقطة .

وإذا كانت هذه الرواية تنحو المنحى الوجودى التشاؤمى ، فإنها - مع ذلك - تدفع الإنسان إلى ممارسة الحياة بحكم وجوده وقدره .

١٦٤٨٣ / ٠١

ص
٢٠٠